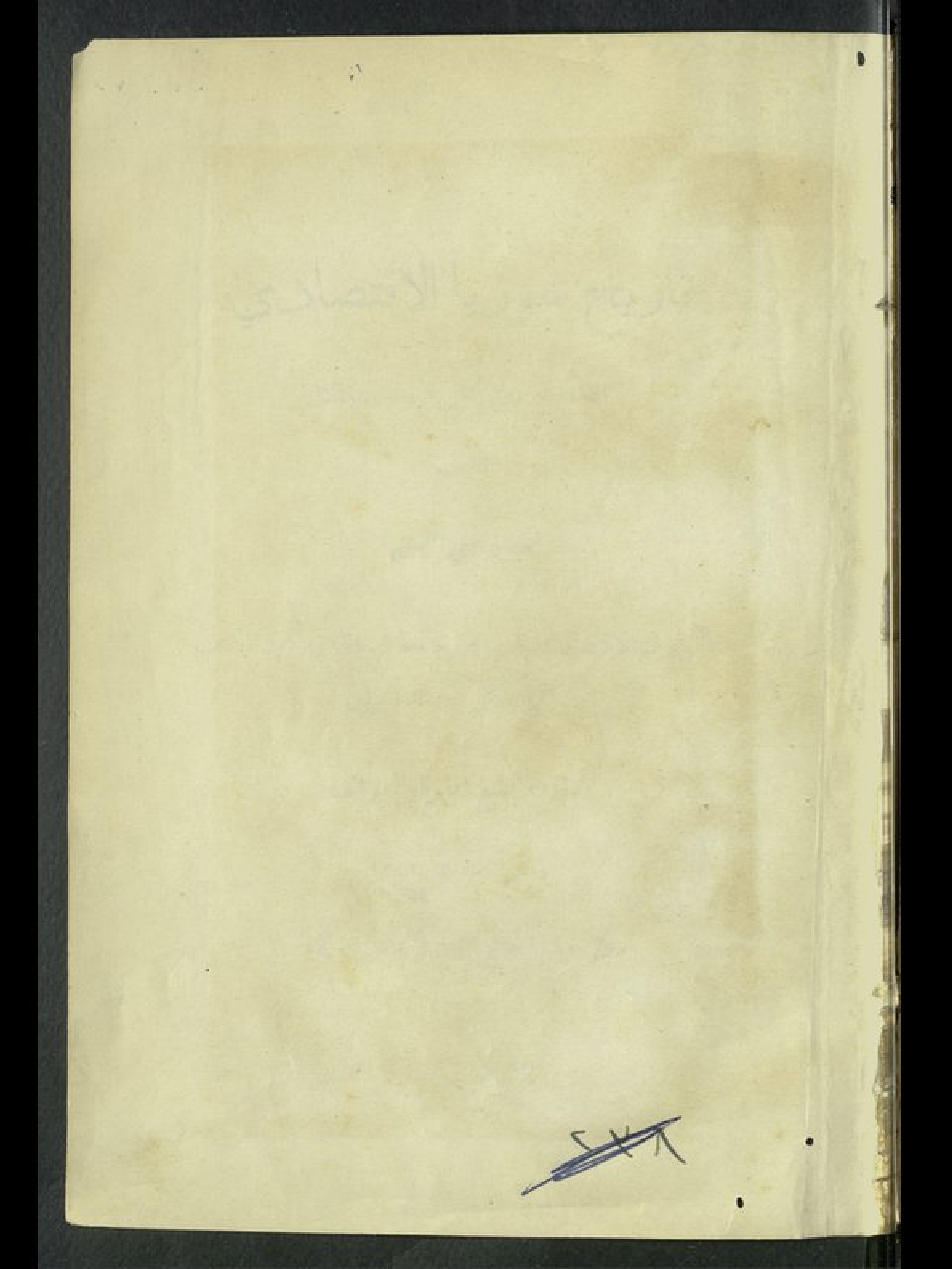
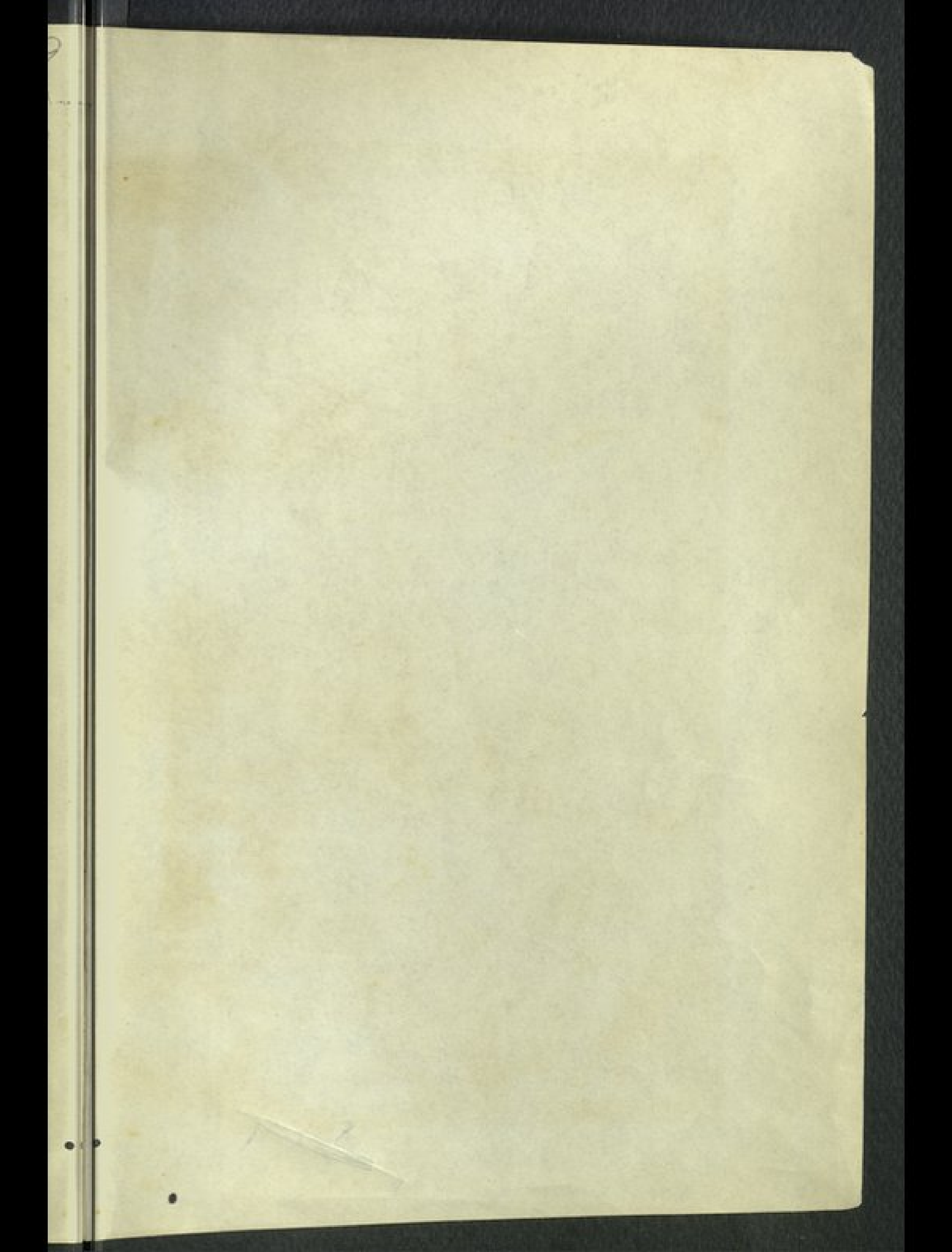




تاريخ سوريا الاقتصادي

الاقتصاد روح الحرية والاستقلال

تأليف

الامير علي الحسني

دوقتور في الاقتصاد السياسي من جامعة (ڤينا) ومأذون المكتب
الزراعي العالي في (برلين)

دمشق سنة ١٣٤٢
١٩٢٤

مطبعة بدائع الفنون * بدمشق



توطئة

يبحث التاريخ الاقتصادي عن الحوادث التاريخيه التي لها تأثير يذكر في حياة البلاد الماديه • وعن نشاط الافراد وجهودهم المبذول في سبيل تأمين احتياجاتهم الحيويه بواسطة اعمالهم المنتظمه المتقنه • تلك الجهود المتولده • من قلة احتواء المستوى الطبيعي على المواد اللازمه لتأمين احتياجاتهم او وجودها بصورة تفتقر الى الاصلاح والتحويل

وقد بني التاريخ الاقتصادي معظم اكتشافاته على الحوادث التي قصها التاريخ بين صفحاته • بيد انه خالفه في عدم اعتباره الحوادث التي لا يكون لها تأثير محسوس على تطورات البلاد الماديه وهو لا يعير اهتماماً لتنازع الملوك واتحاد الرعيه على السلطة الزمنيه لمجرد كونها حوادث تاريخيه • بل يقتصر على ما يهمه من الحادثات التي تؤثر على مجهودات الافراد المنصرفه على تأمين احتياجاتهم فحسب !

وبعد فان الغاية التي استهدفناها فربثنا الهاسهام افكارنا في كتابنا هذا (تاريخ سوريا الاقتصادي) هي البحث عن عوامل ثروة البلاد السوريه منذ اقدم الاجيال الى هذا العصر • ونحن بذلك لا نذهب مذهب اولئك الذين يقولون ان الاقتصاد وحده يعين هيئة المجتمع كما زعم ماركس Marx بقوله الاقتصاد يؤسس بنيانا تقوم عليه الافكار البشريه والاخلاق الفطريه ، فانني اعتبر الاقتصاد من اهم الوسائل الآيله الى نجاح الامم المتمدنه ورقيها • وان اهماله يؤثر على اعظم مقدسات الاجتماع • وفي ذلك الاهمال تفقد الهيئة البشرية اثمن سجية تملاء القلب الانساني بالعواطف الساميه والاحساسات الكبيره واعني بها الحرية السياسية !

والنشاط الاقتصادي يكتسب صفة اخلاقيه سيما عند الامم الضعيفه ، المغلوب على امرها التي فقدت اراكين قواها بتحول مجاري العصر عن ينابيعه وانقلاب مؤسساته كالامة السورية مثلا • وهو لم يخف على مفكري هذه البلاد فسعوا سعيا حثيثا حتى تسنى لها ان تنهض فتجتاز دورا جديدا من الحكم الذاتي • على اثر احتكاك افكار بعض ابنائها

نعمان زيادة

تشرين الثاني ١٩٢٩

مع افراد الامم الراقيه فى منتصف القرن الماضي — الا انه حال بينها وبين ذلك الرقى الاقتصادي التي طالما نشدته، عدم وجود ادارة مركزية عادلة توثر على اجتهاد آحادها في سبيل نهضة المجموع . زد عليه جهل اكثر السوريين من رقي اجدادهم الاقتصادي فى العصور الخالية ليقتبسوا من مشكاة انواره ما يهديهم الى الصراط السوي

تلك المستندات القيمة ، واعني بها فقدان الموازنة بين المواهب الفكرية والقوى المادية . هي التى تلتجاء اليها الدول الغربيه اليوم في التأثير والهيمنة على الشعوب الشرقية ولا يمكن التخلص من هذه الحال المؤلمة التى لا تليق باهل قطر هو منبع الحركة الدينية ومدير دفتها في الكرة الارضية — تقريبا — الا بالنهوض الاقتصادي التى تنشده البلاد باقصى مايكون من اللهف والشغف فيهيب بها الى ذراري الرفعة ومنشاء الحضارة المشبحرة .

واذا جاز لنا ان نشبه الامم بافرادها . يمكننا القول بان التاريخ يقوم مقام التجارب البشرية وعبثاً نسعى وراء حل الازمات الاقتصادية وتهيئة سعادة الغد اذ جهلنا ماجريات الاحوال الماضية . ولم نستفد من عظة — الامس . لاسيما وهذه الحيات قصيرة المدي لا تسمح لاهلها ان يتجمعوا شوارد اذهانهم فيتملكون فكرة — صحيحة صادقة . عارفة بحقيقه بعض الامم واحتياجاتها ومقدرة ابنائها .

كل من زار سوريا اوعاش في ربوعها حوالي القرن الخامس عشر او السادس عشر وكان جاهلا للتاريخ لايقدر ان يتصور استطاعة هذه البلاد على ايجاد معائش تزيد عن حاجة سكان بيوتها الحقيرة المعدودة . غير انه لما استنارت العقول بكهربائية المعارف وانطلقت الاذهان من عقال الجهل فالم المفكرون على عظمة تلك الاطلال الباهرة وشاهدوا اثار بعلبك وتدمر وعاديات بصرى التاريخية وقراءوا النقوش المرسومة بزخارفها على اعمدتها القائمة كالاطواد الراسخة في صحاري تلك البادية المترامية لم يتوانوا عن احناء روسهم حيا لها تقديرا لتلك الارادة الجبارة التى تجسمت في قوة الشعب السوري النشيط الذي شاد اركانها ورفع جدرانها . واتسع لديهم عيانا . بلغ شاعريته الفنية النفيسة وطول باعه في الامور الاقتصاديه . فتفجرت هنالك عقيدة

الجهلاء واذ ثرت الشكوك في مقدرة ابناء هذه البلاد فجاهروا بروائع الحضارة السورية وتاريخها الزاهر وقابلية ابنائها واستعدادهم لتأمين مستقبل باهر .

تلك حقائق راهنة لم يكتف التاريخ في سردها . على شهادة الاستدلال فحسب بل يستند على مسائل تاريخيه وبراهين اثرية تثبت ذلك باجلى بيان . وتؤيده بابلغ الحجج الدامغة ، فتحوله من قناعة بدعمه الى عمل منقذ والاهتمام بالامور الاقتصادية ليس حديث العهد فهو قديم جدا يرجع الى حقب التاريخ المندرسة ولو دققنا في مصنفات العلماء الاقدمين والحكماء الافذاذ لالفيناها تحتوي على مباحث مستفيضة في هذا الباب . فافلاطون يذكر بمؤلفه المرسوم ب الجمهورية والقوانين :

ان المصلحة الاقتصادية هي التي تربط سكان اثينه باوضاعهم الديموقراطيه . وصاحب كتاب « حكومة اثينه » يعرفنا ان اهم اشغال هذه الحكومة كانت نحو استجلاب صداقة امراء البوسفور لتأمين سير الملاحة وتنقلات السفن التى كانت تحمل الحنطة الى بلادها مارة من ذلك المضيق وارسطوطاليس يقص علينا اشياء كثيرا من الروابط والصلات الموجودة بين توزيع الثروة القومية على الافراد وبين اصول الادارة التى كانت تجري عليها الهيئة الحاكمة ، كما يوضح تأثير توزيع الاراضي بين السكان على الافكار العمومية بقوله : ان الاحزاب تفضل العراك في سبيل نيل الفوائد المادية اكثر من التنازع على لقب التبجيل وامارات الشرف

ومع اهمية الامور الاقتصادية في العقود السابقة لا يمكننا قياسها على صورة الحياة الاجتماعيه العصرية بعد تخطيط المدن وتأسيس البلاد الصناعية حيث ازداد التنازع بين الافراد ازديادا مدهشا تحقيقا لمطامعهم واحتياجاتهم واصبحت القوة الاقتصادية امضى سلاح لتأمين رغبات الشعوب وحفظ حريتهم السياسية . والشرق الذي عانى ما عاناه من فداحة الارهاق وجم النصب ظل حقبة من دهره مستكينا للقوى المادية القاهرة . يتجرع غصص الشقاء الاقتصادي . وبعد اختلاطه بالغرب واطلاعه على قواه المبذولة في منهج التاع بتأمين اقتصادياته وما يقوم به من المجهودات لتصريف ما لديه من وافر المحصولات لم يمكث على حالته الآنفة الذكر فهب من سباته

العميق وقد توقد في قلبه حب التشبه بتلك الهمة القعساء والمقدرات الاقتصادية الكبرى فبذر في انحاء ربوعه افكار حديثة لاندتم ان تثمر لابناء هذا الجيل الحيات الحرة السعيدة والرقي الاقتصادي المنشود .

ولامشاحة في ان الواجب الوطني يقضي على كل مفكر ارتشف من مناهل العلم واقتبس من نبراس المعارف ان يستفيد من هذه النهضة الاقتصاديه ويسعى في تحويلها الى حركة اجتماعية عظيمة تؤمن لهذه الاقوام البائسة حياة طيبة هنية وعيشا رضيا رحباً .

من السهل الممكن ان نثابر على مسالك ومفاوز التقدم الاقتصادي دون ان ندع مجالاً لمساعي بعض المؤسسات الاجتماعية الغربية ان تؤثر على عزائمنا الصلبة الفولاذية المتجهة نحو هذه الغاية . اذ انه رغما عن الاضطرابات العالمية التي اعقبت الحرب العامة فانتجت الثورات وولدت الانقلابات . لانقدر على الجزم بان اوضاع المدنية الحاضره الموسسة على قواعد الملكية الشخصية والمنافع الاقتصادية تزعزعت اركانها وانهارت دعائمها ومهما تطورت العلائق بين العمال وبين مالكي وسائط المحصولات فالمنفعة الاقتصادية ستبقى دائما اساس الحركة الزراعية والتجارية والصناعية . ومن المستحيل تشكيل جمعية مبنية على انقاض نظريات تخذبها ونائم الحال ونعدخرقا لاصول الاجتماع والنظم البشرية التي يضرب التاريخ امثالها بتجارب الامم المختلفة منذ آلاف السنين .

اما فوائد الاقتصاد فهي كثيرة . متوافرة . فانه يخدم الرقي الفكري ويساعد الامم على الاتصاف بالكمال والاخلاص بابعادها عن مخالب الفقر وبراثن الفاقة .

ليت شعري هل منعت الامور الاقتصاديه والمصالح المادية المشروحة في كتب افلاطون وارسطوطاليس واتباعهما ذلك الشعب (الاغريقي) عن انشاء آثاره الجميلة المزخرفة التي باتت من المفاخر البشرية الخالدة ام هل لم تستطع الطرق البرية والبحرية التي كانت تسير عليها القوافل والجنود بين رومة واثينه لتأمين الرابطة الفكرية بين شعبي هذين المملكتين . بل هل كنا نقدر على المفاخرة في هذا العصر بتلك الآثار المعمارية والبدائع الهندسية التي انتجت قرائح اربابها مساجد الاقصى والاموي والقيروان ثم الحمراء والزهراء لولا تلك الاسس الاقتصادية التي اوجدتها مخيلة عمر بن الخطاب وجرى عليها عبد الملك

في الشام وعبد الرحمن في الاندلس . فالاقتصاد وان لم يكن اس المذهب والاخلاق فهو ركن مهم في حياة الشعوب المعنوية وسد ذاتي للتكامل البشري وحماية تلك القوى المادية . ولا يمكن ان يكون اهماله دليلاً على الاباء عن المنافع المادية . بل هو قصر نظرة ومن العبث ان يدوم ذلك الاهمال دون ان يؤخر تقدم البلاد في مناهل الرقي فتندفع قسراً تحت عوامل المعيشة الاقتصادية ذات الروابط الوثيقة الى الانضواء تحت راية اهل تلك القوة القاهرة .

والآن فلنرَ فيما اذا كان السوري يستطيع ان يجتاز طرق الحياة الاقتصادية العصرية . فيجاري الامم الغربية في هذا المضمار :

يقول التاريخ ان سوريا فضلا عن كونها موطناً لاهم الافكار الدينية التي امتلكت شواعر معظم سكان البسيطة . فقد ساعدت الغرب على تقدمه الاقتصادي . لما كانت في غرة المجد ترفل في مطرف العز ودمقس الحضارة . فالفينيقيون احدى الشعوب النشيطة التي استوطنت سوريا في القرون الاولى هم الذين علموا اليونان اصول الملاحة والتقايات وصنع الادوات النحاسية الحمراء وكيفية الاستفادة من المناجم الارضية كما علموا الرومانيين كثيرا من الصنائع الشرقية بواسطة بعض الاقوام التي كانت تقطن شمالي ايطاليه وتسمى (بالاتروسكيين) !

وكذلك اوروبا فانها تعلمت صناعة حياكة الاقمشه واستخراج المعادن من الدمشقيين واكثر اصحاب معامل ليون معلوماتهم الناقصه في صناعة الاقمشه الثمينة التي اشتهرت بها سوريا في الاجيال الغابره . والتي كانت مختصة بلباس الطبقة العليا بواسطة الحلبيين . ومن السوريين ايضا اقتبست الولايات الفرنسيه اصول المطاحن الهوائية وكانت قبلئذ مجهولة في تلك البلاد .

قال احد بحاثة الفرنسيين عن تأثير سوريه في حياة اوربا الصناعية والاقتصادية وما أدلته من الخدمات الجليلة التي افادت العالم كافة : يصادف تأسيس معامل الكتان في « لاقال و ليل و قامبره » عقيب انتهاء الحروب الصليبية وكذلك زمن تأسيس معامل الاقمشه والجوخ في « اميان و رايمس و أراس بروئه » وفي التاريخ ذاته انتشرت

صناعة تقطير الاشربة في البلاد الفرنسيه ...
تلك براهين قاطعة جعلت الاختصاصيين يطلقون اسم (الدور العربي) على عهد تعميم الاقمشة الحريرية بين القرن العاشر والقرن الرابع عشر في اوربا .
قال بوغو: ان تصدير هذه الاقمشه الثمينة الفاخرة الى اوربا كان من سوريا وكان اذ ذاك محصورا بها ورغم ما انتاب هذا القطر من الانحطاط الذى طرأ عليه من سوء ادارة الحكام فان ابنائه لم يفقدوا مزاياهم الاقتصاديه كلها ولما انبثق فجر القرن التاسع عشر دبت فيهم حياة جديده دبيب الكهرباء في الاجسام فبذلوا جهودهم في سبيل التجدد والنهوض . فتكللت بعض اعمالهم بالنجاح وتحققت آمالهم . لاسيما بعض الاصلاحات الادارية التى ادخلتها الدولة العثمانية على هذه البلاد وورد ذكرها في في التاريخ باسم تنظيمات خيرية كما سيأتي بيانه
قال مؤرخ فرنسوي سنة ١٨٩٢ : ان الارتقاء الحلى الذي يشاهده المرء مترقرقا بين جوانح الحيات السوريه الاقتصادية هو ثمرة اتعاب السوريين انفسهم بمعاونة بعض الفرنسيين المخصين لهم . وسنرى كيف تحرك المياه السوريه دواليب المعامل في الغد لانقلب تربة ارضها (فتزول حلكة المناظرات الدينية وتنقشع غيوم التعصبات المذهبية) الى رياض غناء مثمره بفضل جهودهم التى لاتعرف الكلل
هذه الادلة المحسوسة تثبت صراحة بان السوريين مقتدرون حق الاقتدار على النهوض ببلادهم في المسائل الاقتصادية الى مصاف البلاد الراقية التي تشابه سوريا بالمزايا الطبيعية كايطاليا مثلا ولكنها تفوقها باشياء عديده بالمعاهد الصناعيه والموسسات الاقتصادية ولا ينكر التاريخ اقتدار السوريين الاقتصادي بل يؤكده ويبرهن عليه نجاح بعض الذين هاجروا منهم الى مواطن تقدر بها المواهب الشخصية وتعرف قيمة العمل كالولايات المتحده والبرازيل واوستراليا . ولوان الشعوب الاوربية عاشت تحت تأثير الادارات التي قادت السوريين الى وهاد الخمول والحاجة لما كانت حالتها الاقتصادية خيراً من هذه البلاد .
ماذا يفيد وجود ارض طيبة صالحة للزراعة مع ايد قوية مهيئة لفلاحتها ان لم تكن الشرائط

الادارية مساعدة للاستفادة من ثمرات المثاق التي تتولد منها والاتعاب التي تنتج عنها . ولله در ميرابو حيث يقول «لا تزرع التربة لخصبها بل للحرية التي تكال تلك الارض» وسنبين في الصحائف الآتية مساوي ادارة الحكومات التي تعاقبت على سوريا وعلى محاسنها وما كان لها من التأثير في تقدمها الاقتصادي ومن الله نستمد العون والتوفيق :



الباب الأول

حالة سوريا الاقتصادية منذ الازمنة القديمة

حتى ظهور الدعوة الاسلامية

فينيقيا (اعمال الفينيقيين الاقتصادية)

تبتدأ اهمية سوريا الاقتصادية منذ سكن قسماً من ساحلها الذي عرف فيمابعد باسم فينيقيا احدى قبائل الكنعانيين الذين هاجروا اليها على قول بعض المؤلفين من اطراف بحر العجم المطيف (١) على اثر فوضى اجتماعية وقعت في بلادهم وتمتد هذه البقعه السوريه من النهر الكبير في الشمال الى جبل الكرمل في الجنوب وطولها يقرب ٢٠٥ ميلا والعرض يتراوح ما بين ٤ الى خمسة اميال

وقد اثبتت التحريات الاخيره بطلان الاعتقاد بان هذه الارض السورية الفنيقية لم تكن مسعده للزراعة (٢) ومع اقرارنا بان الزراعه لم تكن اساس حياة الفينيقين الاقتصادية يجب ان لانهمل التكلم على الاهميه التي كانوا يعطونها للزراعة على قدر ما تسمح لهم بذلك شرائط البلاد الطبيعيه وقد تكبدوا صعوبة حراثة التربة الجبليه باستعمال اصول المساكب المستوية وكانت هندسة المياه عندهم بدرجة من الرقي كافية لزراعة قسم مهم من الاشجار المثمرة

(١) Babelon Histoire Ancien de L'orient Tom 5 Page 105 Erythrée : وهردوت اول من تكلم من ان الفينيقين اتوا من بحر العجم الذي يدعيه

(٢) Honegger, Allgemeine Kulturgesehichte Bd 11 Page 201 1882-86 ; M. Wincler, Die Bedeutnng der Poenizier im Voelcerleben 1905 Page 14.

التي كانت تكال اكثر اطراف البلاد ولم يتركوا تلك المياه التي كانت تنحدر من جبال لبنان المكسوة بالاحراش تذهب سدى او تضيع في مياه البحر المالح بل كانوا ينتفعون بها في زراعتهم بصورة تناسب وسائط ذلك العصر الفنيه والسوريا اختصاص كبير بزراعة الاشجار المثمرة والعنب و يندر ان توجد ارض تصلح لزراعة هذه الاشجار كالاراضي السوريه واكبر شاهد على ذلك الحجم الذي تأخذه شجرة الزيتون بها ووجود دوالي من العنب البري حتى القرون الاخيرة في اطراف الكرمل (٣) وطرابلس وجبال النصيريه ثم اشجار الزيتون البرى على جبال امانوس وجبل موسى وجبل قصير (٤) وهذا دليل واضح على مساعدة الشرائط الطبيعية لنمو هذه النباتات الزراعية وقد ساعد توسع هذه الزراعة فقدان زراعة الزيتون في اكثر البلدان العظيمة التي كانت مركزاً للاعمال الصناعيه كمصر وما بين النهرين واحتياج معاملهم الى زيت فيقبا اصنع المراهم المعطره التى كانت مشهورة بتلك الاعصر القديمة ولم تدخل زراعة الزيتون الى غربي اوروبا الا بعد القرن السادس قبل الميلاد ومن الفينقين تعلمت اليونان زراعة العنب والنخل (٥) وكانت بيروت مشهورة بزراعة

(٣) Volney Voyage en Syrie Tom 11 Page 339 .
Anderlind die Fruchtbaeume in Syrien
(٤) Recueilles Consulairs Belges Tom 103 Page 249
(٥) Pietschmann, Geschichte der Phoenizier Page 14

العنب وكان الزبيب الذي يخرج من الاراضي المجاورة لها شهرة عظيمة في الازمنة القديمه (٦)

ويثبت لنا اهمية الزراعة عند الفنيقيين مشابهة اكثر اسماء آلهتهم لاسماء الاشجار المستعملة حتى يومنا هذا بالبلاد السوريه مثل :

	اسم الآله الفنيقي	ترجمته للعربيه
باروت	Barouth	السرو
تامار	Tamar	تمر (النخل)
ريمان	Riman	رمان
اتاسا	Atassa	حب الآس

ولكن على رغم كل ما ذكرناه من اهتمام الفنيقيين بالزراعة لم تكن هذه ركن حياة البلاد الاقتصادية لضيق الارض التي كانوا يسكنوها بالنسبة لعددهم ووضعية البلاد الجغرافيه التي كانت طريقاً للبضائع الآتية من الهند بل ان اساس حياة الفينيقيين الاقتصادية كان قبل كل شيء مبنياً على التجارة والصناعة. فالتجارة والصناعة كانا اساسين متينين لحياة فنيقيا الاقتصادية والواسطة التي امنت لهم تلك الثروة التاريخية التي تشابه من وجوه عديدة حالة انكلترا في الوقت الحاضر

والفينيقيون هم اول امة اسست المدنية (المادية) في تاريخ البشرية مع حصر كل مزاياهم الفكرية نحو هذه النقطة الوحيده (٧) وقد ساعد سعة الفينيقيين التجارية ما اكتسبوه من التجارب البحريه اثناء

(٦) Richter Handel ünd verkehr der Mittelmer voelker Page 13
(٧) Charme, voyage en Syrie Paris 1891 Page 69

اصطيادهم السمك وهكذا نرى ان اهم بلد كانت لهم قبل صور المدعوة صيدون (صيدا) اسمها آت من كلمة :

(صيدالسمك)

والتاريخ يعتبر الفينيقيين كمؤسسي التجاره واول منشئ السفن (٨) والغالب ان أول مناسبات الفينيقيين مع الخارج كانت مع سكان وطنهم الاصلي على ساحل البحر العجمي (القطيف) وساعد الفنيقين لانشاء السفن ثروة جبال لبنان بالاحراش في ذلك الوقت وفقدان هذه الاشجار بالبلاد التي كانت متقدمة مدنية بزمنهم كالمصريين وكذا وجود معدن الحديد والنحاس باطراف بيروت على جبل لبنان ثم كثرة اعوجاج ساحلهم ووجود مرامي كانت كافية لاحتياجات السفن الصغيره (ولوجود الاحراش لم تكن المياه المنحدرة من الجبال سدت ثغورها بالاتربة والرسوبات)

وبما ان التجارة على حسب ماقال (سبنسر Spincer) تشبه جريان الدم في شرايين الجسم الانساني وذلك بتامين احتياجات اعضاء الجسم الاجتماعي . يظهر لنا اهمية الوسائط النقلية التي لولاها لما قامت هناك حركة تجاريه مهمة تستحق الذكر . وان كان شرف اصول بناء الطرق المنتظمة يرجع للرومان لايجب ان نظن ان الفينيقيين اهملوا الاعتناء بها على قدر طاقة معارف زمنهم بل انهم فتحوا طرقاً عديدة ليست فقط بلادهم الفينيقية بل

(٨) Richter Page 2 ثم Welt verker und seine Mittel-Bd 1 Page 14,159 Berlin 1884

باكثر المستعمرات التي كانت لهم بها مناجم معدنية (٩) و(Ezechiel) يذكر لنا بان طرق صور كانت مبلطة (١٠) ومع ذلك كانت اهم علائقهم التجاريه مع غيرهم من طريق البحر متى كان ذلك ممكنا فان كان ثم من مانع (كما كان الحال في مصر حيث اهلها كانوا لا يمكنون غيرهم من ارساء سفنهم في سواحل بلادهم) فكانوا يسافرون الى تلك البلاد برا وبقى الامر كذلك حتى القرن السابع قبل الميلاد حيث اضطرت التجار الفينيقين الى الذهاب الى مصر عن طريق فلسطين مكابدين صعوبة صحراء سينا وقلة مياهها وكانت التجارة البحرية الفينيقية بينها وبين قبرص ورودس وكريت ثم بلاد اليونان عموما وتوسعت آنا فآنا بالتتابع الى صقلية فجزر بالآنه وحتى اسپانيا حيث كان لهم بها ما يقارب مائتين من المستعمرات المسكونه بالفينيقين الذين كانوا يشتغلون باخراج مناجم الفضه و بالمبادلة مع السكان باشتراء غنمهم مقابل المحصولات الفينيقيه و بلدة (قادكس Cadix) عَلَى البحر المحيط هي احدى هذه المستعمرات الفينيقيه التي هم أسسوها سنه ١١٠٠ قبل الميلاد وبلغ عدد مستعمراتهم التي بقيت اثارها حتى يومنا هذا عَلَى ساحل البحر المتوسط ٣٠٠ مستعمرة (١١) ولم يقتصر الفينيقيون عَلَى البحر المتوسط والمحيط بل كانت سفنهم تذهب من اطراف السويس ماخرة بالبحر

(٩) Richter Page 2 ثم Honegger Bd 11 Page 203
(١٠) Ezechiel
(١١) Andree, Geographie der Welthand el Bd Page 462

الاحمر حتى البحر المحيط الهندي ولنلق الآن نظرة الى طرز السفن التي كانوا يستعملونها حينئذ ليتضح لنا وفرة الوسائط النقلية التي كانت لديهم وبذلك نستدل عن اهميتها الاقتصاديه

اول السفن التي استعملها الفينيقيون كانت تشابه القوارب المستعمله الآن عَلَى الفرات والتي كانت تسير حينئذ في بحر العجم وكان شكلها كما هي عليه اليوم في هذا النهر مدوراً ولاجل منع تاثير امواج البحر المتوسط على السفن اضطروا الى جعل قسمين متقابلين كمقدمة ومؤخره لها ثم الى تبديل الشكل المدور بشكل مستطيل ليقدر عَلَى مقاومة المياه حين السفر وبعد التجارب تمكنوا من وجود نموذج خاص للسفن التجاريه والسفن الحربيه نظراً لاحتياجاتهم المختلفة وكانت نسبة الطول للعرض للسفن التجارية كنسبة اربعة لثلاثة اما السفن الحربية فكانت نسبة طولها للعرض كنسبة ثمانية لواحد تأميناً لسرعتها لما لذلك من الاهمية في الحروب اما ارتفاعها عن سطح الماء فكان قليلاً في السفن الحربية كثيراً في السفن التجارية وذلك لمنع رؤية السفن الحربية من بعيد ولم يزداد ارتفاع السفن الحربية عن متر واحد وكانت السفن الحربيه بالمقاذيف والسفن التجارية بالقلوع حفظاً للاولى من اعين العدو الذي يرى القلوع المنتشره اما السفن التجاريه فكانت محتاجة عدا عن ذلك لاقتصاد مواقع المقذفين واعباءها بالبضائع ثم التخلص من مصاريفهم وغذائهم والاشتغال بهم وهذا ما دعاهم الى تعويض قوة

كثير من المقذفين بالاستفادة من قوة الرياح وذلك باستعمال القلوع لتسيير السفن ولما لم يكن هناك (قومباس) لمعرفة جهة سير السفن وكانوا يأخذون معهم حماماً يطيرونه اذا صعب عليهم الاستدلال فمن الجهة التي يأخذها هذا الحمام يعلمون استقامة اقرب ساحل باطرافهم

اما سرعة هذه السفن فكانت ٢/٢ ٢ عقده بالساعه

هذا من جهة المناقلات البحريه واذا التفتنا الآن انظارنا نحو الطرق التجاريه البريه فنرى انه كان هناك خط يتجه نحو الحجاز ومصر معقباً خطاً موازياً للغور (لابه لان الحرومة قماته تمانع ذاك) وكان ينقسم هذا الطريق في فلسطين الى قسمين احدهما يتجه الى مصر والثاني يأخذ جهة الحجاز ماراً باراضي البطاركه ومركزه بطرى وكان لهذا الخط فرع يذهب من بلدة بطرى المذكوره نحو بلدة قديمة تقوم على اطلالها بلدة العقبه في يومنا هذا (١٢) وكان للفنيقيين في هذا الثغر سفن مختصة لنقل البضائع الفينيقيه وتوزيعها على سواحل البحر الاحمر واسترابون الذى عاش في القرن الاول للميلاد يتكلم عن طريق تجاري كان يربط بطرى المذكوره (بمكه) ويسميها القديم (Macaraba مكة العرب) ومن هناك كان يتجه ذلك الخط نحو حضرموت ثم ينتهي ببلده (غره Gerra) على ساحل البحر العجمي ومن هذه البلده الاخيره كان يذهب خطاً تجارياً رأساً الى بطرى (١٣) دون المرور على

(١٢) Pfannschmied 1-8
(١٣) Weltverkehr Bd 1 Page 40.

مكة المذكوره وكانت الفينيقيون تستعمل هذا الخط اذا حصلت اغتشاشات او حروب باطراف الحجاز واليمن او للمنافسه مع ناقلي البضائع على الخط الاول اذا غلوا اجرة حملهم وكانت الشام بزمن الفينيقيين مربوطة مع الساحل بطريقاً كافياً لتأمين سير القوافل ومنها كان يذهب خطاً نحو حلب (Chalybon) ويتجه منها نحو آسيا الصغرى ماراً ببلدة انقره (Angyra) ومن هذا الخط كان يذهب من سوريا خطاً يربطها مع (طاباسق Tapasque) على الفرات وكانت هذه البلدة مملوءة بتجار فينيقيا والشام حيث كانوا يرسلون منها بضائعهم نحو بلاد البابليين (١٤) وكانت القوافل تسير بين الشام والعراق رأساً مارة ببادية الشام واهم واسطه لنقل البضائع بين فينيقيا وتلك البلاد المجاورة كانت بالبر على ظهور الجمال والبغال غالباً وقليلاً ما تكون على الحمير اما الخيل فكانت تستعمل خصيصاً للحروب ولم يتوسع استعمالها في سوريا الا منذ القرن الرابع للميلاد اما السفر الى هذه الاقطار المقفره المملوءة بالاخطار فكانت باصول القوافل اي بالاجتماع لمقاومة قطاع الطريق وتخفيف اجرة النقل ومحنه . ولقلة النظامات التي تحفظ للمرء امواله كان التاجر مضطراً للرفقة والسير مع من يعتمد على صداقته وامانته وكانت القوافل تسير اياماً معينة نظراً للموانع الطبيعيه كالعواصف والرياح الشديدة وغير ذلك ونذكر بالمناسبة

(١٤) Heeren Ideen über die politique, den Verkehr und dén Handel der Vornehmen Vôelker der alten welt

ان القوافل الفينيقية كانت تذهب الى مصر عن طريق البر بين بلاد سنة ليس فقط بما ذكرناه من الموانع الطبيعية بل لعلاقة التجارة بذلك الزمن مع محصولات البلاد الزراعية وقلة رؤوس الاموال اللازمة للتجارة قبل بيع المحصول الزراعي ونكتفي بما سبق من الذكر عن وسائط التجارة الفينيقية وندخل فيما يأتي بأساس موضوعنا اعني البضائع التجارية التي كانت تسير على تلك الطرق او كانت تحصل بتلك الوسائط النقلية

يمكننا تفريق انواع البضائع التي كانت تتجر بها فينيقيا الى قسمين قسم كانت توورده الى بلادها لتأمين معيشة السكان حيث ان طبيعة ارضها صخرية لا تكفي غذائهم جميعاً وقسم كانت تأتي به من البلاد المجاورة لها ومن الهند لتورده الى الاطراف التي كانت محتاجة الى تلك المحصولات الصناعية والزراعية اما نظراً لعدم نمو تلك المحصولات في اقليمهم الجغرافي او لقلة ترقيهم بالصناعة والمدنية . فاما البضائع العائدة للقسم الاول كانت بالطبع المواد الغذائية اعني الحنطة والعسل والزيت والعنب والمواشي ويقدر الاختصاصي (مورس Morecs) قيمة الحنطة التي كانت تجلبها فينيقيا سنويا ب ٤٦ مليونا من الفرنكات (١٤) وقسما من الزيت التي كانت تدخله فينيقيا كان مختصاً بان تأتي به فيما بين النهرين زيادة على ما يحصل في بلادهم من هذا النوع

(١٤) Honegger Bd 11 Page

و(امنه كيهل Ezechiel) يذكر لنا بخطبته المشهوره التي وجهها الى صور اهم مبادلات هذه البلده الفينيقية التجارية مع الخارج ونحن نذكر ترجمتها بالحرف كما يأتي

« لقد قلت بنفسك ياصور بأنك بلغت اوج الكمال وتفتخرين بكونك واقعة في قلب البحر وبما قد زينتك به الاقوام المجاورة من انواع الترف والزخرفة بحيث لم يهملوا شيئاً من هذا النوع هنا عدا عن السفن ذوات الطبقات المتعددة التي بنوها بك والتي كانت مصنوعة من خشب الصنوبر للصواري (وارز لبنان لصنع السفن نفسها) بينما المقاذيف من خشب سنديان (بازان) وقد اتو بالعاج من الهند لمقاعدك وبخشب جزر ايطاليا لبناء غرفك ومخازنك وكان كتان مصر الناعم خصيصاً ليرفع على صوارى سفنك كشارع ووردوا لك الزمرد ودودة القرمز من جزر اليزه (Elisa) لتزين اعلامك بها وها ان سكان صيدا وارواد يستخدمون عندك كربان للسفن وعقلائك اصبحت ياصور ادلاء سفنك وسكان الجبيل الماهرين اعطتك اقدرها لتخدمك كملاحين تقولين بان كل سفن البحر وكل التجارة فيه هي في خدمة تجارتك وان سكان (ليدياه) (وليبزيا) تشكل عساكر جيوشك المحاربة حيث تستخدمون تروسهم وخوذتهم كزينة لكم وان اسوارك محاطه بجيوش ارادية وان القرطاجيون يتاجرون معك ويوردون اليك انواعاً من المحصولات الثمينه حيث تملاء تجارتهم اسواقك ثم اليونان وسكان (طوبال Tubal) يرسلون

اليك المماليك واواني القصدير و بوقي الى اسواقك من (طوغورما Thogoram) بالخيل والخيالة والبغال وان سكان (ددان Dedan) كانت تتاجر بخدمتك متفرقين على الجزر المتعدده و يعطونك مقابل بضائعك العاج والابنوس وان السور بين كانوا بخدمة تجارتك مقابل بضائعك المتعدده ومحصولات صناعتك يعرضون للبيع باسواقك الدر ودودة القرمز والترس الصغيرة والكتان الناعم والحرير وغير ذلك من البضائع الثمينه وبان سكان يهودا وبني اسرائيل كانوا بمناسبات تجاريه معك حيث كانوا يبيعون باسواقك انفس جنس من القمح ثم المسك والعسل والزيت والعنب وكذا الشام كانت تتاجر معك وترسل لك مقابل بضائعك الصناعية الصوف الملون بالالوان المختلفة ثم الشراب الفاخر وسائر البضائع الثمينه

واهالي (دان) واليونان تعرض في اسواقك الادوات الحديدية المصقولة و يشترون منك الادوات والقضبان ذوي الروائح العطريه النفيسه و بأن تتورد منك سكان (ددان Dedane) اجلال الخيل الضخمة و كذا امراء العرب وسكان سدار (Cedar) كانت في خدمة تجارتك و يبيعونك خرفانهم ومعزهم واهالي سبع وراما (Rama) كانت تاتي الى اسواقك بافخر جنس من العطورات والاحجار الثمينة والذهب وسكان حران (haran) وعدن كانت تاتي اليك باكياس الزمرد والاقمشة والمفروشات الثمينة التي كانت محزومه بالحبال وكانوا يشترون عندك اخشاب الارز

وان السفن التي هي اساس تجارتك تنقل ابنائك على ظهورها الى اعظم البحار الكبيره » (١٥)

ويجب ان لاننس بان هذه الصحيفة الاقتصادية حررت من طرف (Ezechiel) في نهاية القرن السادس قبل الميلاد اى بعد ان فقدت التجارة الفينيقية اهميتها العظيمة التى كانت لها في القرن العاشر والحادي عشر قبل الميلاد .

ومن هذه المناسبات التجارية الفينيقيه كان للمواد الغذائية كما ذكرناه اهمية خاصة ويتضح لنا ذلك جليا من المعاهدة التى عقدت بين سليمان وحيرام ملك صور بمناسبة بناء معبد القدس المشهور وقد كان من جملة مواد هذه المعاهده ارسال صناع فينيقين وارز لبنان الى فلسطين مقابل كميه معينه من الحنطه والشعير والزيت تقدم الى ملك الفينيقين

اما تجارة الحنطه مع الخارج فكانت بانحصار ملوك وامراء فنيقيا وحدث حتي ان هؤلاء الامراء كانت تشتري في بعض الاحيان اراضي بالخارج وتزرعها حنطه على حسابها (١٦)

فكما رأينا بخطبته (اسم كيل) كانت فينيقيا لها علاقه تجاريه متنوعه مع اكثر السكان الذين كان لهم تماس بالبحر المتوسط وحتي البحر الاحمر واما اساس تجارتهم فكان مبنيا على كشف احتياج الاقوام الساكنة باطراف

(١٥) Ezechiel chapitre XX V11 3-36
(١٦) Moves Bd 11

هذا البحر الذي سماه احد المؤلفين قلب الازمنة القديمة (١٧) والسعي
تجاره الى نقل البضائع من البلاد المبتذل بها تلك المحصولات الى البلاد
العزيزة بها وتامين فائدة مادية مقابل هذه الخدمة الاقتصادية وهكذا نراهم
ينقلون بضائع الهند والحبش والعراق فيسيرون بها نحو جنوبي اوربا وجزر
بحر المتوسط ويأتون من هناك بالفضة (من اليونان واسبانيا) ثم
بالقصدير (من بريطانيا) وبالنحاس (من قبرص) ليبادلوا به بمصر وفلسطين
والعراق مقابل بضائع يحتاجونها اما لتجارتهم واما لجلب مواد غذائية
لمعيشتهم كالحنطة وما اشبهها ومن الجزيرة كانوا يأتون بالطنافس والروائح
المعطرة ومن البحرين باللؤلؤ ومن الحبش بالذهب والعاج وريش النعام
والصمغ وذلك عن طريق مصر (١٨)

واهم بضائع التجارة الفينيقية بعد الحنطة كانت لاشك تجارة المعادن
الثمينة خصوصاً الفضة التي كانوا يستخدمونها كما ذكرنا للمبادلة مع الامم
الشرقية وهذه الاهمية التي جعلها الفينيقيون للفضة كانت من جملة الاسباب
التي ساعدت اليونان اخيراً على تأسيس العملة الرسمية التي تصادق الحكومة
بختمها عليها لما تحتويه من الوزن وصفاء المعدن (١٩) وذلك سنة ٥٠٠ ق الميلاد (٢٠)
والفينيقيون هم الذين وضعوا اصول المبادلة التجارية مقابل كمية موزونة

(١٧) Movers, die Phoenizer 111 Pages
(١٨) Honegger Bd 11 Page 195
(١٩) Honegger Bd 11 208
(٢٠) Noël Histoire du Commerce du Monde Tom 1 page94

من المعادن الثمينة والتي كانت مستعمله عند البابليين والمصريين على اكثر اطراف البحر المتوسط ولكن لم يتوفقوا الى ذلك الا بالتتابع حيث اضطروا مدة الى مبادلة بضائعهم مع سكان شمال افريقيا وايتاليا واسبانيا و بريطانيا بواسطة المبادله العينية بدون تداخل المعادن الثمينة لعدم تقدير هذه الاقوام فوائد المتاجره بواسطة المعادن الثمينه بخلاف بابل واثور حيث كان الفينيقيون يتبادلون بضائعهم بواسطة المعادن الثمينه (٢١) ويعقب المعادن الثمينة اهمية بالمبادلات التجارية الواقعة بين الفينيقين والامم المجاورة تجارة الرقيق الاسود و يعقب بيع الرقيق اهمية التجارة بالاثواب حيث كان بفينقيا ومصر معامل عديده مختصه بهذه الصناعة ترسل منها البضائع الى بلاد اليونان وايطاليا واسبانيا وحتى بريطانيا وكان الفينقيون يهدون قسماً من هذه الاثواب الى ملوك البلاد التي تريد ان تتاجر بها لاستحصال رخصتهم بذلك وكانت تنتخب لهذه الغاية افخر محصولاتها خصوصاً ماصنع منها بالصباغه المعروفه باسم (pourpure) حيث كانت شعار الملوك والامراء بذلك العصر لندرتها وغلاء ثمنها وهوميروس الشاعر اليوناني الشهير كثيراً يمدح هذه الاقمشه الصور يه (٢١) وكثيراً مايظن المرء بأن كلمة (پورپور pourpure) تعبر عن لون واحد بسيط وهذا خطأ حيث هذه الكلمة مركبة المدلول وهي تعبر عن الوان عديده:

(٢١) Noelatom 1 page 89/91

ابيض، اسود، بنفسجي، احمر، ازرق غامق، ازرق فاتح، اصفر، اسمر

وكانت هذه الصبغه تستحصل من عصير نوع من الصدف موجود بالسواحل السوريه ويعرف باللاتيني باسم (buccimum) ونوع اخر يدعى purpura) و بينما يوجد النوع الاول باطراف الصخور كان النوع الثاني تصطاد قشرته كالسمك ويسكن باعماق البحر ويختلف النوع الاول ظاهراً بتدور بينما الثاني يأخذ شكلا متطاولا ولم تكن السواحل السوريه مختصه بذلك الصدف بل كان يوجد في اكثر اطراف البحر المتوسط في صقليا واسبانيا على سواحل البحر المحيط وقرب جزائر البرطانيين وبلينوس احد كتاب الرومان الذي كان في اول عصر الميلاد يدعى ان عصير الصدف المصطاد على ساحل الاطلانتيك يختص بالسواد بينما عصير الذي يوجد بالسواحل الايطاليه يميل الى اللون البنفسجي ولون ما يوجد باطراف فنيقيا احمر قاني (٢٢) ولكن الفينيقيين هم الامة الوحيده التي عرفت كيف تستفيد من هذه الثروة التي نثرتها الطبيعه على سواحلها الصخريه، وهكذا انشأت معامل صناعيه مهمة كانت بتلك الازمنه اشهر من نار على علم واكثر الانسجه التي كانت تصنع بهذه الصبغ كانت تأتي صوف غزلها من داخلية البلاد السوريه خصوصاً من اطراف الشام وفلسطين واكثر لون الصبغه المستعمله كان كما ذكرنا الاحمر القاني (والبنفسجي نادراً) ويمكننا ان نقدر اهمية هذه الصناعه الفينيقيه اذا علمنا ان الكيلو الواحد من هذه الاصبغة بعد تنشيفها

(٢٢) Pline X- 36

وكانت تبلغ ٢١٧٥ من الفرنكات وقد حسب احد الباحثين المدعو (مار تيال Martiale) بأن قيمه الرداء الصوري المصبوغ بفينيقيا كانت تبلغ ٤٧٢٨ من الفرنكات (٢٣) واذا تذكرنا بان فنيقيا كانت بلا مراقبه او مناقسة لصناعتها هذه يمكننا ان نتصور ما ادخلته الى بلادهم من الثروة والرفاه:

ويعقب هذه الصناعة اهمية بتجارة فينيقيا الاقتصاديه من بين ما كانت تخرجه الى البلاد الاجنبيه المصنوعات الزجاجيه وكثيراً من المؤلفين يعتبرون ان الفينيقيين هم الذين عرفوا هذه الصناعه بالتصاديف حينما كانوا يشعلون النار باطراف النهر الذي يمر قرب عكا والمسمى قديماً (Belus) وذلك تبعاً لما ذكره بلينوس في كتابه المدعو التاريخ الطبيعي .

والغالب ان الزجاج لم يستعمل في البداية لأوعية الشراب بل لتزين المساكن حيث كان هناك كاسات من فخار خصصه للشرب وصيدا كانت مركز هذه الصناعه وقطر ميزاتها ومزهرياتها كانت فيما بعد في غاية الابداع من حيث الشكل والألوان وابتدأت صناع الزجاج السورية بزمن الرومان ان تضع اسمائها على الأواني التي تصنعها كاسماء المصانع (الفبارك) في عصرنا هذا استفادة من الشهره التى كانت لهم باطراف المسكونة (٢٤) ومع الاسف ليس هناك اعداد توضح لنا كمية المحصولات التى ارسلت من فينقيا ولا عن قيمتها . ولكن يمكننا ان نستدل على اهميتها بناء على تلك الشهره التي كانت

(٢٣) Noël

(٢٤) Babelon monument archevlogique de l'oriet page 304

لهما بالازمنة القديمه حتى القرون التي اعقبت ذلك كما سنرى بابحاثنا الآتيه
وكان الفينيقيون يصنعون من الكهربا التي كانت تاتي به من سواحل بحر
البلطيق عقوداً ثمينه عدا ما كانت تصنعه من الادوات للزينه من معادن
الفضه والذهب وغيره ويظهر لنا اهمية هذه الصنائع البديعه Artistique
افادات (آشيل Achil) التي نذكرنا اسماء الهدايا التي تقدمت بمناسبة مراسم
دفن (بطروقر Petrocle) وقوله يهدي للظافر من معمولات الفينيقيين قدح
لا مثيل له وجه الارض « لان ايادي الصناع الماهرين بصيدا قد صنعتها
باعتناء» (٢٥) وكذا كان لنساء صيدا شهرة بتطريز الاقمشه (٢٦)
وكان هناك بضائع كثيره يأتون بها الفينيقيون من البلاد الهنديه ليحملوها
الى اوروبا ذكرناها اجمالاً في بداية بحثنا هذا ونرى مفيداً ان نزيد على ذلك
التفصلات الاتيه.

يمكننا ان نصف البضائع الهنديه بنعتها « باخف حمله وكثر ثمنه » نظراً
لبعد المسافه التي كانت تفرق هذه البضائع عن محل استعمالها والهند منذ
الازمنة القديمة مشهورة بثروة ارضها ومناجمها وانما الفينيقيين بما كانوا
عليه من الجد الاقتصادي لم يكتفوا بمعرفة ذلك بل استفادوا من موقع
بلادهم لايراد هذه البضائع نحو اكثر بلاد البحر المتوسط المحتاجة الى ذلك

(٢٥) Iliade Chante XX 111 V. 740-745
(٢٦) Iliade 1v 290/91

واهم هذه البضائع الهندية كانت البهارات كالقرفة Kasia و سنبل الطيب اونردين (Narde) ثم (تمر مكة Myrrhe) الخ ويظهر جلياً من هذه الاسماء التي كانت تعرف بها البهارات في اوروبا اصل تلك البهارات الشرقي حيث ان اكثر تلك الاسماء مشتقة من اللغات الشرقية وتعرف الان بسوريا بتلك الاسماء

وكانوا يستعملون نوعاً من العطريات التي كانوا يأتون بها من الهند لصناعة المراهم الممسكة كما كانت عليه الحالة في مصر وما بين النهرين بعد ان تكلمنا على البضائع التجارية الموجودة الى الان في البلاد السورية التي كان مركزها وما لها من العلائق التجارية نقول

منذ الازمنة القديمة حتي سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد كان مركز التجارة الفينيقية . جبيل Byblus ، بيروت Beyruth ، ارواد Aroidus

ومن ١٦٠٠ قبل الميلاد حتى ١١٠٠ من ذلك كانت الاسواق التجارية الفينيقية مركزها في صيدا Sidon .

ومن ١١٠٠ الى سقوط فينيقيا كان مركز التجارة في صور وهو في بدايته على دور وصلت اليه الاطوار الاقتصادية الفينيقية ولكنه يجمع ايضاً في حالة وقعت بها البلاد الفينيقية حين سقوطها

اما الطبقة الاجتماعية التي كانت قائمة بتلك التجارة فهي كبراء البلاد وعظمائها وحتي ملوك الفينيقيين كانت بذلك الوقت اعظم التجار والمثربين

واسباب سقوط الفينيقيين كثيرة اولا تشارك بذلك مشيئة كل الامم التي عاشت مدة من الزمن بالعز والجاه ثم سقطوا مبتدأ بالدول المصرية والاشورية الكلدنية واليونانية والرومية .. الخ وهذه المسأله ستبقى لغزا امام البشرية وهناك من يدعي بان لحياة الشعوب كحياة الافراد زمناً محدوداً مبتدأ بالتولد ومنتهياً بالموت وهذه الفكرة واضحة بمقدمة ابن خلدون الشهيرة ووجدت بيومنا هذا ما تحسن عند احد باحثين الالمان المدعو (شبنغلر Spengler بكتابه المشهور المدعو (سقوط الغرب untergangdes Abendlandes) وانما هناك بعض البواعث التي تهوى بالجسم المتضعضع نحو حفرة الهلاك ومن جملة الاسباب التي اثرت على حياة الفينيقيين الاجتماعية والسياسيه تولد الدول الاسيوية الكبيرة ثم مشاحنات الحكومات الداخلية التى اضرت بالتجارة الفينيقية ثم ضبط الاشوريين اكثر الاراضي السورية وسعيهم لتبديل الخط التجاري المار عن فينيقيا بالخط الذي يمر من فلسطين وجزيرة العرب حتى عدن فتركت فينيقيا على بعد من التجارة الهندية ثم تشكل خط تجاري بين ارمينيا الصغيرة وحلب والفرات بحيث بقي الخط المار من الداخل الى صيدا وصور بلا اهمية زد على ذلك الاضطرابات الداخلية التي انتجت مهاجرة جمع من السكان الى قرطاجه وعدم الوحدة بين السكان وكان بالامكان مقاومة هذه المؤثرات الداخلية والخارجية لو كان لفينيقيا واسطة مهمة هي في كل وقت سبب

عظمة وحياة الشعوب وذلك حيش قدر على حماية خطوطها التجارية وتأمين الوحدة الداخلية

حالة فلسطين الاقتصادية بالأزمنة القديمة :

كما ان اهمية فينيقية الاقتصادية ابتدأت منذ دخول احدى قبائل الكنعانيين اليها كذلك ابتدأت منذ قرطنها الامر تبلون اهمية فلسطين في القرن الخامس عشر قبل الميلاد آتون من مصر بقيادة (موسى) عليه السلام هاربين من الاستعباد الذي كانوا يأنون تحت عبئه فيها اذ كانت الفراعنة تقتل ابنائهم ليحولون دون تكاثف عددهم ويرجع اصل هذه القبائل الداخلة في فلسطين اما الى الاسرائيليين الذين ذهبوا الى مصر هربا من القحط والجوع واما الى الاسرى والمماليك لذين جلبوا اليها بواسطة القوافل ولم تكن فلسطين قبل ذلك على درجة كافية من الرقي الزراعي لعدم اتفاق سكانها الاصليين ومحاربتهم، ومجادلاتهم الدائمة وراء غايات لا طائل تحتها بحيث كان كل راع على قطع من الغنم يجعل نفسه ملكا ولم تكن بنو اسرائيل الاتية الى فلسطين تشابه اصلا من كان بها من السكان ولكن الغربة علمتهم التأليف والاتحاد وفي المصريين الاقتصادي بذلك الزمن علمهم حسن زراعة الارض وحب الانتظام والانقياد لادارة القائد . وعدد هولاء القبائل التي اتت الى فلسطين

يقارب على حساب دونه: ١٥٦٠٠٠٠ نفس (٢٧) فهذه المهاجرة اذاً بالحقيقة انتقال شعب بادره: فاستناداً على قوتهم العددية والانتظامية فاقوا سكان فلسطين القدماء وطردوهم من ديارهم ومساكنهم ولم تكن حركاتهم نحو هؤلاء دائماً ضمن القواعد الانسانية والاعتدال ولكنهم وفقوا بعد مدة لاصلاح حال البلاد وازدياد وارداتها الزراعية والتجارية بحيث بلغ عددهم زمن داود ثلاثة ملايين ونصف (٢٨) وكان اكثر اشغال هؤلاء السكان بالزراعة التي كانت اساس حياة فلسطين الاقتصادية كما كانت التجارة والصناعة اساس ثروة الفينيقيين ولا شك ان اصول الزراعة المصرية الذي كان على درجة عالية من الرقي الفني افادهم للتقدم الاقتصادية واهم مزروعاتهم كانت الحنطة والشعير والكرسنة والعدس وكان كل امرئ ئيلي يملك ارضاً تخصه ولذلك من منفعة ان يعتني بزراعتها وكانت تحيط المزارع الاشجار والحواجز ولم يكونوا يجهلون فوائد تسميد الارض والزراعة التي بلغت في فلسطين شأواً عالياً من الرقي والاتساع

(٢٧) De Yonné Statistique des penples dans l'antiqutié Page 109

(٢٨) De Jonné 115

احد الاختصاصيين المدعوا Ballod حسب ان لفلسطين ارضاً زراعية من الدرجة الاولى مساحتها ٨٢٠٠٠٠ هكتار وبان وادي الغور يمكن ان يعطي ارضاً زراعية مساحتها ٢٠٠٠٠٠ هكتار واثبت ان سواحل فلسطين كلها قابلة الاسقاء بمياه الانهر التي تمر من قسم منها والينابيع والابار والجغرافي الشهير ريتر Ritter يذكر سنة ١٨٥٠ بان الساحة الواقعة خلف الكرمل وحدها كافية لاعاشة كل سكان فلسطين في ذلك الزمن

Ritter ErdKunde Page 25

في زراعة العنب وذلك اولا لاستعداد التربة ثانياً لكثرة استهلاكات الخمر المستخرج منها . وكيفية استخراجه هي بعصر اثمار العنب في اكياس من قش (تشابه ما يستعمله بعض فلاحي سوريا لعصير السيرج) وكان يحفظ هذا العصير في احواض مخصوصة حفرت لذلك في الصخور و ينقل من هناك في اوعيه من الجلد . وبعد العنب يمكننا ان نذكر شجرة الزيتون كاهم فرع لزراعة فلسطين وتجارتها مع الفينيقيين كما رأينا سابقاً حيث (Ezechiel) يخبرنا بأن الزيت الفلسطيني كان يملئ اسواق صور وصيدا وكيفية استخراج الزيت في فلسطين كانت بسيطة وهي عبارة عن عصر الزيتون في هراوين بواسطة المطارق . و يعقب شجرة الزيتون اهمية زراعة التين حيث كانت ولم تزل هذه الشجرة اساس غداء الفلاح السوري ولذلك كما سنرى اعفيت من الضرائب من طرف الادارة الاسلامية و ياتي بعد زراعة التين اهمية اشجار مثمرة متنوعة اهمها النخل واللوز والرمان والليمون والخوخ والاجاص والخروب وكانوا يحافظون على اثمار بعض هذه الاشجار المثمرة من الفساد بتجفيفها في الشمس كما هي عليه الحالة بسوريا الان للمشمش وما شاكله ومن الخضر نخص بالذكر الفول والحمص والفصوليا ثم البصل والخيار والقثاء واما النباتات الصناعية اي المختصة لتخدم صناعات البلاد كمواد ابتدائية فاهمها كان الكتان (٢٩)

(٢٩) Exode XXXv 6

ثم القطن وعروق الصباغين (الفوه) (٣٠)

وكان للفلسطينيين اعتناء خاص بالمراعي وتربية الحيوانات الاهلية خصوصاً كان لسمن فلسطين شهرة كبيرة بالازمنة القديمة لفائدته وكذا اصوافها واغنامها الا الجبل فكانت تربيتها مفقودة بها بحيث كانت مضطرة الى جلبها من مصر

وعلى تقدير ديونه DeJonné بلغت مساحة الاراضي الزراعية في فلسطين زمن داود ١٧٢٠٠٠٠ هكتار فالنصف كان مختصاً بزراعة الحبوب والنصف الاخر بزراعة الاشجار المثمرة هذا بصرف النظر عن المراعي واراضي البور . اما واردات الزراعة الفلسطينية فقد بلغت بزمن داود على ادعاء نفس المؤلف ٣٠٠ مليون من الفرنكات (٣١) واذا امتحنا هذه الدعوى نرى ان تملك فلسطين بزمن شوكة مملكة داود على ٨٦٥٠٠٠ هكتار عائدة لزراعة القمح لا تبعد كثيرا عن الحقيقة اذا تذكرنا بان تدقيقات (بالود Ballod) ارتنا ان فلسطين تملك بيومنا هذا على ارض من الدرجة الاولى مساحتها ٨٦٥٠٠٠ هكتار والمعلوم ان بعض انواع الحنطة وخصوصاً الشعير لا يحتاج الى ارض من الدرجة الاولى لتعطي محصولا كافياً اما مساحة ٨٦٥٠٠٠ هكتار للاشجار المثمرة فهو قريب ايضاً من الحقيقة اذا وضعنا

(٣٠) De Jonné Page 122
(٣١) De Jonné Page 132

نصب اعينه اكثر منحدرات جبال وهضاب فلسطين الكلسية التي تستعد بصورة خاصة لزراعة العنب والزيتون والتين والرمان والخرنوب حيث يرى المرء حتى في يومنا هذا بعض من هذه الاشجار نابتة في شقوق الصخور وكذا كون واردات فلسطين السنويه بلغت ثلاثمائة مليون فرنك لاينبغي ان نشك بصحته بل نتذكر ان سكان هذا القطر بذلك الزمن يوازون سكان جميع سوريا في ايامنا هذه وكثافتها على مربع الكيلومتر حينئذ توازي كثافة سكان المانيا سنة ١٨٥٠ ويقوى ظننا بصحة هذه الدعوى كون فلسطين ارسلت الى روما عقب موت القيصر هيزار ضرائباً بلغت ٨٤ مليوناً من الفرنكات حيث ان قسما مهماً منها يعود للزراعة والباقي للتجارة والصناعة واخيراً لنتذكر وفرة المعادن الثمينة بمناسبة تجارة الفينيقيين وغلاء اسعار المحصولات نسبة الى قيمه الفضه بذلك الوقت ·

وقد ساعد رقي الزراعة في فلسطين بعض القواعد الدينية التي كانت غايتها حماية الفلاح وحفظ اراضيه من تلاعب المحتكرين فالانجيل يخبرنا بان الارض ليست بتملك لافراد بل تعتبر كانها اجرت لهم لمدة غيرمعينةمن طرف الآله بحيث لم يكن يساعد بيعها الا بشرط تأمين حق اشترائها من جديد(٣٢) والدين الاسلامي يقرب من هذه الفكرة حيث يقول كتاب الله (ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده)

(٣٢) Genese X+ v 53,24

العرب لم يضبطها منهم بالقهر بل دفع قيمة كل ارض ضبطها منهم (٧٥) فالاهتمام بالارض وتركها بيد زراعها القدماء والحرية التي اعطيت للزراع عوضاً عن الاستعباد الذي كان بزمن القبلوزاد - الروماني والبيزانسي - والتي بدلاً من حماية الفلاحين كانت تحبذ سلبهم ونهبهم واحتقارهم ثم معاونة الجامعة الاسلامية للفلاحين الذين يريدون تعمير ترع الري (٧٦) والاعتناء باصول التخطيط كل ذلك كان له تأثير حسن على الزراعة السورية وحين التكلم عن حالة الفلاحين السور بين بقرل (بوغنو — Beugnot) بعد ان ذكر وصايا ابا بكر للجيش :

«ان هذه الوصايا ترينا ان العرب فتحوا سوريا لا لأجل ان ينهبوها او يخربوها بل ليؤسسوا فيها ادارة دائمة » (٧٧) .

ويمكننا ان نثبت صحة هذه النظرية التي لها اهمية اقتصادية كبيرة حيث منها يمكننا ان نستنتج عن نتائج فتوح العرب لسوريا بادلة اخرى تكمل ما تقدم من التفصيلات فاذا اخذنا القرآن الكريم وتصفحناه نرى ان كلمة الخراج التي يجب ان تهم المسلمين بصورة خاصة لانها في الغالب تستوفى من الاجانب التي يسهل استعبادهم لو كانت غاية الاسلام نهبهم لا تذكر

(٧٥) ما وردي صحيفه ٢٩٥

(٧٦) عميل عمر في العراق زياد عمر انتيه نصرف عليها ١٠٠٠٠٠ دينار ثم اقطعها على الفلاحين
Else Reitmeyer Staete grundung im Islam p. 26

(٧٧) Beugnot memoire sur le regime de terre en syrie page 8

فيه الا مرة واحدة ونزيد على ذلك كلمة عمر بن عبد العزيز الشهيرة :

« ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً »

فالاسلام في بداية امره لم يكن في الحقيقة الا نهضة الشرق المستعبد ضد الظلم والتحكم ولذلك نرى انه يجعل للمعنويات اهمية خاصة و ينظر الى الشعوب الشرقية المجاورة كحليفة طبيعية له وهذا ما دعا محمد صلى الله عليه وسلم للسعي لنشر الاسلام بين الاقوام المجاورة لعلمه بانهم مستعدون لقبوله بعد ان يأتي لهم بروح الحرية التي لم تفقدها جزيرة العرب عصراً من العصور لصعوبة تسخيرها من الاجانب. ونفهم هذا التساهل الذي اظهرته العرب نحو سكان سوريا وحسن ادارتهم نحوهم فالحقيقة هي ان ظفر العرب على البيزانطيين لم يكن الا نتيجة تفوقهم عَلَى هؤلاء بمعنوياتهم.

« فاصالة وعظمة الرومان » يقول احد المؤلفين الغربيين حين يتكلم عن نهضة العرب « انتقلت بصورة نهائية منهم الى الملة العربية » (٧٨)

ويخرج عن موضوعنا الزيادة عَلَى ما ذكرنا ونختم البحث بذكر كلمة قالها عبادة للمقوقس حاكم مصر وهي تظهر كل معنويات هذا الشعب حين دخوله سوريا وتمحي كل افتراء يوجهه بعض المؤلفين نحوه من انه لم يدخل اليها الا طمعاً بالغنيمة :

« لو كانت الدنيا لنا ما اردنا لانفسنا اكثر مما نحن عليه »

(٧٨) David. Syrie moderne p. 87

اذاً هجوم العرب على سوريا لا يشابه اصلاً هجوم البرابرة على اسوار روما مستندين على عددهم بل ان قرة هؤلاء كانت معنوية صرفة تدل على ان من طبيعتهم الاصلاح اكثر من التخريب .

والتاريخ يعتبر عمر بن الخطاب المؤسس للادارة الاسلامية المدنية حيث قد بنيت على القواعد التى وضعها اهم انظمه الدول الاسلامية ومع تفوق العرب على البيزنطيين من وجوه كثيرة فقد كانوا من جهة الاصول المالي وما شاكله اقل اختباراً منهم وقد لاحظ ذلك عمر بن الخطاب فاستفاد من تجارب هذه الامة المغلوبة مع ازالة كل سوء الاستعمالات التى كانت تمنع هذه المؤسسات من ان تعطي الفوائد المطلوبة وهكذا نرى ان اصول الخراج والجزية التى كانت معروفه بزمن الرومان ومستعملة في بلادهم الشاسعه ليست من اختراع العرب كما ان كلمة (طسق) بفتح او كسر الطاء بمعنى ضريبة مشتقة من كلمة بيزانسية واصول الضرائب بالعراق وارض السواد مقتبس من الفرس و يندهش المرء من سرعة الزمن الذي توفقت به العرب الى معرفة فوائد هذه المؤسسات والى الاستفادة منها وهكذا نرى ان اول اصول مساحة الارض الذي نفذ في مصر كان بزمن عمرو بن العاص سنة ٧٢٥ للميلاد (٧٩) وتسهيلاً للسكان ولم تركت العرب حتى تأسس ادارتهم العربية الصرفة ادارة امور الضرائب وماشاكله

(٧٩) سيوطى ج ١ صحيفه ٨٧

بايادى الموظفين القدماء و بقيت الدفاتر تحرر باللغة اليونانية حتي زمن عبدالملك بن مروان اي الى سنة ٧٠١ ميلاديه ولنتكلم الآن عن الضرائب التي هي من اهم الاسباب التى ادت لانحطاط الزراعة بزمن البيزنطيين.

كان يطلب من السوريين العشر او الخراج واهل الذمة تدفع عدا عن ذلك جزية عن الرجال القادرين على العمل عدا عن العجز والنساء والاطفال وذلك بخلاف الرومان وكانت العرب تقسم واردات الحكومة الى قسمين احدهما يسمى (مال الفيء) والثاني (مال الصدقة) فمال الصدقة مايدفعه المسلمون اعانة للجامعة الاسلامية ويمكن صرفه بدون وساطة الحكومة اذا ادى شهاده عن ذلك وهذه المؤسسة هي اجتماعية طبيعية قديمة المنشأ تعرف بزمن الاسرائيليين بنفس الاسم امــا الفيء فهو ما جمع بناء على قوانين ادارية ويمتاز له خاصة مدنية سياسية اكثر من خاصة دينية كما هي الحالة بالصدقة ، فمال الفيء لا يصرف الا عن يد الخليفة او اتباعه وعماله وذلك للامور التي تعود (للمصلحة العــامة) فقط ، والدليل على اختلاف هذه الوارادات كونه لايجوز جمعها مع بعضها بل تصرف كلاً على حدة والقرآن يفصّل هذه الشرائط بقوله : « انمــا الصدقة للفقراء والمساكين (الفقراء المتعففين) والعاملين عليها (جباتها) والمؤلفة قلوبهم . وفي الرقاب والغارمين (المديونين) وفي سبيل الله وابن السبيل (الغريب) » امــا الفيء فهو لله (الجامعــة الاسلامية) ورسوله (خلفائه من بعده) واليتامى والمساكين»

فالغاية هنا سياسية اجتماعية اكثر من انها دينية كما يظهر ذلك من الآية السابقة ٠

واذا نظرنا الى منبع الواردات نرى ان الزكاة ضريبة موضوعة على الثروة وان الخراج وحده هو الضريبة الموضوعة على الارض (Jmpot foneiers) وسيظهر لنا ذلك في الاسطر الآتية :

من المعلوم انه تؤدى الزكاة عن المواشي التي حال عليها الحول اى بقية سنة وهي بتملك صاحبها وبشرط ان يملك على عدد معين منها بحيث لا تجب عليه الزكاة دونه ولما لم تكن العرب عرفت فوائد العملة يجعلوا الشاة واحداً قياسياً لتعيين قيمة الزكاة خصوصاً لان اكثر المسلمين في ذلك الزمن كانوا من البدو التي تشتغل بتربية المواشي بصوره خاصة ٠

واذا دققنا الزكاة من الوجهة الاقتصادية نري انها في بدء الفتوحات الاسلامية كانت ضرورية ونتيجتها غير مضرة بالزراعة السورية لان تربية الغنم والمواشي كانت ولم تزل في اكثر الاطراف السورية مستقلة تماماً عن زراعة الحبوب والاشجار المثمرة وبايدي البدو الرحل او اصحاب الثروة من سكان المدن الذين يجعلون لها رعاة ولما كانت الزراعة تابعة لضريبة العشر كان من الواجب الاستفادة من ثروة البدو على اى صورة كانت ولما لم يكن ممكناً حصرهم معرفة ما يملكونه ٠٠٠ الخ كان الدين احسن واسطة للتأثير عليهم ليدفعوا ذلك من تلقاء انفسهم دون ان يكتموا شيئاً

ويخلوا بركن مهم من دينهم، ولكن لاشك ان وجود ضريبة مستقلة على المواشي لايمكن ان تدوم بزراعة جمعت حسب الاصول الزراعي الحديث بين فرع تربية المواشي وفرع الزراعه وغرس الاشجار لتؤمن بذلك اكثر محصول يمكن تأمينه من الارض باستعمال السماد الطبيعي وتخفيف مضرات سني المحل ببيع المواشي فيها اعانة او اشتراء ذلك منها في سنين السعة عوضاً عن صرفها بالاسراف لان الفلاح قليلاً ما يكون قادراً على حسن الروية والمحافظة على الدرهم لمستقبله الا بصورة يراها امامه تكبر وتصغر اي بصوره حيوان حي والحقيقة ان المرء يتحير من حذق اولئك الرجال الذين اسسوا هذه القواعد في القرن السابع وانتبهوا لمضار دفع الزكاة عن الابل والبقر (العاملة) اي الخادمة فرعاً من فروع الحياة الاقتصادية لئلا يضر ذلك بها وكذا تعين حداً تبتدأ منه الزكاة كي لا يكون الفقير عرضة للاحتياج مما تسعى الى تحقيقه في يومنا هذا الدول المتمدنة ويعرف بالالمانيه باسم (Existensminimum) اي (حد الحياة الضروري) وقد طبق بالمانيا هذا الاصول وغيرها بقوانين الضرائب الحديثة ثم عدا عن كل ذلك استثناء الخيل منها، ذلك الحيوان النافع الذي اشتهر فيما بعد شهرة عمت اكثر آفاق المسكونة فامنت للبلاد عدا عن الفوائد العسكرية ثروة مادية كبيرة لم تزل آثارها حتى يومنا هذا ويقول الرسول بهذا المعنى : (تجاوزت لأمتي عن الخيل والرقيق)

لئلا يضطره مالكه الى الاشتغال فوق طاقته ولا كثار عدد المسلمين اذا كان الرقيق انثى .

وقد اقتفى الخلفاء من العرب هذا الاثر وجعلوا سباق الخيل سنة ترغيباً لهذه الشغلة المهمة الاقتصادية وكان لهشام اربعة آلاف فرس وكذا للوليد وكانت تجري تلك المسابقات (بالرصافة) قرب الشام وكذلك كانت المسابقة دائمة زمن العباسيين في ميادين « الرقة » و « الشماسية » (٧٩)

ولنتكلم الآن عَلى العشر والخراج اللذين يهمان الزراعة بصورة خاصة :

العشر ضريبة توضع على ما يحصل من كل ارض بحوزة المسلمين الا التي اتت لايديهم وفي رقابها الخراج حيث تدفع حينئذ الخراج وهذا نادر وهناك ثلاث عوامل تعين درجة ارتفاع ضريبة العشر .

اولاً — كمية المحصول .

ثانياً — صورة الانتاج (المصارفات التي صرفت لاستحصال الزرع من الماء وما شاكله)

ثالثاً — المشقة التي تعارض نقل المحصول ونقال الفائدة (بعد المسافة عن المدن) . فنرى من ذلك ان الحكام المسلمين حين تعيينهم هذه القواعد كانوا على معرفة تامة باهمية الزراعة وتأثيرها بحياة البلاد الاقتصادية وهذا اكبر دليل عَلى رقيهم المدني حينئذ .

---

(٧٩) مسعودي جلد ٣ صحيفة ١٢٩

فالعشر بمعنى عشره من مائة من المحصول تدفع بتمامها من الارض التي تسقى سيحاً او بالمطر اي بدون تعب او نفقة وتدفع نصف ذلك الارض التي تزرع بالاستماء الصناعي وليس على الزارع شيء اذا قل محصوله عن وسق او ١٦٠٠ رطل من الشعير والذرة والتمر والزبيب ، وهنا يظهر انصاف الاسلام المانع طلب ما لايقدر الفلاح على تقديمه ولئلا تجرد الارض عن بذارها للسنة الآتية . فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يهتم بصورة خاصة بالزراعة كما يظهر ذلك من تشويقه اليها بقوله « من قطع شجرة فليغرس مكانها (٨٠) ثم « من غرس غرساً او زرع زرعاً فأكل منه انسان اوطائر او سبع كان له صدقة » (٨١) وبعد هذا التشويق يهدد من لا يستفيد من ارضه بالزراعة بتجريده عنها حيث يقول « من كانت له ارض ثم تركها ثلاث سنين لايعمرها فعمرها قوم آخرون فهم احق بها » (٨٢) وقد استثنى الاسلام من الضرائب زراعة الحطب تشويقاً لهذه الزراعة المفيدة وكذا يظهر لنا ما ذكرناه من اعتبار المسافة بتعيين ضرائب العشر انه بزمن عبد الملك كان على كل الف شجرة من الكرم دينار واذا بعد مسافة يوم نصف دينار وكذا على مائة شجرة زيتون ديناراً في القرب ونصف دينار اذا بعدت مسافة يوم عن المدن العامرة اما اشجار التين فكانت مستثناة

---

(٨١) فتوح البلدان للبلاذوري صحيفة ٩

(٨٢) كتاب الفلاحة لعلي بن العوام صحيفة ٢

(٨٣) ابو يوسف كتاب الخراج ج ١ صحيفة ٢٧

هذه الدول تركت الفرس اثراً لانريد ان نضرب عنه صفحاً كما نفعل عن فتوحات الآثوريين والكلدانيين الذين ذهبوا من حيث اتوا ولم يتركوا بسوريا الا آثار زيارتهم المخربة ومع ان حالة سوريا الاقتصادية لم تكن تحت ادارة الفرس كما يجب (لسوء اصول الضرائب التي وضعوها علَى الفلاحين السوريين واستعبادهم في خدمة امرائهم المتملكين التربة السورية) لا يمكننا ان ننسى ما احدثوه خصوصاً في شمال سوريا من الاصطلاحات الزراعية ببنائهم الاقنية المتشعبة لاسقاء الاراضي الواسعه بحيث لم تزل حتى اليوم آثارها باقية قرب الفرات وبضواحي منبج وعلى قول بعض الباحثين كانت الارض الواقعة بين الفرات والعاصي مستترة بشبكة من الاقنية تربط مياه هذين النهرين بعضهم (٥٠) وكذا اذا نظرنا الى حالة سكان المدن من الصناع والتجار نرى انها كانت حسنة تحت الادارة الفارسية ولم يكونوا مستعبدين كالفلاحين السوريين لاحتياج كبراء الفرس الى اموالهم والاستعانة بهم علَى الامور الاقتصادية .

وقد تحسنت حالة الفلاح السوري وخف عنه حمل الضرائب الذي كان يثقل كاهله بعد فتوحات اسكندر الكبير ولم يبق عليه الا تأدية شيء من محصوله لتأمين معيشة العساكر الباقية بسوريا (٥١) وقد افاد سوريا

(٥٠) David - Syrie Modrne Page 20

(٥١) Richter Page IIII

ظهور قسم كبير من الثروة التي كانت مأخوذة في اكثر مراكز البلاد التي ضبطها اسكندر الى ساحة الحياة الاقتصادية لصرف قسم منها من طرفه وطرف جيوشه بالاراضي التي سروا بها (٥٢) ومما يدلنا عَلَى ثروة لبنان بالاحراش في الازمنة القديمة هو ان اسكندر الكبير ارسل جنوده لتقطع له اشجاراً تكفي لبناء تسعمائة سفينة عَلَى الفرات قرب بلدة (طاباسق Tapasque) التي سبق ذكرها وكل سفينة بسبعة مقاذيف واتى بالحديد اللازم لذلك من لبنان وقبرص (٥٣)

وزاد تحسن حالة سوريا الاقتصادية تحت ادارة سلوقوس الاول للحرية التي اعطاها للسوريين عموماً بلا تفريق وقد اثبتت سوريا بزمن السلوقيين وكررت ذلك بزمن الامويين الدور الذي يمكنها ان تلعب بتاريخ العالم اذا وضعت تحت ادارة عاقلة وعادله . وهكذا توسعت بزمن السلوقيين تجارة سوريا وتوجهت لاول مرة بعد سقوط فينيقيا نحو الثروة والبحبوحة ونرى ان اكثر مدن سوريا بذلك الوقت كانت مملوءة بالبضائع والتجار خصوصاً سوريا الشمالية حيث كان بها انطاكية مركز السلوقيين

---

(٥٢) كذباً ما يذكر بان اسكندر الكبير بنى اسكندرون والحقيقة انه كان هناك بلدة اقدم من اسكندر تعرف تحت اسم Myriand ولم يبن اسكندر الاجانباً علاوة على هذه البلده

Vital-eunet Le Turquie d'sie 1890 ll Page 203

ثم Camille Callier' Voyage en asie Mineur

(٥٣) Yanoski-David-Syrie ancienne page 27

وبمناسبة ذلك ازدهت اللاذقيـة والسويدية على البحر المتوسط وبلدة طوباسق على الفرات وكانت تخرج اللاذقية نوعاً من الشراب الى مصر مشهوراً بالازمنة القديمة حتى زمن الكاتب اليوناني استرابون الذي عاش في القرن الاول للميلاد (٥٤) ويذهب منه قسم الى اوربا ولكن لم تقتصر هـذه الافعال الاقتصادية على شمال سوريا بل عمت جميع اطرافها حتى الصحراء المجاورة لها ويكفي ان نذكر ان عدد سكان انطاكية بلغ بزمن سلوقوس الظافر حسب افادة بعض المؤلفين ثلاثمائة الف نسمة وكان عدد سكان السويدية على مصب نهر العاصي مائة الف نفس ولكن ليس هناك براهين اساسية تثبت لنا هذا الادعاء وكان يشاهد بهـا مئات من السفن بحركة وفعل دائمـة وبزمن السلوقيين ربطت فلسطين بصورة متينة مع سوريا التي تشكل قطعة طبيعية منها ونرى ان كثيراً من سكانهـا اختلط بسكان الشمال وكثيراً منهم اختار السكنى بانطاكية وبين هؤلاء السكان انتشر لاول مرة الدين المسيحي حين ظهوره كما هو معلوم من التاريخ السياسي وبعـد قدوم الرومان دامت التحسنات الاقتصادية التي ابتـدأت بزمن السلوقيين وقد تركت ادارتهم في سوريا من الآثار ما يشهد على ما كانت عليـه حينئذ هذه الولاية من التقدم الاقتصادي والاعتناء الذي وجدته

(٥٤) Volney voyage en syrie tom ll page 160 ثم Dury Histoire des romains lv page 75

عند الرومانيين ولا شك ان ربط سوريا مع دولة الرومان الواسعة والوحيدة بالنظامات والعملة وشبكات طرق المناقلات افادها تجارة ولم يقتصر اعتناء الرومان على ادارة سوريا السياسية بل انهم نظموا حتى اقل تفاصيل الحياة الاقتصادية وهكذا نراهم يعينون مأمور خصوصي ليسهر علَى حسن الوزن والعدل في البيع في الاسواق ويسمى عندهم (Sdil) (٥٥) ومن ذلك نشأ فن الحسبة في الاسلام . وابتدأ الرومان بتنظيم سوريا الاداريه سنة ٦٢ للمسيح حيث استراحوا نوعاً ما من الحروب(٥٦) ونرى حتى اليوم آثاراً من الطرق التي فتحها الرومان في سوريا كما تشهد بذلك الكتابة الواقعة بمدخل نهر الكلب حيث نقب الرومان بالصخر طريقاً بحرياً سمي (Via Antoniana) وذلك سنة ١٧٦ الى ١٨٠ قبل الميلاد وكذا نرى آثار الخط الذي يربط السويدية وبعلبك وكان هناك خط بين تدمر والشام وآخر يربط بصرى ببعلبك (٥٧) ولا شك ان اكثر هذه الطرق بنيت بالنظر الى فوائدها العسكرية قبل كل شيء ولكن افادت بالواسطة نقل البضائع بين البقاع التي تربطها ولا يخفى ما للطرق من الاهمية بتقدم البلاد الاقتصادي خصوصاً في بقعة كسوريا حيث تختلف شرائط اقليمها

(٥٥) Liebmann' Vorschung Zur verwaltungs des romichen Reiches page 360

(٥٦) Vigié etude sur les impots indirects romains Montpelier 1882 page 8/9

(٥٧) Gôrz page 427

وترتيبها من محل الى آخر بحيث كل قطعة فيها تشكل تكملة الاخرى ولا يمكن الاستفادة من هذه الشرائط الا اذا امنت سهوله المناقلات بينهـا ، هذا عدا كون سوريا ممراً للبضائع الهندية ومن اهم الطرق للمناقلات التجارية .

واذا بحثنا عن تلك البضائع التي كان اعظمها يمر من سوريا و يعرف تحت اسم البضائع الهندية نرى انها تحتوي على ستة انواع بناء على ما ابقاه لنا الزمن في كتاب الفه احد كبار مأموري المكوس من الرومانيين واسمه (Mercien) ليستخدم كتعليمات لتابعي هـذا الملك وهي كما يأتي:

١— البهارات والعطورات (وهي اهم البضائع قيمة)

٢— المنسوجات القطنية

٣— الاحجار الثمينة

٤— الزينات الحريرية

٥— المماليك والارقاء

٦— خيل و كتان الهند

وعدا عن ذلك كانت تورد بلدة رومـا بصورة خاصـة صبغه صور المشهورة كما سيأتي ذكرها وفي زمن بلينوس الذي وجد في ابتـداء القرن الاول للميلاد بلغت قيمة البضائع الهندية الداخلة الى ايطاليا وغالبهـا عن طريق سوريا ١٠٠ مليون سستر او مايقارب ١٩٤ مليوناً من الفرنكات(٥٨)

(٥٨) Heyd Tom 1

يصيب روما وحدها من ذلك في القرن الثاني للميلاد ما يوازي ١٣،٧٥ مليونا من الفرنكات (٥٩) ولا شك ان هذه الاعداد صحيحة اذا لم تكن قليلة اذا تفكرنا ان احدى سكان روما المدعوة (لوليا پاولينا – Lolia Paulina) كانت بزمن بلينوس الكاتب الرومي المذكور سابقاً تملك مجوهرات تبلغ قيمتها سبع مليونات ونصف من الفرنكات (٦٠)

وكانت سوريا ترسل عدا عن البضائع الصادرة عنها والآتية من الهند كثيراً من محصولات الصباغ الصوري المعلوم الذي كان مرغوباً حينئذ في روما من طرف العام والخاص وكانت تصبغ به العوام اطراف اثوابهم واذا تذكرنا ان صور كانت بدون منافسة بهذه الصنعة نفهم اهمية هذه الصناعة السورية وما اتت به من الفوائد المادية الى البلاد طالما الكيلو الواحد من ناعم هذه الاصباغ كان يساوي في روما ٧٨٨ من الفرنكات ٠

ويعقب الصباغ الصوري في الاهمية زجاج صيدا الذي سبق ذكره عند التكلم عن صنايع الفينيقيين ثم خشب الارز اللبناني الذي كانت الرومان تزين به بيوتهم ومعابدهم (٦١) وكانوا يستحصلون منه عصيراً او صمغاً خاماً يحفظ الكتب من العث (على اعتقاد ذلك العصر) ثم كانت ترسل سوريا الى روما كثيراً من العطريات حيث تعبر عن ذلك اشعار هوراس

(٥٩) Richter Page 134
(٦٠) Pfanuschmied Entoicklung des Weltahandels
(٦١) Yanoski-David page 112

(٦٢) وخصوصاً كان يرسل من فلسطين الى ايتاليا القطران والزفت لطلي الحديد حفظاً له من الصدأ ·

وكانت سوريا ترسل من محصولاتها الزراعية الحنطة وترسل الخمر من اطراف بيروت وطرابلس وصور واللاذقية وكانت اطباء رومانعالي بوصف فوائد خمر سوريا (٦٣)

وكانت الحركات التجارية كبيرة في سوريا بذلك الزمن كما يظهر ذلك من اجتماع تجارها واكثر تجار الرومان واليونان والارمن والمصريين في بلدة كانت موجودة باطراف الشام قرب (المزيريب) واسمها عيلا وكان لهذا السوق شهرة كبيرة حتى دخول العرب الى سوريا ·

وقد اعتنت قياصرة الرومان خصوصاً هادريان وترويان بحياة سوريا الاقتصادية فعمروا اقنية للمدن التي لها مركز تجاري وسعوا في جعل تدمر بلدة تجارية عظيمة عوضاً عن بلدة (حارتا Harta) الواقعة ماوراء الفرات تحت ادارة الفرس والتي كانت مشهورة كسوق للبضائع والانسجة الحريرية (٦٤)

(٦١) « . . . Divers et aureis
mercateur exscet culu
Vina syria reparata merce . »
Yanoski-David page 111
(٦٢) Yanoski-David page 116 Dury Histoire des romains tom 4 page 75
(٦٤) Ritter Erd kunde Bd 17 page 1496

وقد زار القيصر هادر يان تدمر بنفسه التي اخذت في ذلك الوقت اهمية اقتصادية تذكر فالروم لم يؤسسوا هذه البلدة ولكن ساعدوا على رقيها الاقتصادي اما تأسيسها فيرجع حسب قول بعض المؤلفين القدماء الى زمن سليمان بن داود ولكن المؤلفين الحديثين يشكون بصحة هذا الادعاء (٦٥) وعلى كل حال كانت تدمر موجودة سنة ٣٠٠ قبل الميلاد حيث احد المؤرخين آپيان (Apian) من معاصري فليو باطرا وانطونيوس يذكرها بكتابه (٦٦) ولا شك ان تقدمها الاقتصادي يبتدئ منذ تمركز السلوقيون في انطاكية مركز الترف والرفاه في تلك الازمنة ٠

ولم تكن تدمر البلد السورية الوحيدة التي ازدهت اقتصاديا بزمن الرومان بل ان هناك (هيرابوليس – Hirapolis) و (سيغما – Seugma) على الفرات وظهور الدين المسيحي اضعف اهمية هيرابوليس لان اكثر قوافل الحج التي كانت تأتي اليها بسبب هيكلها المشهور بذلك الوقت تبدلت نحو القدس وكان هناك بين حلب ومنبج بلدة تعرف باسم (باطنا — Batna) (٦٧) وقد وضع على البضائع التي تدخل الى سوريا من جهة الفرات قرب بلدة « سيغما » وكذا حين خروجها من حدود سوريا قرب « غزة » مكوساً

---

(٦٥) Yanski-David page 3

(٦٦) السائح الافرنسي ولنه‌ى الذى زار سوريا في اواخر القرن الثامن عشر يذكر انه شاهد باطراف منبج آثار الاقنيه التي عمرتها الانوريون والفرس تبعا لمبدأ سقراط من ان المياه منبع الحياة والبحبوحه (وجعلنا من الماء كل شيء حي)

خاصة وكانت تبلغ قيمة هذه المكوس بالوجه العمومي ١ من ٤٠ من قيمة البضائع وذلك حين الدخول وكذلك حين الخروج من الحدود السورية اى ان البضائع الهندية المارة بسوريا كانت تدفع ٥ بالمائة قبل ان تدخل الى ايطاليا ولكن كانت روما تطبق تعريفة خاصة لبعض البضائع التى كانت تأتيها من البلاد العربية وغيرها عن غير هذا الطريق المذكور بحيث كانت تطالب منها ١٢٦٥ وحتى ٢٥ بالمائة من قيمتها .

ولم يقتصر الرومان على الاهتمام بالتجارة بل انهم اسسوا معاملاً للاسلحة في انحاء سوريا فافادت وجود صنف من السكان ماهرين بهذه الصناعة التى اخذت فيما بعد اهمية تذكر بين اعظم الامم الشرقية وقسماً من الامم الغربية وهكذا اسس القيصر « ديوقليتان Diocletian » معملاً من هذا النوع في بلدة الشام كان نواة شهرتها القديمة بصنع الاسلحة .

تكلمنا حتى الآن عن الفوائد التى احرزتها سوريا منذ دخولها ضمن ممالك الرومان وانما رغم كل الخدمات التى قدموها لسوريا لا يمكننا ان ننسى ما احدثوه بها من المضرة بسبب عدم تقديرهم اهمية الموازنة اللازمة بين الزراعة وصنوف الحياة الاقتصادية الاخرى فالزراعة التي كانت اساس حياة البلاد السورية في كل وقت واذ لم تكن المنبع الوحيد لثروتها سقطت

- Volney' Voyage en Syrie tom II Page 121

(٢٠٧) Vigié Etude sur les impots indirects romains montpelier 1894 P. 77

زمن الرومان والبيزنطيين الى درجة اثرت على مستقبل البلاد الاقتصادي والسياسي فيما بعد و يثبت لنا صراحة حرج حالة الفلاح السوري واضطهاد الرومان له قيام الفلسطينيين الذين اشتهروا بحبهم للسالمة واجتنابهم لسفك الدماء ضد « وزپاز يهن – Vespasien » الذى صار فيما بعد قيصر روما لثقل الضرائب التى كان يطلبها منهم .

لم تكن هذه اول مرة اظهر الحاكم فيها قساوته واحتقاره السكان والفلاحين الواقعين تحت ادارة روما بل كان مشهوراً بالظلم والخسف وكان ينصب المأمورين و يطلق لهم الحرية بسلب اموال الرعية حتى اذا جمعوا مالاً جماً عزلهم وصادر ما بايديهم فاوصل بهذه الفعال بلاد روما الافريقية الى حالة من الفقر والاضطهاد عظيمة و بالاجمال لم تكن حالة الزراعة زمن الرومان كما كانت عليه التجارة من الرقي والنهوض بل ان انقسام سكان بلاد سوريا برمتها الى طبقتين مختلفتين احداهم حاكمة وتدعى البطاركة والاخرى خلقوا ليخدموا اسيادهم البطاركة ويسمون (بالعامة) اخرت الزراعة السورية المحتاجة بصورة خاصة الى عناية الزراع بارضهم واجتهادهم لانها صعبة جداً بسبب وعورة الارض اوقلة المياه و بعد هذه الاوضاع الاجتماعية لم يكن للزراع اقل فائدة من تحسين حالة الزرع طالما فوائده تذهب للبطاركة الذين يستعبدونهم فلعدم الموازنة بين هاتين الطبقتين انتج الاصول الزراعي المدعو بـ « الاستعمار » .

فكان من جملة الاسباب التي سهلت دخول العرب لسوريا كما سنذكر ذلك في حينه ·

اما البيزانطيين فقد اعتنوا نوعاً ما بالزراعة السورية خصوصاً زمن جوستينان وكان ابتداء ذلك ان هذا الملك اراد ان يتخلص من وساطة اعدائه الفرس التي كانت واقعة بين مملكته والهند حين اتيان البضائع الهندية خصوصاً الانسجة الحريرية وقد اختار اولا طريقاً جديداً للقوافل التجارية يمر عَلَى البحر الاحمر وانما اضطر الى تغيير هذا الطريق لكثرة الاعتداء الذي كان يقع على التجار من القرصان والحبشة وغيرهم اثناء سفرهم وصادف ان سرّ غزل الحرير الذي كان في ذلك الوقت مكتوماً من طرف الصينيين لمنع منافسة غيرهم بذلك انتشر بواسطة خيانة احدى البرنسات الصينية ووصل حتى بيزانس ولذلك امر هذا الملك بتأسيس معامل حريرية في ضواحي الاستانة وصور وبيروت ثم انطاكية وقد تقدمت هذه الصناعة بمدة وجيزة في سوريا بناء عَلى مهارة سكان هذه البلاد الصناعية وقد قاوموا الازمات الشديدة التي اصابتهم بمداخلة الحكومة بثمن بيع محصولاتهم الصناعية بينما هم كانوا مجبورين الى اشتراء الحرير في الخارج باثمان تابعة لحالة السوق التجارية التي لايمكنهم التأثير عليها وهكذا ابتدأوا بزرع شجر التوت وتربية دود الحرير في البلاد نفسها ، واول شجرة توت زرعت في

سوريا كانت في ضواحي بيروت (٦٨) في زمن جوستينيان امبراطور بيزانس وادخلت شرانق دود القز الى هذه البلاد بواسطة احد الرهبان الذي امّ بيزانس من بلاد التتر المدعوة بذلك الزمن بلاد « قطان — Khotan » ولكن اذا صرفنا النظر عن هذه النقطة السعيدة نرى ان اكثر اطراف البلاد السورية لم تشارك ضواحي صور و بيروت بالبحبوحة المادية بل ان الفلاح السوري بقي كما كان تحت ادارة الرومان يئن تحت عبء اصول القولوناد ولم يكن له اقل حرية او فائدة من الاعتناء بالزراعة السورية . وجبل لبنان كان بحالة احسن بالنسبة الى سائر البلاد التي تحيطه وذلك لصعوبة تذليل سكانه المتحصنين بالصخور والموانع الطبيعية فلذا كان خمرهم مشهوراً جميع تلك الازمنة مما يدلنا على ان زراعة العنب التي تحتاج الى عناية خاصة واجتهاد قروي كانت زاهرة به هكذا كانت حالة سوريا حين دخلتها الجيوش العربية تحت قيادة ابي عبيدة بن الجراح احد المؤسسين المقتدرين لادارتها الجديدة وذلك سنة ٦٣٧ للميلاد .

---

(٦٨) Heyde Tom l page 22-24

يمكننا ان نتصور فوائد ادخال هذه الزراعه الى سوريا اذا علمنا ان كيلو الحرير كان يساوي في القرن الثالث قبل الميلاد ٥١٦٧ فرنك بناء على حساب المولف المعروف Pariset بكتابه المدعو origine de la soie اما في القرن السادس للميلاد فبلغت قيمة الكيلو من الحرير ٢١٨٨ من الفرنكات ونزلت قيمتها فيما بعد بتوسع زراعة شجرة التوت وكثرة عدد مربي دودة الحرير بحيث لم تزد قيمة الكيلو في القرون المتوسطة عن ١٢٥ فرنك وفي القرن العشرين بلغت حوالى ٥٥ فرنك

الباب الثاني

حالة سوريا الاقتصادية منذ ظهور الدعوة الاسلامية
حتى اكتشاف طريق الهند البحري عن (رأس الرجاء)

(أ) — منذ ان فتح العرب سوريا الى زمن الحروب الصليبية :

«...من ينظر الى نهضة العرب بصورة سطحية يتوهم بانها كانت مخربة لكل مدنية مادية كانت او معنوية ولكنما الباحث المدقق يستنتج من المراعاة التي اظهروهـا نحو الحقول المزروعة حتى في زمن الحروب (٦٩) وحمايتهم لاسكان المسلمين و بعد النظر الذي اظهروه بتنظيمات البلاد الادارية والسياسية بان هذه الامة العربية الحديثة بظهورها قديمة بالمدنية والتقدم الفكري وانها اهل لان تعد من جملة الامم العظام الذين حكموا العالم...»

* لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا او تحرقوه (٦٩) ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا ...»

وصية ابو بكر الصديق لعبيدة بن الجراح

هكذا يعبر عن ظهور العرب احد الباحثين من الذين يعتمد العالم المتمدن على رأيهم (٧٠) فلندقق الآن تأثيرهم على حياة سوريا الاقتصادية ٠

لقد رأينا ان حالة سوريا لم تكن كما يجب حين دخول العرب اليها، وذلك بناء على مضرات اصول القولوناد الزراعي وشدة الضرائب التي كانت على كواهل الفلاحين السوريين خصوصاً في اواخر سلطة البيزنطيين حيث كانت الملوك البيزنطية منهمكة بالملاهي والملذات وتاركة الادارة لبطاركة همهم المنازعة على الرتب وشغلهم الدخول في مناقشات ومنافرات بسبب الاختلاف في المذاهب الدينية زد على ذلك حروب البيزانطيين مع العجم على الحدود السوريه فهي مما لا شك فيه اخرت قوافل التجار التي كانت تأتي اليها من اواسط آسيا ومن المؤكد ان تخريب تدمر من طرف القيصر اورليان في القرن الثالث للميلاد حين انفردت زنوبيا مالكتها بالسلطة كان بفساد العجم الذين جعلوا اهل هذه البلدة ضد قياصرة الرومان ليضعفوهم و يتخلصوا من منافستها الاقتصادية مع المدن الواقعة تحت ادارتهم كما بين ذلك حين التكلم عن بلدة « حارتا — Harta » والتي لم تنهض من كبوتها بعد ضعف الادارة الرومية لتأمين حرية النقل ٠ وقد زاد حالة سوريا ضرراً الخراب الذي احدثته جيوش البيزانطيين المنكسرين قبل تركهم الاراضي السورية انتقاماً من السكان واضراراً بالعدو المتعقب لهم

(٧٠) Hejd' Geschichte der Levantenhandel tom 1 Page 29

وهكذا يقول البارون كرومر في كتابه عن تاريخ مدنية الشرق انه «لا يوجد ارض على البسيطة مزجت تربتها هكذا بالدماء حتى ولا اطراف نهر الرين او ضواحي اللومبارد — كشمال سوريا حيث تقاتلت عليها العرب والبيزنطيين اعواماً» (٧١) ولذلك اعتنت العرب قبل كل شيء بتعمير ما خرب به البيزنطيون ثم باسكان قسم من القبائل العربية في البلاد الخالية كما فعلوا ذلك في مصر حين دخولهم اليها وهكذا نرى ان عدد سكان الشام من العرب ارتفع في بضعة سنين (٧٠٥—٧١٥ للميلاد) الى ٤٥٠٠٠ الف نفس (٧٢)

واستدام هارون الرشيد على هذه السياسة المدنية فاسس في شمال سوريا بلدة طرسوس على اطلال مدينة مندرسة واعطى كل من يسكن بها من الجيوش وغيرهم اكرامية تساوي عشرة دنانير ذهباً (٧٣)

هذا من جهة تعمير ما خرب من المساكن والمدن ولنتكلم الآن عن تأثيرات العرب على الزراعة السورية :

اولاً — لم تقسم الاراضي السورية بين الفاتحين بناء على دراية الخليفة الكبير عمر بن الخطاب مؤسس الادارة الاسلامية المدنية وذلك منعاً

(٧١) Von Kremer' Kulturgeschiehte des Oriants Bd 1 page 242
(٧٢) Goje' fragm. hist. arab 1 5
(٧٣) ملخص الآثار للشيخ عبد الرشيد بن صالح بن النوري المسكدني صحيفة ٧٨

لاختلاط جيوش العرب الفتية مع السكان واشتغالهم عن الحروب بالزراعة التي لا يتقنوهـا واخيراً لمنع طرد السكان من شغلهم او تركهم يخدمون كما كانوا زمن البطاركة ثم اراد عمر ان تكون هذه الاملاك عامة لمجموع الامة الاسلامية فاذا قسمها الآن يرث وارداتها الافراد فتخرج من سلطة الحكومة العربية التي تريد ان تترأس على توزيعها بين المسلمين حسب الضرورة او لاقتدار . والخلاصة نرى ان هذا القرار الحكيم كان من اهم الاسباب لتحسين حاله الزراع السوريين ومنع الاسلام من اقتفاء اثر البيزانطيين من اعتبار البشر اما اكابر او اسراء خلقوا لخدمة الاولين . ولا عجب اذا رأينا بعدئذ ان المدن السورية كانت تقفل ابوابها امام البيزانطيين قائلة لهم (كما كان الحال في حمص) :

« اننا نفضل عدالة العرب عَلَى ظلمكم واستبدادكم » (٧٤) .

اما الجامعة الاسلامية التى يرأسها عمر فقد قامت بجمع الضرائب التي ابقوها على السكان بكل حقانية ورفق واكبر شاهد عَلَى ذلك ان عمر قبل ان يعين عاملاً له في الشام مكاناً بجمع اموال الضرائب ارسل الى سكان هذه البلاد يطالب منهم ان يرسلوا له الرجل الذي يعتمدون عَلَى اخلاصه وامانته فارسلوا له يزيد بن معينة فوظفه عاملاً عليها وحين اضطر عمر الى ضبط اراضي بعض اليهود الواقعة في جزيرة

(٧٤) Belin journal asiatique 1861-62 page 137

العرب لم يضبطها منهم بالقهر بل دفع قيمة كل ارض ضبطها منهم (٧٥). فالاهتمام بالارض وتركها بيد زراعها القدماء والحرية التي اعطيت للزراع عوضاً عن الاستعباد الذي كان بزمن القولوناد – الروماني والبيزانسي – والتي بدلاً من حماية الفلاحين كانت تحبذ سلبهم ونهبهم واحتقارهم ثم معاونة الجامعة الاسلامية للفلاحين الذين يريدون تعمير ترع الري (٧٦) والاعتناء باصول التخطيط كل ذلك كان له تأثير حسن على الزراعة السورية وحين التكلم عن حالة الفلاحين السوريين يقول (بوغنو – Beugnot) بعد ان ذكر وصايا ابا بكر للجيش :

« ان هذه الوصايا ترينا ان العرب فتحوا سوريا لا لأجل ان ينهبوها او يخربوها بل ليؤسسوا فيها ادارة دائمة » (٧٧) .

ويمكننا ان نثبت صحة هذه النظرية التي لها اهمية اقتصادية كبيرة حيث منها يمكننا ان نستنتج عن نتائج فتوح العرب لسوريا بادلة اخرى تكمل ما تقدم من التفصيلات فاذا اخذنا القرآن الكريم وتصفحناه نرى ان كلمة الخراج التي يجب ان تهم المسلمين بصورة خاصة لانها في الغالب تستوفى من الاجانب التي يسهل استعبادهم لو كانت غاية الاسلام نهبهم لا تذكر

---

(٧٥) ما وردي صحيفه ٢٩٥

(٧٦) عميل عمر في العراق زياد عمر اتيه نصرف عليها ١٠٠٠٠٠ دينار ثم اقطعها على الفلاحين
Else Reitmeyer Staete grundung im Islam p. 26

(٧٧) Beugnot memoire sur le regime de terre en syrie page 8

فيه الامرة واحدة ونزيد على ذلك كلمة عمر بن عبد العزيز الشهيرة :

« ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً »

فالاسلام في بداية امره لم يكن في الحقيقة الا نهضة الشرق المستعبد ضد الظلم والتحكم ولذلك نرى انه يجعل للمعنويات اهمية خاصة و ينظر الى الشعوب الشرقية المجاورة كحليفة طبيعية له وهذا ما دعا محمد صلى الله عليه وسلم للسعي لنشر الاسلام بين الاقوام المجاورة لعلمه بانهم مستعدون لقبوله بعد ان يأتي لهم بروح الحرية التى لم تفقدها جزيرة العرب عصراً من العصور لصعوبة تسخيرها من الاجانب. ونفهم هذا التساهل الذي اظهرته العرب نحو سكان سوريا وحسن ادارتهم نحوهم فالحقيقة هي ان ظفر العرب على البيزانطيين لم يكن الا نتيجة تفوقهم على هؤلاء بمعنوياتهم :

« فاصالة وعظمة الرومان » يقول احد المؤلفين الغربيين حين يتكلم عن نهضة العرب « انتقلت بصورة نهائيــة منهم الى الملة العربية » (٧٨)

ويخرج عن موضوعنا الزيادة على ما ذكرنا ونختم البحث بذكر كلمة لعبادة للمقوقس حاكم مصر وهي تظهر كل معنويات هذا الشعب حين دخوله سوريا وتمحي كل افتراء يوجهه بعض المؤلفين نحوه من انه لم يدخل اليها الا طمعاً بالغنيمة :

« لو كانت الدنيا لنا ما اردنا لانفسنا اكثر مما نحن عليه »

---

(٧٨) David. Syrie moderne p. 87

اذاً هجوم العرب على سوريا لا يشابه اصلاً هجوم البرابرة على اسوار روما معتمدين على عددهم بل ان قوة هؤلاء كانت معنوية صرفة تدل على ان من طبيعتهم الاصلاح اكثر من التخريب .

والتاريخ يعتبر عمر بن الخطاب المؤسس للادارة الاسلامية المدنية حيث قد بنيت على القواعد التي وضعها اهم انظمة الدول الاسلامية ومع تفوق العرب على البيزنطيين من وجوه كثيرة فقد كانوا من جهة الاصول المالي وما شاكله اقل اختباراً منهم وقد لاحظ ذلك عمر بن الخطاب فاستفاد من تجارب هذه الامة المغلوبة مع ازالة كل سوء الاستعمالات التي كانت تمنع هذه المؤسسات من ان تعطي الفوائد المطلوبة وهكذا نرى ان اصول الخراج والجزية التي كانت معروفة بزمن الرومان ومستعملة في بلادهم الشاسعة ليست من اختراع العرب كما ان كلمة (طسق) بفتح او كسر الطاء بمعنى ضريبة مشتقة من كلمة بيزانسية واصول الضرائب بالعراق وارض السواد مقتبس من الفرس و يندهش المرء من سرعة الزمن الذي توفقت به العرب الى معرفة فوائد هذه المؤسسات والى الاستفادة منها وهكذا نرى ان اول اصول مساحة الارض الذي نفذ في مصر كان بزمن عمرو بن العاص سنة ٧٢٥ للميلاد (٧٩) وتسهيلاً للسكان ولم تركت العرب حتى تأسس ادارتهم العربية الصرفة ادارة امور الضرائب وما شاكله

(٧٩) سيوطي ج ١ صحيفة ٨٧

بايادى الموظفين القدماء و بقيت الدفاتر تحرر باللغة اليونانية حتي زمن
عبدالملك بن مروان اي الى سنة ٧٠١ ميلاديه ولنتكلم الآن عن الضرائب
التي هي من اهم الاسباب التى ادت لانحطاط الزراعة بزمن البزنطيين .

كان يطلب من السوريين العشر او الخراج واهل الذمة تدفع عدا
عن ذلك جزية عن الرجال القادرين علَى العمل عدا عن العجز و النساء والاطفال
وذلك بخلاف الرومان وكانت العرب تقسم واردات الحكومة الى قسمين
احدهما يسمى (مال الفيء) والثاني (مال الصدقة) فمال الصدقة مايدفعه
المسلمون اعانة للجامعة الاسلامية و يمكن صرفه بدون وساطة الحكومة اذا
ادى شهاده عن ذلك وهذه المؤسسة هي اجتماعية طبيعية قديمة المنشأ تعرف
بزمن الاسرائيليين بنفس الاسم اما الفيء فهو ما جمع بناء على قوانين
ادارية و يعتبر له خاصة مدنية سياسية اكثر من خاصة دينية كما هي الحالة
بالصدقة ، فمال الفيء لا يصرف الا عن يد الخليفة او اتباعه وعماله وذلك
للامور التي تعود (للمصلحة العامة) فقط ، والدليل علَى اختلاف هذه
الوارادات كونه لايجوز جمعها مع بعضها بل تصرف كلاً علَى حدة والقرآن
يفصّل هذه الشرائط بقوله : « انما الصدقة للفقراء والمساكين (الفقراء
المتعففين) والعاملين عليها (جباتها) والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين
(المديونين) وفي سبيل الله وابن السبيل (الغريب) » اما الفيء فهو لله
(الجامعة الاسلامية)ورسوله (خلفائه من بعده) واليتامى والمساكين»

فالغاية هنا سياسية اجتماعية اكثر من انها دينية كما يظهر ذلك من الآية السابقه ·

واذا نظرنا الى منبع الواردات نرى ان الزكاة ضريبة موضوعة على الثروة وان الخراج وحده هو الضريبة الموضوعة على الارض (Jmpot foneiers) وسيظهر لنا ذلك في الاسطر الآتية :

من المعلوم انه تؤدى الزكاة عن المواشي التي حال عليها الحول اى بقية سنة وهي بتملك صاحبها وبشرط ان يملك على عدد معين منها بحيث لا تجب عليه الزكاة دونه ولما لم تكن العرب عرفت فوائد العملة جعلوا الشاة واحداً قياسياً لتعين قيمة الزكاة خصوصاً لان اكثر المسلمين في ذلك الزمن كانوا من البدو التي تشتغل بتربية المواشي بصوره خاصة ·

واذا دققنا الزكاة من الوجهة الاقتصادية نرى انها في بدء الفتوحات الاسلامية كانت ضرورية ونتيجتها غير مضرة بالزراعة السورية لان تربية الغنم والمواشي كانت ولم تزل في اكثر الاطراف السورية مستقلة تماماً عن زراعة الحبوب والاشجار المثمرة وبايدي البدو الرحل او اصحاب الثروة من سكان المدن الذين يجعلون لها رعاة ولما كانت الزراعة تابعه لضريبة المشركان من الواجب الاستفادة من ثروة البدو على اى صورة كانت ولما لم يكن ممكناً حصرهم ومعرفة ما يملكونه ··· الخ كان الدين احسن واسطة للتأثير عليهم ليدفعوا ذلك من تلقاء انفسهم دون ان يكتموا شيئاً

ويخلوا بركن مهم من دينهم ، ولكن لا شك ان وجود ضريبة مستقلة على المواشي لايمكن ان تدوم بزراعة جمعت حسب الاصول الزراعي الحديث بين فرع تربية المواشي وفرع الزراعة وغرس الاشجار لتؤمن بذلك اكثر محصول يمكن تأمينه من الارض باستعمال السماد الطبيعي وتخفيف مضرات سني المحل ببيع المواشي فيها اعانة او اشتراء ذلك منها في سنين السعة عوضاً عن صرفها بالاسراف لان الفلاح قليلاً ما يكون قادراً على حسن الروية والمحافظة على الدرهم لمستقبله الا بصورة يراها امامه تكبر وتصغر اي بصوره حيوان حي والحقيقة ان المرء يتحير من حذق اولئك الرجال الذين اسسوا هذه القواعد في القرن السابع وانتبهوا لمضار دفع الزكاة عن الابل والبقر (العاملة) اي الخادمة فرعاً من فروع الحياة الاقتصادية لئلا يضر ذلك بها وكذا تعين حداً تبتدأ منه الزكاة كي لا يكون الفقير عرضة للاحتياج مما تسعى الى تحقيقه في يومنا هذا الدول المتمدنة ويعرف بالالمانيه باسم (Existensminimum) اي (حد الحياة الضروري) وقد طبق بالمانيا هذا الاصول وغيرها بقوانين الضرائب الحديثة ثم عدا عن كل ذلك استثناء الخيل منها ، ذلك الحيوان النافع الذي اشتهر فيما بعد شهرة عمت اكثر آفاق المسكونة فامنت للبلاد عدا عن الفوائد العسكرية ثروة مادية كبيرة لم تزل آثارها حتى يومنا هذا ويقول الرسول بهذا المعنى : (تجاوزت لأمتي عن الخيل والرقيق)

لئلا يضطره مالكه الى الاشتغال فوق طاقته ولا كثار عدد المسلمين اذا كان الرقيق انثى .

وقد اقتفى الخلفاء من العرب هذا الاثر وجعلوا سباق الخيل سنة ترغيباً لهذه الشغلة المهمة الاقتصادية وكان لهشام اربعة آلاف فرس وكذا للوليد وكانت تجري تلك المسابقات (بالرصافة) قرب الشام وكذلك كانت المسابقة دائمة زمن العباسيين في ميادين « الرقة » و « الشماسية » (٧٩)

ولنتكلم الآن على العشر والخراج اللذين يهمان الزراعة بصورة خاصة :

العشر ضريبة توضع على ما يحصل من كل ارض بحوزة المسلين الا التي اتت لايديهم وفي رقابها الخراج حيث تدفع حينئذ الخراج وهذا نادر وهناك ثلاث عوامل تعين درجة ارتفاع ضريبة العشر .

اولاً — كمية المحصول .

ثانياً — صورة الانتاج (المصارفات التي صرفت لاستحصال الزرع من السقاء وما شاكله)

ثالثاً — المشقة التي تعارض نقل المحصول ونقل الفائدة (بعد المسافة عن المدن) . فنرى من ذلك ان الحكام المسلين حين تعيينهم هذه القواعد كانوا على معرفة تامة باهمية الزراعة وتأثيرها بحياة البلاد الاقتصادية وهذا اكبر دليل على رقيهم المدني حينئذ .

(٧٩) مسعودي جلد ٢ صحيفة ١٢٩

فالعشر يعني عشره من مائة من المحصول تدفع بتمامها من الارض التي تسقى سيحاً او بالمطر اي بدون تعب او نفقة وتدفع نصف ذلك الارض التي تزرع بالاستقاء الصناعي وليس على الزارع شيء اذا قل محصوله عن وسق او ١٦٠٠ رطل من الشعير والذرة والتمر والزبيب ، وهنا يظهر انصاف الاسلام المانع طلب ما لا يقدر الفلاح على تقديمه ولئلا تجرد الارض عن بذارها للسنة الآتية . فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يهتم بصورة خاصة بالزراعة كما يظهر ذلك من تشويقه اليها بقوله « من قطع شجرة فليغرس مكانها (٨٠) ثم « من غرس غرساً او زرع زرعاً فأكل منه انسان اوطائر او سبع كان له صدقة » (٨١) وبعد هذا التشويق يهدد من لا يستفيد من ارضه بالزراعة بتجريده عنها حيث يقول « من كانت له ارض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم احق بها » (٨٢) وقد استثنى الاسلام من الضرائب زراعة الحطب تشويقاً لهذه الزراعة المفيدة وكذا يظهر لنا ما ذكرناه من اعتبار المسافة بتعيين ضرائب العشر انه بزمن عبد الملك كان على كل الف شجرة من الكرم دينار واذا بعد مسافة يوم نصف دينار وكذا على مائة شجرة زيتون ديناراً في القرب ونصف دينار اذا بعدت مسافة يوم عن المدن العامرة اما اشجار التين فكانت مستثناة

---

(٨١) فتوح البلدان للبلاذوري صحيفة ٩

(٨٢) كتاب الفلاحة لعلي بن العوام صحيفة ٣ ،

(٨٣) ابو يوسف كتاب الخراج ج ١ صحيفة ٢٧

من الضرائب لانها كانت اساس غذاء الفلاح السوري هكذا كان العشر على الصورة التي تؤمن فوائد الزراعة ولا تضر باي صورة كانت بحياة البلاد الاقتصادية خصوصاً لاستثناء الارض المبني عليها ومحل الخيام منها ولم يعتبروا الا ما يحصل من الارض فقط منبعاً لواردات العشر ولا حاجة لذكر فوائد هذا التسهيل بحياة الزراع (٨٣)

وانظر الآن الى الخراج :

تدفع الخراج الاراضي التي اخذت بالحرب ودخلت في حوزة الجامعة الاسلامية بعدان تركها اصحابها بطاركة الرومان والبيزانطيين وملوكهم وقد رأينا كيف ولماذا منع عمر قسمة هذه الارض على المجاهدين وفوائد بقائها بايدي الجامعة الاسلامية نظراً لعناية العمال بها عوضاً عن الفرد الاناني الذى لا تهمه الا منفعته الشخصية بدون مراقبة ثابتة . فهذه الاراضي التي بقيت بايدى زراعها القدماء (الموالي) كانت وقفاً اى ان الخراج الذي عليها ابدى بحيث يجب دفعه ولو انتقلت الارض لأيدى المسلمين (٨٤) والا كان من السهل معاكسة ما فعله عمر واشتراء تلك الاراضى من اصحابها وهذا يضر بمنافع الخزينة الاسلامية التي كانت في بداية امرها محتاجة لواردات لتأمين نفقات المجاهدين ثم موظفي

(٨٣) Rapport général sur les etudes fonciers 1921 Page 361

(٨٤) Von Kremer, Kuelurgeschichte , Bd I p. 31

الادارة المدنية التي اضطرت العرب الى ابقائها في الاراضي السورية كما كانت عليه بزمن البيزنطيين حيث تعود السكان عليها مع ان العربي بجزيرة العرب يكتفي باصول القبيلة البسيط القليل المصارف للحكومة الاسلامية. اما ارض الخراج التي دخلتها العرب بموجب معاهدة ودية فانها تدفع الخراج موقتاً حيث يسقط لزوم دفعه اذا انتقلت هذه الارض ليد المسلم وذلك ترغيباً لتلك الاقوام لقبول الدين الاسلامي ولان دخولهم بالطاعة لم يكلف مصارفات الحرب فنرى والحالة هذه ان الخراج كان مربوطاً بصورة خاصة بكيفية ضبط الارض من طرف المسلمين مع اهمال شخصية المتملك الذي يزرع الارض الا في الاراضي الواقعة بدار العهد اي التي دخلت بالطاعة مقابل معاهدة صلحية فهناك نرى ان شخصية المتملك تؤثر على ضريبة الخراج للضرورة السياسية فالخراج الحقيقي هو ما وضع على رقبة الارض كما هو الحالة في الخراج الاول اما خراج اراضي العهد فهو بالجزية اشبه منه بالخراج ولذلك يفرق الاسلام بينهما بتسمية الاول (خراج الاجرة) لانه يعتبر الارض ملكاً للجامعة الاسلامية وان الزراع مستأجروها (٨٥) او ان الارض كرأس مال والخراج فائضها (٨٦) والخراج الثاني يدعى خراج الجزية. ويدفع الخراج اما بالنظر الى مساحة الارض ويدعى حينئذ خراج

(٨٥) Von kremer kulturgeschichte Bd I p. 33
(٨٦) Wellhausen Das arabische Reich u sein sturtz 1902 p. 25

المساحة (٨٧) او باعتبار المحصول وكميته ويدعى «خراج المقاسمة» او يعين بعد التوافق بصورة ثابتة لكل السنين ويسمى حينئذ «خراج المقاطعة»

وحيث ان العرب اعتنوا بزمن الامويين بمساحة الاراضي الزراعية ليس من جهة اتساعها فقط بل بتعيين قيمة الارض وخصبها نرى ان اكثر اراضي سوريا كانت تابعة لخراج المساحة وقد سهل ذلك ان اكثر اراضي سوريا كانت بزمن اليونان تابعة لنفس الضريبة من جهة المساحة (٨٨) اما واسطة الدفع فكانت في البداية اما دراهم بيزانطية او ما ضرب به القواد كخالد بن الوليد في حمص على طرزها ثم كان على الزراع تأمين معيشة الجيش بتأدية قسم معين من المحصولات الزراعية عيناً · ومن الامور التي تثبت لنا عظم الفرق بين ادارة البيزانطيين والعرب ان الاخيرين كانوا يخصمون للزارع اذا اتى بالمحصولات اجرة الطريق اذا زاد عن مسافة معينة (٨٩) وبينما بطاركة الروم وبيزانس يعتبرون الفلاح السوري كرقيق خلق لخدمتهم الخاصة (٩٠) نرى ان العرب كانت تعاملهم بالرفق والاعتناء ويوضح لنا الفرق العظيم الذي حدث بحالة الفلاحين الاجتماعية ان

(٨٧) Van Berchem la proprieté territoire et limpot fonciers sous les premiers khalifes 1883 p, 45

(٨٨) فتوح البلدان ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥

(٨٩) Van Berchem 64

(٩٠) Beugnot 8

العساكر العربية مرت بارض فلاح سوري فلم يتأخر هذا من تقديم شكايته رأساً الى الخليفة عمر الذي بدلاً من ان يغضب من هذه الوقاحة عَلَى طرز اشراف البطاركة امر حالاً بان يعوض عن كل الخسارة التي لحقت به من جراء ذلك (٩١) ورأينا شخصية من كان عمر عينه كعامل له وكان لايكتفي بالشهرة بالزهد والتعبد بل كان يطلب من العمال وكالات تكون مسؤولة عن كل ظلم يجري به عَلَى الزراع اثناء جمعه الخراج والعشر ومن جملة شرائط الوظيفة ان لايكون له حاجب على الباب لئلا يمنع المظلومين من رؤية العامل بشخصه ·

مر عمر يوماً باطراف الشام فرأى اناساً وضعوا بالشمس المحرقة وعَلَى رؤسهم الزيوت الحارة فسئل عن سبب ذلك فقيل انهم لم يؤدوا ماعليهم وان كل مديون للحكومة او الافراد يعامل كذلك ولا شك ان هذه العادة البربرية كانت جارية زمن البيزنطيين فتأثر عمر لهذا المنظر وامر باطلاق سبيلهم ومنع استعمال هذه العادة ولم يسمح حتى ولو بضرب من كان من الفلاحين بسبب عدم دفعه ضرائبه وديونه (٩٢)

تكلمنا الآن عن تحسين شرائط الزراعة بتخفيف الضرائب وجمعها ضمن قواعد الانسانية مع مراعاة احتياج الزارع ومصارفاته والضروريات

---

(٩١) كتاب الخراج ج ١ صحيفة ٩٧

(٩٢) كتاب الخراج ج ١ صحيفه ٩٨

الاقتصادية ولم تكتف الادارة العربية بهذا التحسين بل زادت على ذلك نوعاً من المساعدة يستحق الذكر وهو جديد من نوعه في تلك الازمنة ولكنه مبني بصورة خاصة على فوائد الزراعة الشرقية وشرائطها الغابرة :

من المعلوم ان المحصول السنوي في البلاد السورية كل منها تابع لكثرة الامطار الشتوية وقلتها فهذه الحالة المهمة بالبلاد القليلة المياه تجعل الزارع في بعض السنين عرضة للجوع وفي غيرها محصوله يزيد عن احتياجاته فصعوبة حفظ المحصولات الزراعية لسنين المحل وقلة اهتمام الفلاح البسيط بالمستقبل تكون في الغالب من الاسباب التي تدع الزراعة العوبة بيد الصدف وهكذا نرى ان من جملة التحسينات التي ادخلها الاوربيين في يومنا هذا في المستعمرات جمع قسم من الحنطة في سنين الخير بمخزن خاص يحتاجه السكان حين نفاد المحصول عرضاً من ان يموتون جوعاً في سنين القحط ولما كانت سوريا بجوار ارض كمصر كثيرة الحبوب ولا يحتاج الى جلبها الا الى الدراهم كان من المعقول جمع قسم من الدراهم للاحتياج اليها في السنين الاخر فالعرب تلافت هذه المسألة بترك قسم من الضرائب بيد الفلاح على شرط ان يحضرها اذا طالبته بها الحكومة لتسمح له بصرفها في سنين القحط وكانت العرب تسمي هذه المبالغ « بقايا » او « فضل » (٩٣)

مؤرخوا العرب يذكرون ان عمر جمع عملائه وسألهم عن حالة الزراع

(٩٣) Van Berchem page 64

وهل هم في ضيق من الضرائب فاجابوه ان حالتهم حسنة : « حيث تركنا بايديهم فضلاً ... » (٩٤)

ويذكر ايضاً ان الحجاج اراد اخذ هذا الفضل فكتب بذلك الى عبد الملك فاجابه بقوله :

« يجب ان لا تكن غايتك لوحيدة جمع اموال هؤلاء البؤساء فاترك لهم مالاً يمكنهم من ان يقلوا لحمهم بالسمن ! »

فمن هذا يظهر جلياً اولاً وجود الفضل ثانياً رعاية الملوك الامويين حالة الزراع وسهرهم على رفاههم والممانعة بكل ما يضرهم ويضيق عليهم والحجاج (بايعاز عبد الملك) قدم الى زراع العراق قرضاً زراعياً قيمته مليونين من الدراهم (٩٥) وقد اتسعت زراعة الاشجار المثمرة في سوريا المحتاجة الى رؤوس الاموال والايادي العاملة وكانت تخرج محصولاتها (التفاح) وغيره الى العراق وسائر الاطراف العربية (٩٦)

ولندقق الآن المبالغ التي جمعتها العرب اثناء ادارتهم سوريا حيث يتبين منها حالة البلاد الاقتصادية. ولكن ليس بيدنا مع الاسف الا اعداد عائدة لبعض السنين مما يصعب علينا جداً الحكم عن تأثير الادارة العربية لان قيمة هذه الواردات متعلقة عدا عن حسن الادارة واهتمام الفلاح

(٩٤) يعقوبي ج ٢ صحيفه ١٧٢

(٩٥) V. Kremer Kulturgeschichte Bd I p. 172

(٩٦) ملخص الآثار الشيخ عبد الغني المكدني صحيفه ٤٨

بصورة خاصة من كمية المطر ويجب علينا علىَ الاقل معرفة واردات عشر سنين متتابعة لنتمكن من بيان فكر عن حالة سوريا المالية يقارب الحقيقة ومع ذلك ربما لا يخلو من فائدة ذكر بعض هذه الاعداد مع التحفظ اللازم من المغالاة في قيمتها التاريخية .

كانت جباية سوريا على عهد بني امية بعد تأدية المصارفات اللازمة للادارات المحلية واعاشة الجيوش ١٢٢ - ١٢٧ مليون دينار وسنة ١٥٨ الى ١٧٠ ه بلغت تلك الواردات ١،٢٢٥ مليون دينار زد علىَ ذلك ١٥٠٠٠٠ كيلو زيت مع التفكر بان واردات حمص غير داخلة بهذا العدد وسنة ٢٠٤ - ٢٢٧ كانت واردات الشام ٩٠٠ الف دينار فقط وذلك علىَ اثر قيام الخوارج بقيادة ابي العميطر وتخريبه ونهب الشام وحمص وقنسرين والسواحل ثم اسراف مالك ابن طوق والي الشام فقد ترك عند خروجه من الدين ما يبلغ ٣٠٠٠٠ دينار (٩٧) وسنة ٢٥٠ للهجرة بلغت هذه الجباية مليون وسبعمائة الف دينار وسنة ٢٨٣ ما يقارب مليونين دينار (٩٨) ولكي نعلم مقدار مصارفات الحكومة

(٩٧) الصفدي صحيفه ٦٧ـ٨٩

(٩٨) ان هذا العدد مذكور عند ابو حوقل صحيفه ١٢٨ بصورة ٣٩ مليون درهم وبعد البحث وجدت ان قيمة الدرهم تغيرت نسبة الى الدينار من عشرة دراهم مقابل دينار بزمن الخلفاء الراشدين الى عشرين مقابل دينار بزمن هارون الرشيد حتى ٢٥ مقابل دينار بزمن المتوكل وبلغت هذه النسبة بزمن المقتدر سنة ٢٩٧ للهجرة ٢٠ وهذا ما اعتبرناه اساساً لتحويل الدراهم للدنانير .

العربية التي تحسم من الجبايات قبل ارسال بقاياها الى الخليفة يمكننا ذكر الحادثة الآتية :

حين بناء الجامع الاموي صرف الوليد عليه اموالاً وافرة بحيث حدث ضيق في سوريا وهكذا جمع الوليد سكان الشام والضواحي في الجامع الاموي واتى باموال الخزينة وامر بعدّها على مرأى العموم فكانت ثلثمائة مليون درهم وبعد الحساب تبين انها تكفي البلاد ثلاث سنين (٩٩) اي ان المصارفات السنوية كانت مائة مليون درهم اي اذا اعتبرنا قيمة الدرهم للدينار كواحد لعشرة فيكون عشرة ملايين دينار . ونعلم من جهة اخرى انه كان لسوريا ميزانية خاصة عن العراق ومصر والحجاز وسائر الاقطار العربية التي كان على كل منها عامل مستقل بمصارفاته بحيث ان هذه المصارفات عائدة ولاشك الى سوريا فقط فاذا جمعنا هذه المصارفات مع ما ذكرناه من الواردات السنوية يمكننا الحصول على ميزانية الشام الحقيقية وارداتها السنوية التي يمكننا تقديرها باثني عشر مليون دينار واذا اعتبرنا الدينار عشرة او خمسة عشر درهماً تبلغ هذه الواردات (١٢٠ — ١٨٠) مليون درهم

اذا نظرنا الى ما فصلناه عن شرائط سوريا الزراعية منذ دخول العرب يمكننا ان نقول انها كانت بزمنهم احسن مما كانت عليه زمن البيزانطيين تحت اصول القولوناد . وكان للعدل الذي عاملت العرب به فلاحي سوريا

(٩٩) تحفة الشام للبصري صحيفة ٩

تأثيراً حسناً على مجرى حياة سوريا الاقتصادية وانما غيرتهم سهولة الفتوحات وفوائدها الجمة فقللوا الاهتمام بالشرائط الادارية كما كثر اتساع الحدود الخارجية . وهكذا نرى ان سطوة المركز تتناقص بالتتابع بحيث تولد باكثر اطراف المملكة اصحاب النفوذ الذين هم يفتشون عَلَى تاج او عَلَى ثروة كافية لتأمين منافعهم الشخصية وهكذا ظهرت بتاريخ الدرب الاقتصادي بسوريا تلك الكلمة التي تجمع بالحقيقة اهم سبب ظاهر لانحطاط الادارة العربية السورية وتزعزع مركزها اعني :

« اصحاب الاطراف »

لقد رأينا ان من جملة ما اوجب وجود هؤلاء سعة حدود المملكة ويجب ان نزيد على ذلك قصر بصر بعض الخلفاء الذين كانوا هم المسؤولون عن دفة ذلك الملك الواسع فعوضاً عن ان يتشبهوا باولئك العظماء الذين اسسوا المجد بدمائهم ابتدأوا ان يمضوا اكثر ايامهم بالطرب والرفاهية والنعيم مفوضين الامر لاكثر العمال المعروفين بسوء استعمال وظائفهم حيث الشعب عَلَى دين امرائه ، ولما قلت واردات المملكة وساء النظام نظراً لعدم دفع اصحاب الاطراف ما عليهم (١٠٠) وعدم قدرة الخليفة عَلَى اجبارهم الى ذلك اضطر هذا الاخير بزمن المقتدر بالله الى اعطاء اراض زراعية للعساكر

(١٠٠) Einnahmebuget des abbassiden Reiches Von Kremer P. 295

والقواد عوضاً عن معاشاتهم التي لم يكن قادراً على دفعها وهذه البدعة التي تكررت فيما بعد كانت من اهم الاسباب التي اخرت بالمملكة العربية وخصوصاً بحالة البلاد الزراعية التي كانت تحت سلطتها حيث ان كثيراً من الزراع الماهرين اضطروا اما الى ترك ديارهم وحقولهم لاصحاب الاملاك الجديدة واما الى البقاء بامرهم وتحت نفوذهم ولم يكن هناك من يحمي الفلاح من الظلم لضعف الخليفة ومحيطه (١٠١)

وهذه القاعدة جمعت الى مضرات اصحاب الاطراف مضرات اصحاب الاقطاع ويمكن تصور الحالة الزراعية بسوريا وغيرها حينئذ وهذه الاحداث بقيت حتى الحروب الصليبية واخذت فيما بعد شكل النفوذ القديم تحت سلطة الاتراك والصليبيين كما سنراه في محله .

كثيراً من الزراع كان خوفاً من الاضطهاد اواذا لم يرى نفسه قادراً على محافظة ارضه كان يطلب حماية احد اصحاب الاطراف فيدفع له ضرائب معينة بينما هو لا يدفع للحكومة الاجزءاً زهيداً منها وقد شارك بهذه الاصول الجديدة الخليفة نفسه واقاربه لاسيما حين ضعفت قدرتهم وقل نفوذهم ولم يكونوا امينين على السلطة فلئلا يبقوا بعد عزلهم منها بلا ثروة كانوا يجتهدون اثناء سلطتهم في جمع قسم من الاراضي تحت اسم (ضياع الخاصة) وكان هناك قسم يدعى بضياع العباسية يعود لاقارب السلطان ثم ضياع تختص

(١٠١) Einnahmebudget p. 237

بموظفي عمال السلطنة الملكيين وهي قليلة الضرائب ويمكننا ان نأخذ فكرة عن اتساع هذه الضياع اذا علمنا ان احدهم اراد دفع ٣٠٠٠٠٠ دينار لتخلص ارضه من المصادرة التي كانت تتهددها (١٠٢) ويدلنا على استثناء هذه الضياع من الضرائب وجود (ديوان الخراج) تجمع بواسطته الضرائب من عراء الفلاحين ثم (ديوان الضياع) وهو مختص بجمع الضرائب من كبار المملكة كما ذكرنا اي اصحاب الضياع ونرى ذلك واضحاً حين تدقيق ميزانية العباسيين لسنة ٣٠٦ للهجرة التي حررها وزير المقتدر المدعو علي بن عيسى.

وابن الاثير يذكر ان طبقة الملاك وعددهم ٣٣٠٠ شخص في سوريا ومصر لم يدفعوا شيئاً من العائدات زمن المقتدر بالله مما يثبت ان كل عبء الضرائب كان على عاتق الفلاح السوري البسيط (١٠٣) ولا عجب اذا رأينا ان ميزانية المقتدر كان نقصها يبلغ مليون وثمانمائة الف دينار وقد تأخرت في بداية القرن الحادي عشر واردات سوريا ولم تبلغ بزمن ابن حمدان صاحب كتاب (هيئة اشكال الارض) ما يوازي مليون دينار (١٠٤).

تكلمنا حتى الآن عن تأثير فتوحات العرب على الزراعة السورية ولندقق الآن حالة التجارة بتلك الازمنة المذكورة اي منذ دخل العرب سوريا الى حروب الصليبيين :

(١٠٢) Einnahmebudget p. 293

(١٠٣) ابن الاثير ج ٦ صحيفه ٢٢٥

(١٠٤) ابن حمدان صحيفه ٣٧

من المعلوم ان محمداً صلى الله عليه وسلم كان قبل نبوته يسافر الى الشام في تجارة زوجته خديجة رضي الله عنها فهذا يدلنا اولاً على علاقة سوريا التجارية مع الحجاز وثانياً على ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن اصلاً ضد هذه الطريقة الاقتصاديه بل ربما حبذها كما يظهر ذلك من كثير من اقواله وتشويقاته للسفر الذى يساعد التجارة والقرآن يساعد التجارة اثناء اداء فريضة الحج ، هذا مع عدم نسيانه اهمية الزراعة الاقتصادية كما ذكرنا ذلك في ابتداء البحث السابق وقد سئل ابو هريرة ما المروءة فقال تقوى الله واصلاح الطبيعة. ومن الامثال العربية : « القوم باسد الضباع » (١٠٥) ولالم يخف على نظر العرب اهمية بلادهم الجغرافية بين آسيا واوربا وافريقيا سعوا في الاستفادة من ذلك من طريق التجارة وساعدهم على هذا المسعى النهضة التي نالتها التجارة بعد فتوحاتهم التي وحدت كثيراً من الشعوب بالدين وقسماً باللغة وعمومهم بالادارة سوية ولا يخفى مالذلك من الاهمية بتوسيع المناسبات باتساع التجارة وتسهيل النقل بين تلك البلاد التي كانت بزمن البيزانطيين والفرس بحروب دائمة مع بعضها هذا عدا عن فوائد توحيد قبائل العرب وربطها بنظام مدني يسهل للتجار التفاهم والمرور من اراضيهم وقداسس عمر رضي الله عنه البصرة لتسهيل التجارة بين حلب وآسيا المتوسطة وكابول .

(١٠٥) كتاب الفلاحه لابي بكر بن وحشيه صحيفه ٢٠

يمكننا ان نقول انه منذ زمن الفينيقيين لم تر التجارة السورية دوراً يشابه الزمن الذي اعقب فتوح الشام من طرف العرب دون ان ننسى ما كان لسوريا بزمن البيزانطيين من الاهمية التجارية مع الغرب والتاريخ يذكر لنا بان كثيراً منهم كان يسكن في (ناربون — Narbon ne) و (بوردو — Bordeau) و (اورليان — Orlean) . وكان لهم بهذه البلاد نفوذ مهم بحيث ان احدهم انتخب رئيساً للكهنة عن بلدة باريز . وكان قسم من المصنوعات السورية كاكياس لصر الدراهم وكذا خمر غزة مشهوران باوربا (١٠٦) وكان السوريون بنوك امراء الغرب وينافسون اليهود بهذه المهنة (١٠٧) ولكن بعد فتوحات العرب اتسعت التجارة خصوصاً نحو البلاد الشرقية وروسيا والبلاد الشمالية وشمال افريقيا وكانت البضائع السورية تذهب الى روسيا بامارة بارمينيا و (دربند) على ساحل بحر القلزم ومن هناك كانت تركب السفن حتى بلدة (ايات) بمدخل نهر الولغا وتتسع بواسطة السكان الى الجهات الشمالية وتبلغ حتى فنلانده واسوج ونروج وجزيرة ايزلاندا (١٠٨) وكان هناك طريق آخر يتجه نحو الصين والهند وطريق يذهب عن مصر الى جنوب افريقيا للاتيان من هناك بالمعادن

«١٠٦» Heyd Tom l p. 23
«١٠٧» Noel Histoire du Monde tom l p, 125
«١٠٨» Yocobe Nordische - Baltische Handel der araber 1887 p, 25

خصوصاً الذهب (١٠٩) واستناداً على النقود العربية التي وجدت اخيراً في روسيا والبلاد الشمالية نعلم الآن الخط الذي كانت تذهب عليه البضائع العربية الى تلك البلاد ومما يظهر اهمية تلك التجارة ان الدراهم الموجودة تصادفاً في تلك البلاد يبلغ عددها مليون درهم (١١٠) ولكن لا يجب ان ننسى ان تلك الدراهم لم تكن منشأها سوريا فقط بل كانت بغداد ايضاً ترسل منها قسماً مهماً ولكن لما لم نجد في الكنوز التي وجد بها دراهم عباسية الا ومعها الدراهم الاموية ظهر لنا ان كلاً منها كان له دور بتلك النواحي ونحن نعلم مما سبق من الابحاث ان سوريا كان لها علاقات تجارية مع بلاد القفقاس وارمينيا الكبيرة منذ ازمنة الفينيقيين ولا يبعد ان تكون هذه العلاقة التجارية توسعت بسهولة عن طريق الولغا وبدعى حينئذ نهر (ايلت) انه من هناك اتصلت بالبلاد الشمالية ومع الاسف لا يمكننا ان نعين بصورة قطعية قيمة البضائع التي كانت تذهب الى تلك الضواحي ولكن ليس هناك شك بان قسماً مهماً منها كان آتياً من سوريا وخصوصاً الشام (١١١) واوضح لنا ابن حوقل ايضاحاً مهماً عن هذه التجارة بان قال « كانت دربند على ساحل بحر القلزم مخرجاً للبضائع العربية الذاهبة الى بلاد البلغار (اسم الشعب الساكن باطراف الولغا) والصقالبة (الروس) » واذا وضعنا خريطة روسيا

«١٠٩» Babelon Commerce des arabes p, 2
(١١٠) Yacobe p, 27
«١١١» Babelon p, 15

امام اعيننا نري ان البضائع العربية كانت بعد مرورها من (ايلت) علَى مدخل الولغا تمر على بلدة (سامرا Samera) ثم (سمبرسك Simbersk) حيث يوجد بها حتي يومنا هذا آثار جامع عتيق . والدراهم العربية التي وجدت سنة ١٨٤٠ في بلدة (قازان – Kasan) تثبت لنا ان البضائع العربية كانت تمر عن هذه البلدة واقدم تلك الدراهم وجد تاريخه سنة ١٠٣ للهجرة ثم يذهب الخط التجاري نحو (ولادمير – Wladmir) حيث وجدت دراهم عربية اموية بتاريخ ٨٠ للهجرة وهناك دراهم عربية تثبت لنا بان بلدة (موسكو – Muscou) كانت على الطريق المذكور وقد وجد ايضاً في بلدة (سمولنسك – Smolinsk) نقود من ضرب الامويين.

وبعد بلدة (بسقوو – Pskov) علَى مقربة من بحر البلطيق والتي وجد بها ايضاً نقود اموية وعباسية كان يتشعب الخط التجاري حيث يذهب منه خط نحو بترسبورغ وآخر نحو بولونيا والمانيا ومما يدل علَى العلاقة التجارية التي كانت لالمانيا القديمة مع سورية وجود نقود عربية متعددة با كثر اطراف مكلنبورغ وقد ظن الباحثون في بداية الامر ان تلك النقود اُتي بها من الشرق ايام الحروب الصليبية ولكن هذه الدراهم القديمة (كان ضربها ايام الامويين والعباسيين) ولم تكن زمن الصليبيين متداولة في الشرق بحيث يمكن الصليبيون وجودها بهذه الكثرة ثم تكرر وجود هذه النقود خصوصاً في المحال الواقعة علَى الخطوط التجارية الطبيعية كمجري الانهر

او النقاط التجارية المهمة كل ذلك يدلنا على ان التجارة العربية القديمة مع تلك البلاد هي التي كانت سبب وجود هذه النقود في تلك الاقطار البعيدة نظراً لاحتياج هذه البلاد الى بضائع سوريا المنسوجة ومحصولاتها الزراعية ودراهمها للتداول والتزين بها .

وقد وجدت خارج مكانبورغ و باطرف (پوزن Posen) و(شلزو يق هولستاين) ايضاً دراهم عربية (١١٢)، مما يظهر ان تلك العلاقات الاقتصادية لم تكن محصورة على ولاية مكانبورغ ومما يجلب النظر ان جنوب المانيا خالية من هذه النقود العربية القديمة بخلاف اطرافها الشمالية وكذا لم تصادف هذه الدراهم في سويسرا ولا في فرنسا مما يدل على ان العلائق التجارية العربية كانت بذلك الزمن مقطوعة عن هذه الضواحي وانما من المحتمل ايضاً ان تكون المبادلات التجارية جرت مع اولئك الاقوام « المتعصبة بذلك الزمن » بواسطة المبادلة العينية عوضاً عن الدراهم المكتوب عليها الآيات القرآنية وكلمة الشهادة مع عداوة البابا للبلاد الاسلامية وتحريض متبعيه على عدم محافظة تلك الدراهم الاسلامية وقد علل ذلك احد الباحثين بان هذه البلاد كانت بزمن التجارة العربية بدرجة من التمدن تمكنهم من اذابة تلك المسكوكات التي بنظرهم آتية من بلاد الكفر بينما البلاد الشمالية والالمانيه والاسقانديناوية لم تكن حينئذ بدرجة من التمدن تمكنها من ذلك

«١١٢» Yacobe paeg 32

ومما يظهر الدور العظيم الذي لعبته البضائع والنقود العربية بتلك الازمنة ذهاب دراهمها حتى الى اقفر نقطة من البلاد الشمالية كما ذكرنا ذلك عن ايرلاندا وقد تكرر وجود الدراهم العربيه في بلاد اسوج ونروج منذ ابتداء القرن التاسع عشر وقد درست اساسيا هذه النقود من طرف احد الباحثين الاسوجيين المدعو «طورنبرغ» ومعرض استقهولم اغني المعارض الاوربيه بالنقود العباسيه والاموية .

لقد تكلمنا حتى الآن عن « خطوط تجاريه » ولم نقل ان العرب كانت تسلك هذه الطرق والباحث الالماني يعقوب يظن بان التجار من العرب لم يتجاوزوا بانفسهم بلدة « براغ — Prague » في بوهيميا التى كانت بتلك الازمنة مجمعا لاكثر تجار المسكونة وان البضائع العربية انتشرت من هناك بواسطة التجار المحليين وخصوصا النورمان الذين يسميهم المدققون الاختصاصيون « فينيقيين الشمال » لممالكهم التجارية ومن المحتمل ان التجار من العرب كانت تأتي الى « كيف » ومن هناك الى براغ وانها كانت ترجع من براغ عن بلدة قازان ونهر الولغا الى اوطانها (١١٣)

اما اذا دققنا البضائع التي كانت ترسل من البلاد السورية والعراقية الى تلك البلاد فانا نجد انها كانت قبل كل شيء عبارة عن انسجة قطنية

(١١٣) Yacob 122

وحريرية لسد احتياج سكان الشمال الذين كانوا متأخرين في المدنية عن البلاد العربية وكان يرسل ايضاً الحبال السورية واخيراً الفواكه والخمر ولاشك ان الخمر كان يرسل من طرف و بواسطة تجار اليهود الذين كانوا موجودين في اكثر المدن العربية ونرى ذلك من ارسال شارلمان الكبير اسحاق اليهودي كترجمان للبعثة التي ارسلها الى هرون الرشيد · والى يومنا هذا توجد في بلدة دانزيغ على بحر البلطيق كنيسة اسمها (Marienkirche) لم تزل محفوظ بها ستور حريرية فاخرة مزينة بالاحرف العربية وهي شاهدة بما كان لهذه التجارة في تلك الازمنة من الاهمية ويمكننا ان نستدل على اتساع تجارة الخضر والفواكه العربية في تلك البلاد اذا دققنا بان اسم الخيار باللغة الروسية والبولونيه والالمانيه والدانويه والاسوجيه مشتقة من كلمة « عجور » العربية حيث كان هذا النوع يرسل من اطراف سوريا ومصر (١١٤) واسم البردقان (Orange) المنتشر في اكثر البلاد الغربية مشتقة من الكلمة العربية الفارسية « نارنج » وكذا اسم الدراقن بالالمانية له علاقة شرقية ومن مصدر عربي ونعلم مما سيأتي ان دراقن الشام كان مشهوراً بالبلاد الغربية ولا شك ان قسماً منه كان يذهب الى تلك البلاد وكذا اسم الحبل « Cable » مشتق من العربية كما لاحظ ذلك البارون كرومر وكانت البلاد العربية وسوريا ترسل عدا عن ماذكرنا من البضائع

(١١٤) Yacob 11

كثيراً من ادوات الزينة كالمرايا المعدنية التي اشتهرت فلسطين بصناعتها بتلك الازمنة (١١٥) ثم الخرز الزجاجي التي كانت تزين بها سكان تلك البلاد نسائهم او تستعملها للمبادلة في البضائع ونعلم ان قسماً مهماً من تلك الانتاجات الزجاجية الذاهبه الى الشمال مصدرها صور واخيراً كان يذهب الى هناك عن طريق سوريا والعراق قسم من البضائع الهندية كالبهارات والعطورات ٠

تكلمنا حتى الآن عما كانت تصدره البلاد العربيـة خصوصاً سوريا الى تلك الانحاء ولندقق الآن البضائع التي كانت تأتي بها التجار من هناك الى البلاد العربية ٠

قبل كل شيء يجب ان نذكر الفرو الذي كان مألوفاً بتلك الازمنة في اطراف البلاد السورية خصوصاً فرو السمور الاسود والثعالب السود (١١٦) ثم فرو السنجاب والوشق والفنق (١١٧) وكذا فرو كلب الماء والارانب الملونة والبقر (١١٨) ٠

وكانت القوافل الآتية من بلاد البلغار والروس تأتي بطريقهـا من ارمينيا الى سوريا بالبغال الجياد الموصوفة بالصحـة والنجابه (١١٩) وكان

---

(١١٥) مقدسي صحيفه ١٨٠ ٠
(١١٦) ابن حوقل صحيفه ٢٨٢
(١١٧) يعقوبي صحيفه ٥٥
(١١٨) مقدسي صحيفه ٣٢٥
(١١٩) ابن حوقل (٢٤٨) ابن الفقيه صحيفه ٥٠

عسل بلاد البلغار المذكورة مرغوباً جداً في سوريا ومصر . ويقوم بمقام السكر بيومنا هذا وكان يفضل شرابه بالقاهرة على الخمر البابلي (١٢٠) .

لقد رأينا حتى الآن اهمية العلاقات التجارية التي كانت للبلاد العربية عموماً ولسوريا خصوصاً مع تلك البلاد الاوربية الشرقية والشمالية ولنلفت الآن نظرنا نحو غرب اوربا وجنوبها لنتم هذا البحث .

بعد العلاقات التجارية التي ذكرناها مع بلاد البلغار والصقالبة كانت تلعب بيزانس في حياة سوريا التجارية اهمية تستحق الذكر ولكن ذلك لم يبتدئ الا بعد سنة ٣٠٠ للهجرة وقبل ذلك كانت بيزانس لا تترك وسيلة تكون عثرة امام هذه العلاقات التجارية وذلك اما بالغزو بواسطة اسطول اعدته للقرصان لهذه المهنة المذمومة او بوضع مكوس ثقيلة على البضائع الداخلة الى بلاد العرب من بلدة طربزون على ساحل البحر الاسود وكانت واردات بيزانس من المكوس على البضائع الآتية من سوريا تساوي ٣٠٠٠٠ دينار عدا عن الهدايا التي يجب تقديمها الى الموظفين بهذه الضرائب وبطرابزون كان يؤخذ عشر القماش الخارج منها (١٢١) طبعاً عدا عن الهدايا الخاصة التي يجب كما رأينا تقديمها الى مأموري المكوس واذا دققنا البضائع التي كانت تدخل من بيزانس الى سوريا و بلاد العرب فنرى

---

(١٢٠) ابن الفقيه صحيفه ٦٦

[١٢١] ابن حوقل صحيفه ١٣٢

انها كانت الديباج وثياب الكتان الرومي والصوف وكثيراً من الاكسية الروميه وكل ذلك عن طريق طربزون . اما عن ساحل البحر المتوسط فلم تكن الحالة كما يرام بل كما رأينا غزو مراكب البيزانطيين اضر بالتجارة البحرية وكانوا لايكتفون بالهجوم على السفن العربية بل ينزلون قرصاناً الى بعض السواحل المهمة فيغزونها او ينهبون سكانها او بضائعهم والمسلمون يقابلونهم بالمثل ونرى ان بلدة (اللامس) عَلَى مقربة من طرسوس كانت مرقعاً معيناً لتبادل الاسرى من الطرفين مما يدل عَلَى سعة وتكرر هذه القرصنة .

ومن جهة اخرى كان البيزانطيين يظهرون العداوة لسكان سوريا من العرب السوريين لاتفاقهم مع البابا في احباط التجارة العربية السورية (١٢٢)

وقد ظفرنا باوراق تاريخها يرجع الى سني ٨١٤ — ٨٢٠ الميلاد تثبت اثباتاً صريحاً نيات اكثر سكان اوربا الغربية والجنوبية نحو العرب والاسلام وفيها منشور من البابا صورته :

«بما ان الاراضي المقدسة وقعت بايدي الكفار (المسلمين) اقترح الامبراطور المظفر لئون « الارمني » وابنه اصدار قرار بمنع الذهاب الى سوريا ومصر وقد صادق عَلَى ذلك اعيان البنادقة المستقلين . »

فلا عجب اذاً بعد هذه النيات ان نرى المهمات قلت في تلك الازمنة في البحر المتوسط وان اهمية الاسكندريه سقطت لفائدة القاهرة الواقعة

(١٢٢) Huart, Histoire des arabes page 112

عَلَى الخط التجاري البري الذي قام مقام الطريق البحري وكذا قرطاجة لفائدة تونس الواقعة على نفس الطريق ومما يجلب النظر ان رسل شارلمان الى هارون الرشيد سارت من هذا الطريق مما يثبت انه لم يكن صعباً بصورة خاصة للمناقلات بين سوريا وشمال افريقيا خصوصاً بمناسبة قوافل الحج التي كانت تسير عليه من الاندلس ومراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب وانما يجب ان نلاحظ ان هذا القرار البابوي القائل بمنع التجارة مع الشرق لم يكن له حظ وافر من التطبيق بالفعل حيث ان البنادقة مثلاً لم تتأخر عن الذهاب سراً الى مصر وسوريا وبيعهما كثيراً من الاسلحة والمماليك (١٢٣)

اما العلاقات التجارية مع الصين فكانت زاهرة بناء عَلَى اتساع نفوذ العرب في تلك الانحاء وخصوصاً لعدم تعصب اولئك السكان امام الدين الاسلامي وكان كثير من بضائعها يأتي عن طريق عدن التي كانت بنفس الزمن قاعدة سوريا ومصر عَلَى البحر المحيط الهندي ومجمعاً للبضائع وقد رأينا اهمية هذا الخط التجاري الذي يذهب بين سوريا والحجاز فمان حين ذكرنا ان قيمة قافلة واحدة ذهبت بآخر زمن البيزانطيين من غزة متجهة نحو مكة بلغت قيمة محمولها ٥٠٠٠٠ مثقال ذهباً او نصف مليون من الفرنكات (١٢٤) وكان يأتي من الحبشة عن طريق مصر الى سوريا

(١٢٣) Heyd Bd 1 page 122/123
(١٢٤) V. Kremer Bd 1 page 25

والشرق كما ذكرنا المعادن الثمينه « الذهب » والحديد .

ولم يكن طريق عدن الواسطة الوحيدة بين سوريا والهند بل ان بضائع الشام كانت تأتي من طريق الفرات عن مدينة « بالس » التي سماها ابن حوقل « ام مدن الشام » (١٢٥) ومما يبين لنا اهمية هذه القاعدة التجارية ان ابن حمدان ضبط بها بزمن ابن حوقل من الزيت والبز « قماش » مايساوي مليون دينار وكانت تأتي البضائع الهنديه عن طريق البر من بغداد الى الشام

ولنرجع الآن الى ذكر علاقات سوريا التجاريه مع بيزانس التي اخذت بعد القرن العاشر اهمية زائدة وقد تبدلت بذلك الزمن علاقات سوريا مع بيزانس وعلمت هذه الاخيرة الفوائد المادية التي يمكنها تأمينها بهذه البلاد اذا احسنت علائقها معهم وهكذا نراها تبطل الاسر الذي كان عَلَى البواخر الذاهبة الى ثغور سوريا وذلك سنة ٩٢١ للميلاد ومن جملة شرائط معاهدة عقدت بين بيزانس وامراء حلب سنة ١٠٣٠ للميلاد كان طلب الاتجار وتأمين عدم التعدي عَلَى القوافل البيزنطية الداخلي بالبضائع الى تلك البلاد حيث انه اذا سلبت يغرم امراء حلب لأصحابها ما سلب منهم ونعلم من تلك المعاهدة ان البضائع التي كانت تسير بين حلب و بيزانس هي : الذهب والفضة والعاج والديباج الرومي والقز الغير مصنوع والاحجار الثمينة والجواهر واللؤلؤ والسندس والكتان او المزبون ثم البهائم وغير ذلك

---

[١٢٥] ابن حوقل صحيفه ١١٩

(١٢٦) وقد ابطل الواثق بالله العشر الذي كان يؤخذ من السفن خدمة للعلاقات التجارية (١٢٧)

ومن المنشآت العربية التي ساعدت على اتساع التجارة العربية السورية بعد الفتح الاسلامي احداث البريد حيث باشر معاوية رضي الله عنه بانشائه فنظمه وحسنه فكان بسببه بناء الخانات في الطرق فسهل سير القوافل ونشر بعض الحوادث التي تتعلق بالامور الاقتصادية في الجهات التي كان يسير البريد اليها . وقد وصل البريد بزمن الوليد الى درجة من الترقي بحيث اضحى سهلاً لوصول الكتب بسرعة وانتقل المأمورين وغيرهم الى الجهات المطلوبة (١٢٨) وبعد البريد ساعد نهضة سوريا التجارية ما اسسه عبد الملك من الاصلاح بتوحيد وتحسين العملة الجارية بسوريا ويعطي (ميشود — Michaud) الزمن الذي ادخلت فيه هذه الاصلاحات لسنة ٧٦ للهجرة (١٢٩) بينما فون كريمر يؤخر ذلك سنة (اى ٧٧ للهجرة) ومن جملة الاسباب التي دفعت عبد الملك الى ضرب السكة وظيفته بالسهر على حسن المبادلات التجارية بلا غش (حيث يوظف لذلك المحتسب) وتدعى هذه الوظيفة بالحسبة وكثر الغش بالدراهم المستعملة بزمنه (١٣٠)

---

(١٢٦) تاريخ حلب لابن ابي جرده صحيفه ٤٤ (١٢٧) ابن الاثير ج ٧ صحيفه ٢٤

(١٢٨) الاغاني ج ١ صحيفه ١٤، ١٠٦

(١٢٩) Babelon p. 34

(١٣٠) College de France محاضرة الاستاذ ماسينيون 9 Dez. 1922

اما العملة التي ضربت من طرف عبد الملك فكانت نقود ذهبية وهي « الدينار » او فضة وهي « الدرهم » ثم اقسام ذلك من نحاس ولم تكن هذه اول مرة ضربت بها العملة من قبل الحكام المسلمين بل ان خالد بن الوليد مثلاً ضرب سكة قبل عبد الملك مما يظهر ان مسألة ضرب العملة لم تكن مختصة بالعاصمة بل ان للولاة صلاحية بذلك انما كانت العملة المضروبة قبل عبدالملك اما تقليداً لعملة البيزانطيين كما كان الحال في سوريا اوا لعملة الفرس في العراق وغيرها وبزمن عبدالملك اضحى ضرب العملة من جملة شعائر السلطنة ولم يكن يسمح لاحد غيرها بضربها وقد خدم بذلك عبد الملك التجارة بصورة خاصة اذا علمنا ما كان قبل ذلك من المشوش باستعمال الدراهم العربية اذ لا وثوق تام بمعرفة وزنها ولا بعيارها واختلاف قيمتها لان ذلك لم يكن مضبوطاً ولم تكن الحكومة ساهرة عَلَى حسن التعامل بها وقد امر عبد الملك بنقش جملة الشهادة وآيات قرآنية وتاريخ الضرب على العملة المضروبة. ومن الامور التي تدل عَلَى مقدرة العرب في المدنية وسهولة قبولهم المخترعات الجديدة العمرانية واتقانهم كل مايصنعونه ، صدق معيار هذه السكة الجديدة وصحة الوزن مما يندهش له اليوم ارباب الاختصاص وهكذا نرى ان كل دينار سالم وجد في المدة الاخيرة وضرب بذلك الزمن يزن تماماً ٤٫٢٥ غرام بدون نقصان ونسبة الذهب الذي به لنسبة مجموع وزن الدينار كسبعة لعشرة اي ان وزن الذهب الذي في الدينار كان ٢٫٩٥

غرام بالضبط . وقد ذكرنا فيما سبق ان نسبة الدرهم للدينار كانت في زمن عبد الملك كنسبة واحد لعشرة ونزلت هذه النسبة بعد ذلك الى واحد لخمس عشرة ثم الى ٢٥ لواحد واخيراً رجعت الى عشرين لواحد .

ومن المفيد ان نذكر ان كثيراً من الاصطلاحات التجارية المستعملة الآن في اوربا مشتقة من مصدر عربي ككلمة (Trafic) مأخوذة عن كلمة « ترافق » وذلك لاهمية الترافق بذلك العصر للذهاب سوية بالقافلة امنية ورخصاً ومن ذلك المثل العربي : « الرفيق قبل الطريق » وكذا كلمة (Ram) مأخوذة من «رسمه» و(Magasin) من «مخزن» و(Tarif) من (طرحه) .

ومما يدل على نشاط التجار السوريين والعرب ان هؤلاء كانوا يستعملون اصول الحوالة المالية منذ القرن الثامن للميلاد وذلك تحت اسم (السفتجة — Saftaga) (١٣١) وكان هناك قوانين تعين شرائط استعمالها ومجازاة من يخلف بوعد بايفاء وجائبها وكما يظهر ليست كلمة سفتجة من مصدر عربي بل انها فارسية الاصل وهذا ما يثبت لنا ان دخولها الى سوريا اتى من جهة العراق والعجم ولم تكن اصول الحوالة هناك مستحدثة حيث نعلم انهم كانوا

(١٣١) Dr. Rich. Grass hof le droit de change chez les arabes pages 8, 26, 35 et 69

هم وحتى الاشوريين يستعملونها في القرن السادس قبل الميلاد وانما بطلت بعد سقوطهم والعرب احيوها بمعاملاتهم التجارية (١٣٢)

لم يكن العرب حين دخولهم لسوريا الا قبائل بدوية تعودوا الحرب والحياة البسيطة ليس بايديهم من الصناعة ما يذكر ولم يكونوا يعرفون غير صنع الخيام ونسج بعض الملابس وحيث ان اكثر تلك الصنائع كان يقوم بها الارقاء فيمكننا ان نستدل على انفتهم من تعاطي اي صنعة كانت بعد دخولهم البلاد . ونرى ان مؤرخي العرب لا يذكرون لنا تفاصيل عن هذه الامور الاقتصادية بعكس شكلها الحاضر اذ لها اليوم المقام الاول بحياة الامم الاجتماعية والاقتصادية ولكن كما ان العربي الذي كان ساكناً بسوريا قبل فتح العرب لها لم يكن يشارك هؤلاء الفاتحين باحتقارهم للصناعة نرى ان الوارثين لهؤلاء الفاتحين قد توفرت رغباتهم بعد مدة وجيزة لها، وابتدأ بها معاوية فاسكن كثيراً من الصناع على السواحل السورية (١٣٣) وقد نشط الحركة الصناعية قبول رآسة العمال من طرف امراء الامويين كما فعل ذلك سليمان اخو الخليفة الوليد حيث كان « قيم الصناع » حين تمييز الجامع الاموي (١٣٤)، ولا شك ان كثيراً من السكان الاصليين ساعدهم الدين

(١٣٢) كان للعرب قوانين عن انواع الشركات التجارية نخص بالذكر [شركة المفاوضة] و [شركة العنان] ثم [شركة الوجوه] والمضاربة .

(١٣٣) David, Syrie Modrne page 105

(١٣٤) تحفة الشام للبصري صحيفه ١٦

الاسلامي على محبة الصناعة وبيان اهميتها وازال من قلوب البدو ما كانوا يتوهمونه من احتقار الصنائع التي بها قوام المدنية والزراعة التي هي اصل الحياة . ومع ذلك لم يقبل العرب الا بعض الصناعات التي كانوا يعتبروها لائقة وغير مخفضة لقيمة الصانع او مغايرة للدين الاسلامي فالدباغة مثلاً لم ترق لنظرهم لاستعمال مواد لها غير نظيفة والصرافة لم تكن مما يرخص به الدين الذي يمنع الربا وكذا الصياغة كانت مخالفة لقواعد الدين الآمر بعدم التحلي وهكذا نرى ان الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين كانوا يهوداً في سوريا بالزمن المقدس (١٣٥) اي في اواخر القرن العاشر للميلاد .

ومن ابتداء القرن التاسع للميلاد نرى ان العرب التي لم تكن تقبل من الأسماء الا ما يدل عن اصلها وحسبها ؛ ابتدأت تقبل كنى تدل على الصنعة التي يلازمونها فنشأ فيهم مثل (احمد الحداد) و (جعفر البقال) و (سعيد الغزال) وغير ذلك وهذا ثابت خصوصاً في ابتداء القرن العاشر للميلاد (١٣٦)

فسوريا كانت نظراً لاستعداد اراضيها الطبيعي وحالتها الاقتصادية مقسمة الى مناطق تختص كل منها بصناعة مهرت فيها وهكذا نرى ان فلسطين كانت مختصة بصناعة المرايا المعدنية وقدور القناديل والابر والخرز (صور) والزجاج المخروط والمعمولات والنيل والشام كانت تختص بصناعة الديباج والانسجة

(١٣٥) مقدسي صحيفة ١٨٣

(١٣٦) Hammre-Purgsta 11 L. G. 11 V 168 citè chez kremer 811

وذلك منذ فتحها الفاتحون المسلمون وقد ذكر الواقدي ان رسول ابي عبيدة بن الجراح اثار غضب عمر لانه كان لابساً «كرابيس الشام» (١٣٧) وان هذه البلدة عرضت على خالد بن الوليد الصلح مقابل دراهم ومائتين من الديبة الحرير والديباج (١٣٨) ثم يتلو ذلك صحن البنفسج والكاغد ولكن هذه الصنعة الاخيرة كانت تصنع في فلسطين ايضاً ومن الشام تعلم الاوربيون صناعة الورق المدعوة (Charta Damacena) وذلك عن طريق الاندلس ، وكانت صور مشتهرة بصناعة الزجاج وبعلبك بحياكة الاكسية ونرى الصنعة الاخيرة في حلب ايضاً . وان هذه كانت تورد الى اكثر البلاد السورية القطن اللازم لحياكة تلك الانسجة وكان صناع البلور والاقمشة السوريين ينافسون في صناعتهم صناع العراق وبيزانس وخصوصاً مصر وقد استفاد صناع الشام من وجود بعض الاحرف الرومية على الاقمشة الآتية من مصر التي صرفت الافكار بزمن عبد الملك عن لبس هذه المنسوجات لانها غير موافقة لاقامة الشعائر الدينية ، وكانت قبرص التي وقعت بيد البيزانطيين منذ سنة ٩٥٠ للميلاد تنافس صنائع بيروت الحريرية (١٣٩) .

والظاهر ان صنف الخياطين السوريين كانوا من الشيعة الآتين من

(١٣٧) فتوح مصر للواقدي
(١٣٨) David Syrie modrne page 6
(١٣٩) ابن حوقل صحيفة ١٣٧

العراق او الروم من بيزانس نظراً لاعتنائهم بحسن الهندام و كثرة اسرافهم على ذلك بعكس المسلمين المتزهدين وامراء الامويين الذين كانوا يقلدون عظماء بيزانس غيروا الحالة نوعاً ما وحتى زادوا على ما كانت عليه امراء البيزانطيين من الاسراف وهكذا نرى ان الوليد كان يغير اثوابه بالنهار الواحد عدة مرار وكانت هذه الامراء تلبس ثياباً حريرية (صفراء) وقلنسوة مطرزة ولم تخل هذه الحياة من التأثير على عظماء المملكة وهكذا كانوا يأتون بالخياطين الغرباء لتأمين هذا الاحتياج . وهناك صناعة الفولاذ والاسلحة الشامية التي ذكرنا تأسيسها زمن الرومان فقد اخذت بزمن العرب اهمية خاصة ونرى ان الخناجر المصنوعة بها كانت تذهب في القرن العاشر حتى الى جزر (ياوا — Yava) بالمحيط الهندي (١٤٠) واذا نظرنا الى وجود قصب السكر باطراف بيروت وطرابلس (١٤١) في القرن العاشر وان العرب هم الذين علموا صناعة السكر الى البلاد المجاورة يمكننا ان نستدل على وجود هذه الصناعة في اكثر تلك الاطراف الساحلية .

واخيراً كانت العرب في سوريا عارفة بصنعة المينا الحسنة ومن سوريا انتقلت هذه الصنعة بواسطة عرب الاندلس نحو اوروبا وكانت هذه الصناعة وصناعة غدير الممروج والصيني زاهرة في اوروبا في القرن العاشر للميلاد (١٤٢)

(١٤٠) Stampord Raffles Histoire of Java Tom I p. 172
(١٤١) اصطخري صحيفة ٦١
[١٤٢] S. Franchte, P. 1

الباب الثالث

حالة سوريا الاقتصادية منذ الحروب الصليبية حتى اكتشاف طريق الهند البحري

— (٢) — ..

الشرق والغرب عالمان مختلفان بعاداتهما الطبيعية والتاريخية وعلاقاتهما الودية والعدائيـة هي من اهم الحوادث التي اثرت على تاريخ البشر منذ آلاف من السنين ولذلك نرى بسبب هذا الاختلاف ان كلاً منهما يسعى للمحافظة على شخصه وعلى حقوقه من ان يتناولهـا غيره بظلم فاذا وجد من غيره مايدل على انه يريد استعباده او هضم شيء من حقوقه استعد لمقاومته وانعكس الامر واذا لم تساعده الظروف في ذلك الحين اضمر الأمر للمستقبل وانه لابد وان يظهر ماصمم لحيز الفعل والعمل ولو مضى على ذلك قرون .

فالفرس الذين كانوا اصحاب المدنية الشرقية بزمنهم هاجموا بلاد اليونان اصحاب المدنية الغربية في ذلك الزمن فجاوبتهم على ذلك فتوحات اسكندر الكبير ثم جنود الرومان على سواحل الفرات ومن هذه الافاعيل الاخيرة تولدت نهضة العرب العظيمة التي لم تكن فقط مستندة على دين جديد هو

حاصل عن فكر الشرق واحساسه بل على استعداد اكثر اولئك الشرقيين العائشين تحت ظلم الرومان الى النهضة معهم وهل نرجو اثباتاً اكثر من فتوحات العرب بتلك السرعة المهولة خصوصاً في البلاد التي كانت تابعة فيما سبق للبيزانطيين والرومان ؟ وكذا دخول العرب الى فرانسا وتجاوزهم جبال البيرەنه احدث بالغرب عكس ذلك التأثير الذي تولد في الماضي في قلوب العرب فنهض الغرب لمقاومتهم تحت قيادة شارل مارتل ثم بالحروب الصليبية التي هي بالحقيقة حلقة من هذه السلسلة التاريخية التي ولد دورها حركة الاتراك وتقدمهم حتى اسوار ويانه ٠

ولندقق الآن تأثير الحروب الصليبية على بلاد سوريا من الوجهة الاقتصادية :

لقد رأينا ان ادارة العرب المركزية تزعزعت بالمدة الاخيرة بضعف سياسة رؤسائها التي كانت يومئذ من اهم اسس شوكتها وعظمتها وتكاسلنا عن أصحاب الاطراف (١٤٣) واختلال الميزانية المالية زمن العباسيين زد على ذلك هنا ذكر وجود العساكر التركيـة والتترية وازدياد نفوذهم بادارة المملكة العربيـة والجدال الدائم بين المركز والحكام الساعين الى الاستقلال (١٤٤) وانين الشعب تحت عبء الضرائب التي كانت على عاتق

---

[١٤٣] انظر عن ذلك نزهة الناظرين لمرعي بن يوسف الحنبلي

[١٤٤] ابن خلدون ج ٧ صحيفه ١٧٦ ، ١٧٧

الزراع الصغار خصوصاً فانها بلا شك اضرت بحياة سوريا الاقتصادية .
هذا اذا صرفنا النظر عن قرصنة النورمان واليونان والبنادقة ونهب السفن العربية (١٤٥) ومع ذلك نرى ان علائق سوريا التجارية لم تنقطع تماماً عن طريق الخطوط البرية لوضعها الجغرافي الممتاز خصوصاً تحت ادارة الفاطميين الذين جمعوا تحت ادارتهم اكثر بلاد شمال افريقيا وآسيا وكان لهم بزمن المستنصر مساعدات مهمة للتجار الغرباء في القدس وغيرها وكذلك الى الحجاج المسيحيين الذين يزورون فلسطين (١٤٦) وابقى لهم المستشفيات التي كانت لهم والتي انشئت منذ حارب شارلمان الكبير فيها .

ومن الثابت ان بلدة (امالفي – Amalfi) الواقعة جنوب بلدة (نابل – Naple) كانت بعلاقة تجارية مع سوريا كما كانت عليه ايضاً البنادقة سراً ويوضح لنا ذلك بعض الاشعار الباقية من ذلك الزمن مثلاً :

« ... وقد نقل الى بلدة « امالفي » من اسكندرون وانطاكية كثيراً من البضائع ويتعرف المرء هناك بالعرب والطرابلسيين وسكان صقلية وسكان هذه البلدة هم معروفون عند اكثر سكان البسيطة حيث يذهبون ببضائعهم ويأتون بعوضها ... »

ونرى ان وفود الحجاج المسيحيين كانت كبيرة قبل الحروب الصليبية

(١٤٥) Schra Ub Handelsgeschichte der rômichen Vólker p. v
(١٤٦) Heryd Tom l page 116

وهكذا اتت اليها سنة ١٠٠٠ للميلاد تحت ادارة البشرف (زيغفريد — Siegfried) قافلة يزيد عددها عن الف وستين سائحاً كما ان سنة ١٠٦٥ زار السواحل السورية كثير من السفن عائدة للجنويزيين وعرضت باكثر تلك السواحل بضائعها للبيع واشترت منها ما تحتاجه (١٤٧)

لقد رأينا ان تجارة سوريا ابتدأت منذ القرن العاشر والحادي عشر ان تتوسع نحو الغرب خصوصاً مع الجمهوريات الايطالية ولكن التوسع الحقيقي مع تلك البلاد بدأ كما سنرى بعد الحروب الصليبية واذا دققنا صحائف تاريخ الحروب الصليبية يتضح لنا بان هذه الحركة لم تكن اصلاً حركة دينية صرفة وان هذه المنافع الدنيوية اي التجارية لعبت دوراً مهماً بهذه الحروب الدينية فالبنادقة والجنويزيين وسكان (پيزا — Pisa) لم يطالبوا فقط مقابل معاونتهم للصليبيين ارضاً لبناء كنيسة بالاراضي السورية بل (بسوق المبايعة) و (بيت لخزن البضائع — Fondaco) وهكذا اضحت سوريا بزمنهم معرضاً لحركة هؤلاء الاجانب الاقتصادية بينما كانت هي بزمن الفينيقيين والعرب تؤسس مستعمرات باكثر اطراف البحر المتوسط وجزره وهذه الحالة جديدة بحياة سوريا السياسية والاقتصادية يجب ملاحظتها .

يمكننا تقسيم الامم التي اتت الى سوريا بسبب الحروب الصليبية الى قسمين . تلك التي اتت بسائق التعصب الديني او التخلص من استبداد

(١٤٧) Schraub page 65

سلطة الامراء والضرائب وقسم كالبنادقة والجنويزيين وسكان بيزا من الامم الجديدة بنهضتها الاقتصادية ارادت الاستفادة من هذه الحركة لتوسيع دائرة مبادلاتها التجارية في الشرق وخصوصاً سوريا التي هي ممر البضائع الهندية منذ الازمنة القديمة ومخزن لاكثر البهارات التي كانت تباع بربح عظيم في اوربا لاستحضار الادوية الطبية وغيرها منها ، ولاشك ان قسماً مهماً من هؤلاء الجنود المتجهون نحو الشرق كان في نيته خلاف الخدمة الدينية الاستحواذ على قسم من ثروة الشرق المشهورة حيث كما قال غوستاف لوبون في كتابه المشهور (psychologie des foules) بان الجموع لاتسمع الاصوت غرائزها الطبيعية وسنرى صحة ذلك اثناء ذكر غزوات الاراضي السورية .

واذا نظرنا الى ان الحروب الصليبية دامت مايقارب عصرين (١٠٩٥ – ١٢٦٤) بصرف النظر عن المخاصمات التي دامت بعد ذلك كما سترى وانه هلك بهذه الحروب ما يقارب ملايين من البشر (١٤٨) يمكننا ان نفهم عظمة هذه الحركة وتأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية في البلاد السورية والاوروبية .

لما اتى الصليبيون الى سوريا سنة ١٠٩٤ كانت هذه البلاد تحت ادارة السلجوقيين وهم اخذوها من الفاطميين سنة ١٠٧٨ للميلاد والسلجوقيون اصلهم

(١٤٨) تحف الزهور ليوحنا مكاريوس صحيفه ١٥٦

من القبائل التركية التي اسست سنة ١٠٣٧ دولة اسلامية عظيمة تمتد حدودها حتى نواحي القسطنطينية وحدود الصين ورغم قصر المدة التي بها بقيت سوريا بايديهم نرى انهم تركوا في حياة سوريا الاجتماعية اثراً كان له تأثير كبير على حالة البلاد الاقتصادية وذلك بتقسيمهم سوريا اقطاعاً على اصول « الزعامة — Systhéme feodale » (١٤٩) بين امراء امرتهم ومريديهم وذلك هو الذي سهل للصليبية ادخال اصولهم الفوئدالي في الاراضي السورية التي دخلت تحت ادارتهم كما سنرى ذلك تفصيلاً .

واذا دققنا حالة الزراعة السورية بزمن السلجوقيين نرى ان احتقارهم للزراع وعدم تقديرهم اهمية المسائل الاقتصادية وظلمهم ادى بالزراعة السورية الى حالة اضر مما كانت عليه في السابق مع عدم نسياننا ان اصحاب الاطراف لم يكونوا اخف وطأة منهم ولكن لم يكن لاعمالهم صفة قانونية كما كان ذلك بزمن السلجوقيين حيث يقرون رسمياً بهذا الاصول الفوئدالي ويوزعون الارض اقطاعاً على من شاؤوا من اتباعهم ولم تخل دورة السلجوقيين من منافسات داخلية بين الافراد والمركز مما زاد الزراعة ضرراً بالاطراف التي كانت صحنة لهذه المنافسات (١٥٠) ومع ذلك يمكننا ان نشاهد في المحلات الممتازة من الطبيعة بحسن تربتها وكثرة مياهها رياضاً غناء واشجاراً

---

(١٤٩) Beugnot memoire page 14

(١٥٠) ابن خلدون ج ٦ صحيفه ٦٨ ، ٩٩

مثمرة يانعة كما كان الحال عليه باطراف الشام حين دخول الصليبيين اسوريا حيث كانت بموجب كتب الصليبيين القديمة :

« .... بلدة جميلة ذات رخاء وباطرافها اشجار مثمرة بجميع انواع الثمرات وتلك الاشجار متصلة باسوار المدينه .. وكان لكل شخص هناك ارض مختصة به » (١٥١)

ونرى ان الزراعة كانت ايضاً جيدة باطواف يافا وقيصريه «قيساريه» وانطاكيه ويمكن تعليل ذلك بالتملك الفردي الذي يظهر تماماً باطراف الشام ولكل الاراضي الزراعية الجيدة او الجبلية وسبب ذلك ان اصحاب الاطراف لايمكنهم المحافظة عَلَى هكذا اراضي لان الاستفادة منها كما يجب تقتضي عناية واجتهاد خاصاً لايمكن تأمينه بواسطة الزراع المضطهدين والمجبورين عَلَى خدمة السيد بدون منفعة شخصية تذكر فيضطر مالكها الى زرعها بالاشياء التي لاتقتضي اهتماماً كبيراً (كزراعة الحبوب مثلاً) والواردات التي تأتيه منها هي بالطبع اقل مما يمكن ان تعطيه مثل هذه الارض فيما لو زرعت كما يجب بالاشجار المثمرة وغيرها . وعليه يجتهد بعض اصحاب الثروات الصغيرة في اشتراء تلك الارض بثمن يفيد اصحاب الاطراف اكثر مما لو داوموا زراعة الحبوب فيها ، فيعطوها وهكذا بالتتابع حتى نرى ان تلك المحلات تحولت لايدي زراع يمكنهم المحافظة عليها نظراً لحسن الواردات وعدم او

(١٥١) Emil Dres bach der orient page 26

قلة تأثير التحولات الجوية لوفرة المياه للسقي وغيره ٠

واذا صرفنا النظر عن هذه الحالة المحصرة ببعض المحلات النادرة في سوريا نرى ان معظم ما كان بيد الامراء السلجوقيين او بيد المقربين منهم والفلاح السوري بحالة من الأمر لاتقل عن ما كان عليه الفلاح الاوربي في القرون الوسطى فلا عجب اذا رأينا ان واردات الارض السورية تقل بحيث ان اقل حادثة كقلة مياه المطر وغيرها تجعل بالبلاد خطراً هائلاً لفقدان الحبوب الاحتياطية من السنين السابقة وذلك لقلة الواردات وهي نتيجة الاهمال وعدم مشاركة الفلاح بالفوائد الناتجة من ثمرة اتعابه وهكذا نرى ان سنة ١٠٦٩ للميلاد بيع بالشام ٠

رطل الخبز وزن (٧٢٠ درهم)	١٠٠ درهم
مكوك القمح	٤٥٠٠٠ «
اللبن	٧٠٠ «
وقية العسل	٦٠٠ «
بقرة واحدة عائدة لنجم الدين مختار	٧٠٠٠٠ «

وحكى ابن الاثير في تاريخه عن عطا بك الموصلي انه قال يوماً لاتباعه « ما اجهل نوابي هؤلاء يخدمني احدهم وليس له شيء وعليه دين ، فلاتمضي سنة حتى يوفي دينه ويعمر الدور والاملاك ويرسل اليّ يطلب ان يشتري

مني قرايا ولو ان لهم عقل لوفروا الاموال واشتروا من غيري ! . . » (١٥٢)

فيمكننا ان نتصور اذاً حالة الزارع السوري اذ نهبت املاكه عَلَى هذه الصورة من طرف العمال واذا كان الامير عليهم يتهكم بهذه الفئة عوضاً عن ان يتقدم لمجازاتهم بصرامة تأميناً للتقدم الزراعي وهنا اثبات كاف لتأخر الزراعة في البلاد الاسلامية بهذا الدور خصوصاً اذا علمنا ان اكثر هؤلاء الوكلاء او الامراء هم من اقرباء الملك ومقربيه بحيث يكونوا امينين من غضبه ولهم السلطة الكافية للاستبداد عَلَى الزراع دون ملاحظة شكاياتهم التي لا تؤثر عَلَى احوالهم (١٥٣)

فعلى هذه الحالة كانت الزراعة السورية حين دخول الصليبيين اليها ولندقق الآن ما اثره دخولهم عَلَى حياة البلاد الاقتصادية .

لما اتى الصليبيون الى سوريا وسقط بالتتابع اكثر السواحل السورية وقسم من الداخل وجدوا امامهم قسماً من السكان الذين سلموا من الذبح او فضلوا البقاء عَلَى الارض عوضاً عن الغربة والفقر وكذا مساحات كبيرة من الاراضي يجب زراعتها لتعيش بها تلك الجيوش المحاربة ولتحسين حالتهم المادية فلم يتأخروا عن ادخال اصولهم الزراعي في هذه الربوع واعانهم عَلَى ذلك استعداد السوريين لقبول ذلك من تأثير الادارة السلجوقية كما

(١٥٢) ابن الاثير تاريخ عطابك الموصلي صحيفه ٣٦٣

(١٥٣) Ousama Ibn Munkidh, Innsbruek 1905 page 23

ذكرنا وكان اكثر الامراء الذين وضعوا على رؤوس الاقطاعات من اشراف الاوربيين وقواد العسكر بحيث كان لهم الصلاحية الكافية على اجبار السكان لخدمتهم ·

وقد اصدر الصليبيون قوانين تمنع كل سوري من اي ديانة كان من امتلاك ارض تخصه في كل الانحاء التي تحت ادارتهم وجعلوا اول شرط لامتلاك الارض ان يكون المالك افرنجيا — Francois (١٥٤) وخيرت السكان بين الهجرة او الخدمة (١٥٥) او الذهاب الى المدن للاشتغال بالتجارة والصناعة ·

فتعود الامراء الاوربيون على اضطهاد الفلاحين نظراً لما كانت عليه حالة هؤلاء حينئذ باوربا واحتقارهم للسوريين من جهة اخرى وعدم وجود سلطة دينية او قانونية تجبرهم على رعاية حقوق هؤلاء ولا قواعد وراثية كما كانت عليه الحال في اوربا جعل هؤلاء المساكين بحالة يرثى لها من الشقاء والاستعباد خصوصاً في بداية الفتوحات ، فالتعصب الديني وسكرة الفتوحات زادت تسلط هؤلاء الامراء فلا عجب ان نرى هؤلاء الفلاحين كانوا من اهم العوامل التي توفق بها السوريون والمصريون تحت ادارة صلاح الدين بظفرهم على امراء الافرنج الذين كانوا لا يرحمون ذلتهم

(١٥٤) Assise de gerusalem page 404
(١٥٥) Rôhrieh, geschichte von gerusalem page 4

ويظهر لنا ذلك بصورة واضحة تحرير كتبه صلاح الدين الى فردريك الثاني يقول فيه :

« ٠٠ ان البدو التى هي تحت سلطتنا وحدها كافية لمقاومة اعدائنا وعدا عن ذلك لاينتظر الفلاحون السوريون الذين يسكنون القرى بطرفكم الا اشارة منا ليقاتلوا بجسارة هؤلاء الذين اغتصبوا اراضيهم واستعبدوهم لينهبوها ويضرون بسكانها ٠٠٠ » (١٥٦)

فهذه الحالة المحزنة التى كان عليها فلاحوا سوريا وموت كثير منهم بالحروب والغزوات كثيراً ما قللت الايادي الزراعية العاملة علَى زراعة الارض وتأخرت الفلاحة السوريه بحيث بقيت هناك اراض واسعه بدون عمل فازداد ضيق المعايش في البلاد وكثر الغلاء والقحط وابتدأ الصليبيون ان يعبروا عن قيمة الارض ليس كما هي الحالة عليه في الازمنة الاعتيادية نظراً الى مساحتها او جودة تربتها بل بالنسبة الى عدد الفلاحين المستعدين لزراعتها وعدد الجمال اللازمة لنقل المحصول من الاراضي للحواصل (١٥٧) ونري ان هذه الحالة لم تخف علَى امراء السلجوقيين اذ بدأ اتابك بتحسين حالة الزراع وحمايتهم واسكن في اطراف حماه البعض منهم (١٥٨)

(١٥٦) Histoiri anglicanae ll page 259

(١٥٧) Beugnot 16

(١٥٨) ابن الاثير الكامل في التاريخ صحيفه ٢٥٢ ابو الفدا المختصر في اخبار البشر صحيفه ٢

ولا عجب بعد ما فصلناه ان نرى الصليبيين بحالة اقتصادية سيئة اضطرتهم الى طلب المساعدة المادية من اوطانهم والاستقراض من تجار البنادقة والجنويزيين وغزوهم اراضي المسلمين للنهب وكانت هذه الغزوات معروفة عندهم باسم « Razia » (١٥٩) وهذه الغزوات اضرت كثيراً بالفلاحين الذين كانوا علَى الحدود بين الاراضي التي اخذها الصليبيون وبين الارض الباقية بايدي العرب حيث اضطر كثير منهم الى مغادرة اراضيه والالتجاء الى المدن .

ولكن بقاء الصليبيين مدة بالبلاد السورية وتعودهم علَى المحيط والحياة بتلك الاطراف اضعف عصبيتهم الاولى وتحسنت علاقتهم مع الفلاحين ويظهر ذلك جلياً بمساعدتهم لهم فيما بعد باستئجار ارض وزرعها على حسابهم وبتوظيف مأمورين وطنيين منهم لمناظرة الفلاحين السوريين كانوا يعرفون باسم « رئيس — Reis » اوناظر وربطت بالمدة الاخيرة وظائف الفلاحين تجاه الامراء بموجب شرائط معينة بحيث يعرف الفلاح ما له وما عليه ويسعى بموجب ذلك لحسن زراعة الارض وكان الفلاحون السوريون يدفعون الى هؤلاء الامراء ثلث او نصف الحاصلات السنوية (١٦٠) وعدا عن ذلك :

(١٥٩) Rohrich (49) Heyd Tom 1 235

(١٦٠) رحلة ابن جبير صحيفة ٣٠١

١ – وضع « كروسه – Carrota » لخدمة السنيور .

٢ – الاشتغال بتصليح الطرق وهذه كانت بزمن السلجوقيين والمماليك (١٦١)

٣ – تسخير الحيوانات بالعمل لنفس الغاية .

٤ – تقديم هدية سنوية الى السنيور عبارة عن دجاجة وعشرة بيضات ونصف عجل « وذلك عن كل حقل »

والسنيور كان يدفع العشر الى الكنيسة وقد اجتهدت الامراء بقطع هذه الضريبة فلم تتوفق وكانت ترتفع هذه الضريبة الى ١ من ٢٠ من سعر الخضرة والاشجار المثمرة والعنب و ١ من ١٠ من الحبوب (١٦٢) وكانت حالة الزراع بزمن رحلة ابن جبير حسنة ويذكر انهم يقدمون نصف الغلة ثم يدفعون ديناراً وخمسة قراريط (الدينار ٢٤ قيراط) كجزية فيأمنون بذلك على اموالهم من ان يغتصبها الامراء منهم وبهذه المدة تحسنت احوال الفلاحين حتى جاوزت حالة الذين كانوا تحت سلطة بعض امراء السلجوقيين كما حكى ذلك ابن جبير .

اما حالة التجارة بهذا الدور التاريخي فلم تكن سيئة نظراً لكثرة التجار الاجانب الذين زاروا سوريا بمناسبة هذه الحروب وتصرفهم بكثير من محصولاتها ونوالهم امتيازات خاصة من طرف امراء الصليبيين كما كان الحال

---

(١٦١) كشف الممالك للظاهري صحيفة ١٢٩

(١٦٢) Beugnot 84

مع البنادقة والجنويزيين وسكان بيزا وقد اشترك معهم بعض الافرنسيين الساكنين سواحل فرانسا الجنوبية ·

واول ثغر دخلته التجار الاجانب كان (السويديه) على مصب نهر العاصي الذي كان قابلاً للسفر بتلك الازمنة وكان دخولهم اليها سنة ١٠٩٧ وكانوا من تبعة جمهورية (جنوه – Gène) وهم الذين ساعدوا بوهموند على فتح انطاكية مقابل ثلاثين بيتاً ومساحة لبناء كنيسة وبيت كبير لخزن البضائع (Fondaco) – الظاهر ان كلمة فندق مشتقة من ذلك – ثم باستثناء كل هذه الاملاك من الضرائب وقد نال الجنويزيون عدا عن ذلك ثلث عكا وذلك من المساكن والاراضي الواقعة باطراف هذه البلدة وكذا بعض البيوت في اللاذقية وطرابلس (١٦٣)

واعطى (بويون – Bouillon) ربع يافا الى سكان (پيزا) سنة ١١٠٠ لمساعدتهم له بفتح هذه البلدة ولم تكن العلاقات بين البنادقة وسكان پيزا حسنة حيث كانوا بنظرهم منافسين لهم بعلائقهم التجارية مع الشرق وهكذا نرى ان اسطول پيزا اضطر الى قتال سفن البنادقة امام رودوس قبل ان يدخل ميناء يافا ·

وسنة ١١٠٠ ضبطت البنادقة حيفا وامنوا من (تانغرد – Tancred) الاستثناء من كل ضريبة في داخل مملكته وسنة ١١٠١ ضبطوا قيسارية

(١٦٣) Heyd Tom 1 163

التي كانت زاهرة بذلك الزمن وخربوها عن آخرها واعدموا كل تجارها واستدل عن ثروتها الاقتصادية حينئذ اذا علمنا ان كل جندي بندقي نال منها ٤٨ « سولبدي — Solidi » و كيلو من البهارات هذا بعد خصم العشر اللازم اداؤه للكنيسة الذي كان واجباً عندهم ثم الخمس للتجهيزات العسكرية وكان عدد هذه العساكر الداخلة قيسارية ٨٠٠٠ نفس ·

ونال البنادقة في القدس قطعة من الارض لعرض بضائعهم بها للبيع مع الاستفادة من امتياز عدم الزامهم بدفع ضريبة ما حتى ولا على طواحينهم وبيوتهم وافرانهم. وكذا استثنوا من واجب استعمال الوزن الرسمي الا اذا تعاملوا مع من هو خارج عن دينهم

واذا تممنا بكل ما ذكرناه من الاخبار عن البنادقة والپيزانيين والجنويزيين نرى انهم كانوا يسعون بواسطة الحروب الصليبية الى تأمين وترقي تجارتهم مع الشرق ويظهر لنا جلياً عدم عصبيتهم الدينية وتقديم المنافع الاقتصادية عليها بيعهم سراً للمصر بين اسلحة وخشب لتعمير السفن (١٦٤) ولنكمل هذه التفصيلات بذكر نشاط بعض تجار الافرنسيين الذين اتوا فلسطين اثناء الحروب الصليبية وهكذا نرى ان قسماً منهم اشترى سنة ١١٥٢ نصف عسقلان مقابل ٣٠٠٠ دينار (١٦٥) · كما ان الملك « تولقو — Tulco » الافرنسي الاصل اعطى تجار مونتبليه رخصة بعمارة اسواق للبيع في عكا

(١٦٤) Schraub

(١٦٥) Rohrich 2 74

ثم باعهم البازار الملوكي الكائن في يافا مقابل ٤٠ دينار ومن ذلك الحين نرى ان التجار الافرنسيين ابتدأوا ان يتداخلوا باعمال سوريا التجارية واكثرهم من مونبليه ومارسيليا (١٦٦)

فسكني هؤلاء التجار الاوربيين بالاراضي السورية تحت تلك الشروط الممتازة التي لا يمكنهم الحصول عليها زمن السلم وسلامة التجار من القرصان بسبب نقل الجنود والفوائد العظيمة التي امتهنها السفن التجارية من اجرة نقل العساكر او وراثة من مات من السائحين اثناء سفره (١٦٧) ثم ادخال اصول القوافل البحرية بسفر السفن سوية كل ذلك ساعد على اتساع التجارة الاوربية مع الشرق عموماً وسوريا خصوصاً وهكذا كانت ترسل البنادقة بالسنة في الربيع والخريف مرتين القوافل بالسفن التجارية والجنويزيين مرة بالسنة اما البضائع التي كانت تأتي من اوربا الى الشرق فكانت الالبسة والمنسوجات والاردية وخيوط ذهبية وقصدير ومرجان (من جنوب فرانسا) وقد اشترك التجار الافرنسيون بهذه الاعمال التجارية ونرى ان مارسيليا ابتدأت ان ترسل سفنها مرتين بالسنة الى سوريا (١٦٨) وذلك رغم الصعوبات التي وضعها لها الجنويزيين خيفة منافستهم وشاركها بهذه الاعمال الاقتصادية بلدتا ناربون — « Narbonne » ومونبليه —

(١٦٦) Schraub 143
(١٦٧) رحلة ابن جبير صحيفة ٣١٦
(١٦٨) Heyd Tom I 294

« Latte – وكانت هذه الاخيرة مرتبطة بثغرها « لات » Montpelier » بواسطة نهر Dez (١٦٩)

واذا : ققنا البلاد التي كانت ترسل الانسجة الى سوريا نراها كما يأتي :

« Stamford » كانت ترسل الجرخ و « شالون – Chalon » الانسجة الخضراء والزرقاء و « ايبرن – Ipern » الانسجة الحمراء وكذا باريز وليل و « روان – Rouen » كانت ترسل اقمشتها الى سوريا ونصف الكتان الذي كانت تستورده سوريا كان آتياً من فرانسا والنصف الآخر من المانيا (١٧٠) اما الخيوط الذهبية ، اسمها اللاتيني – aurum filatium » التي ذكرنا ان سوريا كانت تستورد كمية مهمة منها كان منشأها ايطاليا والبضائع التي كانت تذهب من سوريا الى اوربا هي كما يأتي :

جواهر . مسك . تمر . بهارات (مر ، ابان ، قرنفل . الخ) (نيل – Indigo) حجر الشب . ثم مصنوعات زجاجية من بلدان انطاكية وصور وصيدا وترسل فريقاً من المصنوعات الحريرية وكثير ما كانت تنافسها بذلك الاندلس ليس في اوربا فقط بل وحتى في سوريا .

واهم المنقولات التجارية بين سوريا واوربا كانت بزمن الصليبيين بواسطة ثغر عكا الذي كان حينئذ اهم فرضة في سوريا وابن جبير الذي زار سوريا بزمن صلاح الدين يقول عنها انها كانت :

(١٦٩) NoëlT om 1 213/215 (١٧٠) Schraub 203

« مجمع السفن وملتقى التجار المسلمين والنصارى سككها وشوارعها تغص بالزحام وكانت تعامل التجار المسلمين بعكا بالطف »

وقد وضع الصليبيون مكوساً عَلَى البضائع السورية الاسلامية الذاهبة الى اوربا حين خروجهم منها وحين الدخول الى البلاد الاوربية . وهكذا كانت تأخذ البنادقة ٢ بالمائة من البضائع الداخلة اليها وكذا كان هناك مكوس بحرية عَلَى البضائع الاوربية الداخلة الى سوريا ولكن لما كان اكثر التجار البنادقة والجنويزيين مستثنائين من ذلك والقسم الباقي يخص امراء البلاد المستثنائين ايضاً لم يكن لهذه الضريبة اهمية فعلية . وكان عَلَى الشام ضريبة لامراء الافرنج تدعى « القسم » تساوي عشرين الف دينار حماية وتأميناً لعدم التعرض الى بضائعهم الذاهبة الى مصر وغيرها (١٧١)

وكان هناك في البلاد السورية ضرائب عَلَى المارين على الجسور وعَلَى افواه الاودية المهمة وامام الحصون فكانت التجار المارة امام حصن اعزاز في الشمال تدفع ضريبة وكذا التجار المارون عَلَى جسر الحديد (دمير قابو) المنصوب على نهر العاصي في الطريق الواقع بين حلب وانطاكية (١٧٢) وكان يطالب من التجار الذاهبين الى مصر عن طريق بانياس ضريبة قيمتها دينار وقيراط (١٧٣) وكذلك كان المسلمون يأخذون من التجار الاجانب

---

(١٧١) كتاب الروضتين صحيفة ٣٩

(١٧٢) Schraub 134 (١٧٣) رحلة ابن جبير ٣٠١

الداخلين الى بلادهم ضريبة المرور .»

وكانت التجارة بين الشام ومصر قائمة على قدم وساق بسبب اتحاد سوريا مع مصر لمكافحة الصليبيين فلذا كان كتان القاهرة يدخل الشام وقد اخذت طبريا الواقعة على هذا الطريق التجاري اهمية لم تكن رأتها قبل ولن تراها فيما بعد وكانت فرضتها (حيفا) وكان يذهب قسم من هذا الكتان الى بغداد امارأساً وامابطريق حلب و(منبج) على الفرات وقد مدح ابن جبير حسن اسواق ودكاكين هذه الفرضة الكائنة على الفرات بما يدل على محاسن هذه المناقلة التجارية الداخلية .»

وكان بجنوب الشام باطراف المزيريب وقرب مدينة جبلة اسواق مهمة يجتمع فيها التجار من جميع اطراف الشام ويعرضون بها بضائعهم على اصول (المسه — Messe) المعروف في يومنا هذا .

« وكانت الشام بزمن الصليبيين مركزاً للقوافل التجارية الآتية من حلب وحمص والذاهبة الى مصر والحجاز وكذا كان يذهب منها خط تجاري نحو العراق والعجم اما علاقة البلاد الداخلية التي بقيت بيد المسلمين مع السواحل فكانت تجري بواسطة طرابلس وكانت حمص بهذه المناسبة مشهورة بذلك الزمن بالفنون الاقتصادية وقد وصفها ادريس بقوله :

« حمص عامرة بالناس والمسافرون يقصدونها بالامتعة والبضائع فكل اسواقها قائمة ..»

ولكن قسماً من البضائع كان يأتي الى الشام عن طريق (عكا) وكذا يافا والقدس ولم تكن بيروت خالية من التجارة تمام الخلو فقد حكى ابن خلدون ان كثيراً من تجار دمشق كانوا بها سنة ٥٢٨ هجرية ٠

وكان لحلب بعد دمشق وحمص مقام مهم في التجارة حيث كانت مرحلة عظيمة بين سوريا والقوقاس والاناضول ٠ ويمكننا ان نستدل على ذلك بانه توفي احد التجار زمن الملك نور الدين فبلغت تركته عشرين الف دينار وبالضرائب التي كانت تدفعها للصليبيين ولكن اضرت بها الغزوات المتعددة التي كانت باطراف البلاد حتى كانت دائماً مهددة ٠

ومما يستحق الذكر ما ادخله الملك نور الدين المذكور من الاصلاحات لتوسيع التجارة الدورية كتخفيف الضرائب عن سكان المدن وابطال ما كان يؤخذ من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم ورسم الكيالة وابطال ما كان يؤخذ من الضرائب على الخمر ومنع عقوبة شاربها وتأسيس دار العدل لحل المشكلات الحقوقية وتأمين حسن المعاملة بين السكان وقد وسع الاسواق وحسن الطرق (١٧٤) وتبعه صلاح الدين الايوبي على ذلك واكمل عمله ببناء الخانات الكبيرة لنزول ركاب القوافل التجارية. وكانت هذه الخانات بالطرق التي لا أمن فيها متينة الابواب والاسوار

(١٧٤) تحفة ذوي الالباب للصفدي صحيفه ١٦٠

محفوظة من النهب في زمن الحرب وغيره مع انتشار العساكر حتى كأنها حصون يتحصن بها من في داخلها ولولا ذلك لما أمن الناس على تجارتهم ٠ وكان الصليبيون يتعرضون احياناً للقوافل التجارية المارة امام حصونهم كما كان الامر على ذلك امام الكرك (١٧٥) ولكن كان التعرض للتجارة نادراً والغالب ان الصليبيين كانوا يعاملون التجار بالحسنى مقابلة ما كانوا يأخذونه منهم من الدخوانية ، والملك الظاهر وسع التجارة السورية بين داخلية البلاد والسواحل وذلك سنة ١٢٦٠ (١٧٦)

واذا درسنا العملة التي كانت رائجة في سوريا حينئذ نرى انهـا لم تكن من نوع واحد بل ان فتوحات الاجانب وعلاقة سوريا الماضية مع العباسيين وحكم مصر على البلاد الشامية جعلها مختلفة النوع والأسم ، فكان بهـا دينار المليوبين ويدعى بالدينار « الصوري » (١٧٧) وسبب ذلك انه ضرب في بلدة صور ثم دينار الامامية والمؤمنة وهو ما ضربه الخلفاء العباسيون في بغداد ، ثم دينار امير الامراء وهناك دينار يعرف بالأحمر يدعي الباحث الافرنسي « لونبريه — Longperier » انه من ضرب السلجوقيين (١٧٨) وكان هناك (دوقات) ونديك ودينار فلورانس

«١٧٥» Heyd tom I 189

[١٧٦] عقد الجمان لبدر الدين العيني صحيفة ١٨ ، ٢١

[١٧٧] تحفة ذوي الألباب الصفدي ١٦٧

«١٧٨» Recueil des historièn orientaux relatif aux croisades tom II deuxiém partie 113

وغير ذلك من العملة العائدة الى الاوربيين ولاشك ان هذا الاختلاف بالدراهم كان غير مفيد للتجارة اذا لم نقل انه مضر لأن ذلك كان يؤدي الى الصعوبة عند الصرف والحساب .. الخ "

وقد جلب انظار المدققين صفاء الذهب المضروب بالسكك العربية وكانت قيمة الدينارين « امير الامراء والامامية » تعادل « ١٤ » فرنكاً وقيمة الدينار الصوري مثلي ذلك ، ثم ضربت المماليك المصرية دنانير سلطانية حتى القرن الثالث عشر .

وليس لدينا مع الأسف تفاصيل كثيرة توضح حالة الصناعة السورية اثناء الحروب الصليبية وانما يمكننا ان نقول انها كانت متناسبة مع حالة البلاد التجارية وخصوصاً ان احتياج البلاد والجنود للاسلحة والألبسة ساعد انتعاش هذه الحركة الاقتصادية ، على اننا لا ننسى ان الحروب اضرت ايضاً بالصناعة السورية في المدن المفتوحة لذهاب الصناع منها واشتراكهم بالقتال ومع ذلك فان لدينا دلائل تنبئنا بان الصناعة يومئذ كانت جيدة بسوريا منها ماقاله ابن جبير في وصف حلب :

« حلب ، اسواقها بديعة . تخرج من سماط صنعة وتدخل بسماط صنعة اخرى وفيها جميع الصناعات المدنية .. »

ومنها ما قاله غيره انه كان بها معامل للاقمشة وباطرافها ساحات كبيرة مزروعة قطناً ابتدأ بزرعها بنو حمدان وغير ذلك مما لاشك فيه

انه كان له علاقة باحتياج صناعة البلاد الى هذا القطن وقد بقيت هذه الزراعة زاهرة حتى الحروب الصليبية حيث « جوسلين » خرب كثيراً منها بغاراته (١٧٩) وابن جبير يصف لناحماة : « جامعة لجميع الصناعات» دون ان يفصل لنا ذلك (مع الأسف) وابن بطوطة يتكلم عن سرمين في شمال سوريا وبعد ان شكر زراعتها واشجارها قال عنها :

« وبها يصنع الصابون الآجري ويجلب الى مصر والشام ويصنع بها ايضاً الصابون المطيب لغسل الايادي ويصبغونه بالحمره والصفره ويصنع بها ثياب فاخرة حسان تنسب اليها .. »

وقال هايد : ان طرابلس كانت بزمن الصليبيين مركزاً لصناعة الأنسجة الحريرية وقدر الصناع المشتغلين بهذه الحرفة في ذلك الزمن بـ« ٤٠٠٠ » صانع (١٨٠)

ووصف الادريسي صناعات الشام بما يأتي :

« دمشق جامعة لانواع من الصناعات وانواع من الثياب الحريرية كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة العديم المثال الذي يحمل منها الى كل بلد ويضاهي ديباجها ديباج الروم البديع وينافس اعمال اصفهان ويشق صنعه على اعمال طراز نيشابور من جليل ثياب الحرير

[١٧٩] تاريخ حلب لابي يرعه ١٥١

«١٨٠» Heyd tom 169

المتمة وبدايع ثياب تفليس وقد احتوى طرزها على افانين من اعمال الثياب النفيسة ومحاسن جمة فلا يعادلها جنس ولا يقاربها مثال واهلها بخصب ورغد عيش من صناعات نافعة وتجارات رابحة ..»

وكان بالشام كما رأينا بزمن ابن بطوطة صناعة الكاغد ووجد هناك:

«صناع اواني الزجاج العجيب ..»

وكذا كان بالشام صناعة الدباغة زاهرة ولكن اكثر صناعها «اذا لم نقل كلهم» من اليهود (١٨١)

وقال الادريسي في اثناء كلامه على صور: ان بها يصنع الزجاج والفخار ويعمل بها من الثياب البيض المحمولة الى كل الآفاق وكل شيء عالي الصفة والصنعة ثمين القيمة وقليلاً ما يصنع مثله في ساير البلاد..

وقال ابن جبير حين وصف الجامع الاموي الذي بدمشق:

«... ان بمرقد سيدنا يحيى قنديلاً لا ادري أمن زجاج عراقي أم صوري ..»

وهذا تصريح منه بان شهرة الزجاج الصوري كانت تضاهي شهرة زجاج العراق وانه لم يكن هناك لا في سوريا ولا في مصر بلدة تضاهي بصناعتها تلك الأنتاجات من معامل صور والعراق ومما يدل على اهمية هذه الصناعة بصور ان وارداتها التي كان يأخذها الصليبيون بلغت حداً

«١٨١» Heyd I 167

عظيماً بين واردات المملكة (١٨٢) وكان زجاج صور يصنع من بعض النباتات «الاشنان» المحتوية على البوتاس مع الرمل وتسخينهم وذلك بمهارة فائقة اكتسبوها منذ آلاف من السنين عن اب وجد .

ويمكننا ان نقول ان معامل السكر كانت باقية في سوريا باطراف طرابلس وغيرها حيث ان زراعة قصب السكر كانت زاهرة فيها (١٨٣) وكان للسكر بذلك الزمن اهمية تقارب المعادن الثمينة كما يظهر ذلك من عرض الملك الناصر اثناء عرس اخته سكراً ما بين الثياب والذهب والفضة (١٨٤)

وعدا عما ذكرنا من الصناعات المهمة التي كانت اساس صناعة السوريين كان هناك صناعات محلية وان كانت اقل اهمية لا يمكننا ان نهملها حين الكلام عن الصناعات السورية من ذلك صناعة الحصر التي كانت زاهرة في فلسطين خصوصاً باطراف بيسان وطبريا وقد قال الادريسي .

« بيسان .. ينبت بها السامان ويعمل بها الحصر السامانية »

وقال اثناء كلامه على طبريا :

« طبريا .. يعمل بها الحصر السامانية العجيبة وقلّ ان يصنع مثلها في بلد من البلاد المعروفة »

«١٨٢» Schraub 739

[١٨٣] ادريسي ١٣٨ [١٨٤] تاريخ حلب لابي بردبه ٢٥٨

ولقد قلنا انه يمكننا ان نستدل على تقدم صناعة الاسلحة الشامية بمناسبة الحروب ويثبت لنا ذلك الهمة التي كانت مصروفة حينئذ لاستخراج معادن الحديد من جبال لبنان خصوصاً قرب بيروت (١٨٥) وكان يرسل قسم من هذا الحديد الى مصر (١٨٦) ويدلنا على ان هذه الصناعة كانت موجودة ما روي لنا من اخذ تيمورلنك الصناع معه الى سمرقند . وكان في بعلبك صناعة الدبس ويحمل منها الى البلاد المجاورة وكانت نابلس مشهورة بصنع دبس الخروب .

ولا يخلو من فائدة ان نذكر ما رآه ابن بطوطة في الشام من اوقاف يسميها :

« اوقافاً للاواني »

هذه الوقفية غريبة في شكلها وربما امكننا اعتبارها نموذجاً لمؤسسات التأمين العصرية وغاية الامر انه كان القصد من هذا الوقف انما هو عمل الخير بينما المؤسسات العصرية مبنية على المنفعة الاقتصادية لا على شعور ديني او عاطفة انسانية ولكن على كل يظهر لنا اولاً كثرة الذين يملكون اوانٍ ثمينة حيث لولا ذلك لما كان احتياج لمثل هذا الوقف ثانياً الاهمية التي كانت لهذه الاواني حيث وجد هناك اناس يفكرون بجعل اوقافاً خصوصية لها .

[١٨٥] ادريسي ١٣٨ [١٨٦] ابن بطوطه ١٧

كثيراً ماتعتبر سنة ١٢٩٠ اي تاريخ فتح المسلمين عكا ختاماً للحروب الصليبية التي دامت ما يقارب قرنين كاملين ولكن اذا دققنا الحوادث التاريخية التي أعقبت هذا الزمن و بحثنا عن وقائع القرن الرابع عشر ظهر لنا ان هذا القرن لم يكن اقل فتناً مما قبله ولكن الفرق بينه و بينهما هوان الحكومات الغربية بدلت فيما بعد شكل الحرب واتبعت الوسائط الاقتصادية والوسائل السياسية لقهر الشرق الظافر فكانت قادة افكار الامم الغربية في الاقتصاد تسعى الى تحويل طريق الهند وابعاده عن مصر والسودان وسوريا نحو تركستان والاناضول و بيزانس واما الوسائل السياسية فكانت مصروفة لاستجلاب صداقة جنكيز خان وتحويل قوة التاتار التي بدأت تهدد كيان اوربا نحو البلاد الاسلامية وقد ساعد تحقيق هذه الفكرة التي كانت تسعى البابوية اليها تقرب التاتار من المسيحيين على اثر تأثير النسطوريين الذين كانوا من زمرة مشاوري الخانات التترية حتى ان هلاكو حفيد جنكيز كان متزوجاً بامرأة مسيحية منهم (١٧٨) وقد انتشرت فرقة النسطوريين في آسيا على اثر اصدار قرار البابوية ضدهم سنة ٤٣١ للمسيح وتفرقت في كل اطرافها بحيث وجد منهم جماعة على حدود الصين في القرن الثامن للميلاد . ولم يكتفي البابا بالاستفادة من هذه الفئة

(١٧٨) Paul Pellist (Pape et Mongol le temps 23oct1922)

المسيحية بل اجتهد في تأسيس علاقات ودية رأساً مع التتر وهكذا نرى ان البابا « اينوسان الرابع — Innocent IV » يرسل من بلده ليون احد السواح والرهبان الدعو (جان دو پلان قارپن — Jan du Pian Carpin) عن طريق المانيا و بولونيا وروسيا حاملاً هدايا ثمينة الى (كو يوك خان — Kouyouk Han) وتوفق الى الالتقاء به في قره قروم وكذلك ارسل ملك فرانسا (سن لو يس — Saint Louis) من قبرص ثلاث رهبان دومينيكان الى الجي غاياتي خليفة كو يوك خان وبعد تفرد هلاكو بالسلطنة تجددت العلاقات الودية بين التتر والبابا ودول الغرب وظهرت نتائج هذه المناسبات السياسية بتخريب بغداد وتكرر هجوم التتر على البلاد السورية وقد ابتدأ هذا الهجوم سنة ١٢٥٠ فتمكن السلطان بيبرس من رده سنة ١٢٦٠ ولكن تكرر هذا الهجوم سنة ١٢٨١ ووقعت وقعة هائلة قرب حمص بين جيوش الاسلام واعدائهم وكذا تكررت سنة ١٢٩٩ ، ومما يجلب النظر انه كان بين عساكر التتر عساكر كثيرة من الجيوش المسيحية اكثرهم من قبرص .

فهجوم تيمورلنك سنة ١٤٠٠ وتخريبه حلب والشام لم يكن الا نتيجة هذه السياسة الغربية الرامية الى استرجاع فلسطين والاراضي المقدسة واخذها من يد المسلمين . (١)

---

(١) وقد كانت علاقات تيمورلنك مع امراء الغرب حسنة كما يظهر من المعاهدات التجارية التي عقدها بينهم كما بين ذلك . وقد هجم ابدال

(بوسياقو — Bouciacaut) على السواحل السورية قائداً على جيوش جنويزية ونهب وخرب اكثر السواحل السورية كطرابلس وصيدا وبيروت مما يدلنا صراحة على وجود واستمرار هذه الحروب التي تدعى الحروب الصليبية حتى ابتداء القرن الخامس عشر والسكون الذي ساد بعدئذ البلاد السورية لم يكن حسب قول داويد « السكون انتزاع اكثر من انه سكون الراحة » خصوصاً في اطراف سوريا الجنوبية ٠

واكثر السائحون الذين زاروا فلسطين بهذه الدورة التاريخية يصفونها بانها خراب ولا عجب من ذلك اذا تذكرنا مضار الحروب بهذه الاطراف ونتائج تحويل طريق الهند من جنوب سوريا ومصر الى ارمينيا وقبرص حتى آسيا المتوسطة وهذا ما يوضح لنا تقدم قبرص الاقتصادي في تلك الدورة التاريخية وقد سهل سعة تجارة قبرص مع آسيا المتوسطة والهند العلاقات الودية التي كانت بين شارل السادس وهنري الرابع وتيمورلنك حتى ان الاول عقد معه سنة ١٤٠٢ معاهدة تجارية تعطي التجار الافرنسيين حق الحرية بالمرور في كل انحاء بلاد تيمورلنك وابيح لهم الاتجار فيها بلا مانع ولا منازع (١٧٩)

وقد زاد ضرر منافسة هذا الخط الشمالي بالتجارة الاسيوية وابتعاده عن سوريا ما اداه له السلطان بيبرس من احتكار البضائع الهندية بحيث منع

(١٧٩) Delaville la France en orient /886 p. 1:9

البيع والشراء بها الا من طرف وكلائه وكان له وحده حق تعيين اثمانها فيزيدها حسب مشيئته واحتياجه وقد اراد اتساع هذا الاحتكار على القطن والخيوط ولكن عدل عن ذلك عَلَى اثر تهديد تجار البنادقة بترك البلاد وعدم الاتجار معه اذا هو صمم على تحقيق فكره . فاستعاض عن هذا الفكر باحتكار زراعة قصب السكر وصناعته في سوريا (١٨٠) وقد زاد ضرر هذا الاحتكار الصعوبات التي وضعها بيبرس عَلَى اقامة التجار الاجانب في البلاد السورية والمصرية وتحديدها باربعة اشهر مما اضر بالبلاد وجعل الملك الظاهر مضطراً الى جعلها ستة اشهر عوضاً عن اربعة (١٨١) .

وقد قلت وفود الحجاج الواردة عَلَى فلسطين لما كان هنالك من الصعوبة بحيث كان يضرب بها المثل باوربا في القرون المتوسطة « ثلاثة اشياء لا يجب عَلَى المرء ان يوصي بها : الزواج والحرب والسياحة الى القدس » وكان يطالب من السائحين ضرائب عديدة بحيث اقفرت بعد ذلك اطراف فلسطين وزالت بهجتها ورونقها للخراب الذي انتجته الحروب الصليبية وهاجرت الافرنج الى قبرص وانقطعت قوافل الزوار التي كانت تؤم القدس فتترك بالبلاد فوائد مادية تستحق الذكر .

وحكى السائح الافرنسي « دلابروكيير – De la Brocquière ،

(١٨٠) Recueils des voyages tom 12 page xxx vl
(١٨١) Heyd 1 1 472/98

انه وجد عكا خراباً وليس بها اكثر من ثلاثمائة بيت (١٨٢) . وهكذا السائح « برايدنباخ — Breydenbach » الذي زار سوريا سنة ١٤٨٧ يقول عن يافا : « انها خربة لا سكان بها وان اطرافها الجميلة مهملة ومقفرة » (١٨٣) وقال مثل ذلك عن الاراضي الواقعة بين الرملة و يافا من جهة العمران الا انه يقر بان الارض مخصبة بتلك الاطراف ولكن ليس هنالك اياد عاملة لاستثمار مواردها وان الارض مزروعة بصورة بسيطة جداً مما يدل على وقوف بسيط على اصول الزراعة وحينما تكلم على عكا قال « انها رغم اثمارها وحسن تربتها خراب من جراء الحروب » وكذا قال عن صيدا بانها مقفرة ومخربة وبان اكثر اطراف فلسطين عَلَى هذه الحالة وقال العبدري الذي زار سوريا في اواخر القرن الرابع عشر عن عسقلان التي كان لها اهمية كبيرة زمن الصليبيين « ان بها رباطة وليس بها عمارة » والظاهري الذي حرر كتابه (زبدة كشف الممالك) في ابتداء القرن الرابع عشر يقول عن صور « وهي الآن خراب » .

واما الزراعة فلم تتغير شرائطها التي سبق ذكرها من حيث الاقطاع وشرائط الفلاحين الاجتماعية ولكن رفعت المضار التي كانت يقوم بها الصليبيون حين تسلطهم عَلَى الفلاحين الوانعين عَلَى الحدود التي بينهم وبين

(١٨٢) de la Brocquiére fol 8.

(١٨٣) Breydenbach Voyage de gerusalem fol xvl

البلاد الاسلامية في الحروب تركت بسوريا اضراراً جمة وبقيت اراض واسعة بدون زراع فكانت مهملة كما بين لنا السائحون المار ذكرهم .

واذا تأملنا بأن كثيراً من الاراضي الزراعية السورية لم تكن صالحة للزرع الا بعمل مستديم خصوصاً في الاراضي الجبلية المحتاجة الى اقامة المساكب والسهر عليها وترميمها كلما خربتها المياه والسيول وكذا قنية الاسقاء التي تحتاج للعناية والسهر يمكننا ان نستنتج درجة المضار التي نجمت عن ترك اكثر اراضي سوريا الزراعية مهملة . ومما يجلب النظر اننا نرى في هذه الدورة استدامة السوريين على زراعة قصب السكر والقطن التي تحتاج الى تعب كبير وايادي عاملة كثيرة واعتناء بزراعتها وسقيها وقطفها وقد حكى ابن فاطمة في كتابه (الجغرافيا) المؤلف سنة ١٣٣٥ للميلاد ان بلدة اعزاز التي بشمال سوريا كانت مشهورة في زمنه بزراعة القطن الذي كان يرسل منه الى سبته وبعض بلاد الاندلس . وحكى دلا بروكيه ان السهول الواقعة قرب نهر الشريعة كانت مزروعة كذلك بالقطن وانه رأى باطراف هذا النهر اراضي عمتها هذه الزراعة وشاهد قرب طبريا كثيراً من النساء والرجال يشتغلون بقطف القطن وتنظيفه . ونحن نعلم ان بحيرة طبريا كانت في الازمنة السالفة واسعة وتعم الاطراف التي تحيط بها بحيث ان تربتها غنية بالرطوبة والرسوبات المعدنية المغذية للنبات والتي تصلح بصورة خاصة

لزراعة القطن (١٨٤) وقد تعجب الاب نقولا هو من الذي زار سوريا في القرون المتوسطة من رخص القطن في يافا ويخبرنا بان زراعة القطن كانت زاهرة زمن سياحته في اطراف الرملة (١٨٥) وهناك اراض واسعة في سوريا صالحة لزراعة القطن غير ان الفائدة منها قليلة لعدم المعرفة نخص بالذكر اطراف بحيرة (عمق) والبقاع الذي كانت تستره في الماضي بحيرة تعرف باسم بحيرة البقاع كانت « محاطة بغابة من القصب والقش الذي يعمل منه الحصر وقد اشترى سيف الدين انكز هذه الارض وحفر بها اقنية متعددة يجري ماؤها الى الليطاني فبذلك نضبت مياهها وعمر محلها من القرى ماينيف عن عشرين قرية وغرس في داخلها غياض الحور . وعمر بها طواحين » والذي ارشده الى ذلك هو ابن صبيح احد سكان تلك الضواحي (١٨٦)

ويعقب زراعة القطن في الأهمية بتلك الدورة التاريخية التي اعقبت الحروب الصليبية زراعة قصب السكر فكانت منتشرة في سوريا منذ القديم كما ذكرنا ذلك فيما سبق . واول ما ابتدئ بغرسه يومئذ في صيدا والنور وبعد القطن وقصب السكر تأتي زراعة العنب لاهمية خصوصاً في لبنان واطراف الغور وكان لخمر صور شهرة كبيرة بتلك الازمنه يرسل

(١٨٤) Rittér Erd Kunde Tom 16 page 20
(١٨٥) Recueils des voy. tom II page 101
(١٨٦) ابو الفدا صحيفه ٢٠٧/٤٠

منه حتى الى بلاد انكلترا (١٨٧) وقال برايدنباخ انه حين تنقله باطراف عكا رأى ان زراعة العنب كانت منتشرة بتلك الاطراف و كذا بضواحي صيدا ونختم هذا البحث بالتكلم عن تربية دودة الحرير التي كانت منتشرة بسوريا خصوصاً باطراف منبج (١٨٨) وذكر زراعة الرز باطراف بانياس حيث كان يحمل منها الى دمشق وغيرها في القرن الثالث والرابع عشر للميلاد (١٨٩)

ولا يخفى ان جميع هذه الزراعة التي سبق ذكرها تحتاج الى رؤوس اموال فكيف يمكننا ان نوضح اسباب انتشارها مع اننا نعلم ما كانت عليه البلاد السورية في ذلك الوقت من الفاقة والفقر ؛ فالجواب انه اولاً لا نعلم مساحة هذه الاراضي ليمكننا مقابلتها بزراعة الحبوب لتتجلى لنا صراحة اهميتها الاقتصادية ثم اذا تذكرنا ان زراعة القطن والسكر كانت بالغالب عائدة للامراء والملوك المصريين وان زراعة العنب لا تحتاج الى اياد كثيرة عاملة وان هؤلاء قادرون على جلب من يعمل لهم بزراعة القطن وماشاكله ولو جبراً يمكننا ان نعلل كيفية الوصول الى ذلك ..

لم تكن فلسطين وحدها متأخرة بالزراعة بل حكى (دلابروكيير) ان قسماً مهماً في شمال سوريا بين حماة وانطاكيه كان بدون زراعة .

ونعلم ايضاً من برايدنباخ ان اكثر سكان تلك النواحي الشماليه كانوا

(١٨٧) Heyd II page 465
(١٨٨) ابن فاطمه صحيفه ٧١
(١٨٩) كشف الممالك للظاهري صحيفة ٤٦

اذا اجبروا على الزراعة او ارادوها يجعلون الارض كالمراعي عوضاً عن زراعة الحبوب لقلة العمال يومئذ هناك . هذا ما يختص بالزراعة ولندقق الآن حالة التجارة السورية بعد انتهاء الحروب الصليبية :

لقد حكينا في ابحاثنا السابقة ان التجارة السورية تركت على اثر الحروب الصليبية ومناسبات الغربيين مع آسيا الوسطى والعجم وتملكهم على جزيرة قبرص طريق سوريا الجنوبي مجتازة فيما بعد قبرص وشمال سوريا فارمينيا فآسيا الوسطى فالهند وهكذا كان اجتماع اكثر التجار الاوربيين في قبرص وكذلك كانت السفن التجارية تسافر اليها للاتجار في آسيا . ولما كانت المنافسة في التجارة بين الجنويزيين والبنادقة كبيرة وكانت بلدة (فاماغوستا — Famagosta) في قبرص بيد الاولين كانوا يضيقون على البنادقة في تجارتهم ويعرقلون مساعيها بالمشاكل الادارية والسياسية للتخلص من منافستهم فهذا مما اجبر هؤلاء على عدم قطع علائقهم مع مصر رغم تحول اكثر الاوربيين عنها نظراً لاتساع تجارة الخط الشمالي ولم تقطع البنادقة علائقها التجارية من سوريا المتوسطة وذلك بواسطة بيروت وطرابلس التي اخذت بعد الحروب الصليبية بهذه الوسيلة اهمية تجارية كبيرة خصوصاً بلدة طرابلس فقد كانت فرضة حلب واهم ثغر سوري بتلك الدورة التاريخية وحكى السائح الافرنسي دلابروكيه انه صادف في بيروت كثيراً من التجار البنادقة وبعضاً من تجار الفلورنتيين حتى ومن الجنويزيين ولم يكن

بسوريا الشمالية من ثغور فاما اسكندرونة فكانت قفراء محاطة بالمستنقعات واللاذقية كانت كما قال عنها الظاهري « واما اللاذقية فانها مدينة متسعة جداً ولكن غالبها خراب » والسويدية في تلك الازمنة كذلك خربة ومتروكة وطلبة كانت طرابلس كما ذكرنا ميناء حلب وبيروت فرضة الشام ولكن لم تكن بيروت مرتبطة رأساً مع الشام بل ان الطريق الذي يربطهما كان يمر عن صيدا . ولم تقتصر علاقات بيروت التجارية على البنادقة بل كانت تجار الجنويزيين ترد اليها والفلورنتيين كما ذكرنا »

وكان لبلاد ناربرن ومونتپلييه ، ومارسيليا علاقات تجارية مهمة مع هذه البلاد ولكن الموقع لاول هذا كان لتجار البنادقة التي اسست لها وكالة (قنصلية) هناك ولم يكن لغيرهم وذلك في ابتداء القرن الخامس عشر وكانت اهم وظائف هذا الممثل (القنصل) حسب الاخبار التي وردت الينا عن تلك الازمنة هي السهر على شؤون التجار البنادقة واعطائهم النصائح المفيدة لتجارتهم والسعي بتسهيل السفر بين جمهورية البنادقة وبيروت ويدلنا على اهمية بيروت التجارية في تلك الازمنة ماوقع بيد المارشال (بوسياقو) من الغنائم حين هجومه على السواحل السورية كماسبق ذكره ولما عقد الصلح بين الجنويزيين الذين كانوا بقيادة بوسياقو وبين البنادقة التي تضررت تجارتهم على اثر الهجوم على سواحل سوريا المتوسطة كان من جملة المواد المقررة في صلح (٢٨ يونيو سنة ١٤٠٨) المادة التاسعة وفيها :

« ان الجنويزيون يتعهدون بان يدفعوا للبنادقة ثمانية آلاف دينار قبرصي والف وخمسمائة دينار فلورنتي مقابل ما سلب من البضائع التجارية المختصة بهم في مخازن بيروت »

وفي طرابلس ايضاً كان ما يشبه ما ذكر وذلك مما يظهر لنا جلياً اهمية علاقات البنادقة التجاريه مع هذين الثغرين ، واكثر البضائع التي نهبت للبنادقة من طرف بوسياقو في بلدة طرابلس كانت اوقار القطن الآتية من اطراف سوريا الشمالية . وقد كانت هذه البلدة بزمن برايدنباخ كذا: « كثيرة الزيت والحرير ومملوءة بالسكان » .

هذا ما يعود لسواحل سوريا الشمالية والمتوسطة واذا وجهنا انظارنا نحو الداخلية نرى ان الشام وحلب كانتا بتلك الازمنة مركزان مهمان للتجارة السورية ومحطاً للقوافل السائرة بين الاناضول وارمينيا والعجم ومصر والحجاز والعراق ، وحكي السائح الافرنسي (دهسوشهم – De Suchem) انه زار الشام سنة ١٣٤٠ فوجدها مثالاً للعظمة والثروة والرخاء (١٩٠)

وحكى دلابروكيه ايضاً كثرة وتعدد التجار الاجانب التي صادفها بالشام اثناء مروره بها ويذكر انه كان بها قنصل للبنادقة كالذي كان في بيروت وبانه تعرف هناك بتاجر افرنسي لعب اخيراً دوراً مهماً بحياة فرنسا التاريخية وكان امين صندوق شارل السابع ويظهر لنا جلياً اهمية الشام

(١٩٠) « Nobi lis, pulechra gloriosa ditissema » 1141

التجارية بتلك الازمنة وجرد هذا الشخص في سوريا الذي كان يملك وحده اثني عشر سفينة واقرض ملكه مبالغاً تناهز ١٢ و١٣ مليون من الفرنكات مما يحمل في ذلك الزمن ثروة مهمة . وحكى دولابروكيهر انه وجد بعض جهات الشام خراباً على اثر دخول تيمورلنك اليها وكان عدد سكانها يبلغ حسب تقديره مائة الف نسمة . ونحن نعلم من الآثار العربية ان الشام كانت في قديم الزمان وقبل ان يخربها هلاكو وتيمورلنك والزلازل متسعة الاطراف كما ذكر ذلك محمد شاكر الكتبي في كتابه (عيون التواريخ) حيث يقول :

« عن مضر ابن العلاء الفزاري قال كان من رأس زقاق قدايا الى قرية تعرف بواسطة الغوطة حوانيت ومنازل والعمران يتصل حتى سوق القمح بقرحتا وقال الحافظ كان على نهر يزيد من اوله الى منتهاه رواشن مشرفة على النهر وابنيـة وكان بظاهر البلد مساكن للقبائل وقرى متصلة وابنيـة متقاربة فخرب ذلك بالحروب والحصار وقل محل يحفر ولا يوجد اثر البناء وكان هناك اللؤلؤة الكبرى واللؤلؤة الصغرى وصنعا والحمرتين ومنازل بني رعين وغير ذلك من القرى وكانت سطرا قرية عامرة وهي الآن خراب وموضعها بساتين ولم يبق من قرية صنعا الا مسجد صغير يعرف بمسجد خاتون ... وكانت الارزة قرية عامرة فخربت ... »

ولنرجع الآن الى وصف دلابروكيهر فنقول انه وجد في الشام خان

للافرنسيين وحدهم على مدخله اشاراتهم الخاصة التي تعرف باسم Fleur de Lys مما يدل على اتساعهم في التجارة مع هذه البلدة . وكان هناك خانات متعددة تجتمع بها التجار والسائحون خصوصاً اثناء الحج الذي لم يكن فقط سياحة دينية بل كان مع ذلك لاتساع التجارة ولاجتماع كثير من الحجاج بموقع واحد وكل منهم معه من البضائع الثمينة التي اختصت بها بلاده وهكذا كان يوجد بالشام من بهار الهند ومرجان البحرين وجواهر آسيا وكان كثير من صناع الشام يستفيدون من هذه القوافل ويتعيشون منها . وحكي دلابروكيير انه صادف دخول قافلة الحجاج الى الشام تصحب اكثر من ٣٠٠٠ جمل تحمل بضائع وحجاجاً ودام دخول القافلة الى الشام يومين كاملين وكثيراً من بهار الهند كان يرسل بالبواخر حتى جدة ثم الى مكة والمدينة ثم بواسطة الحجاج تحمل الى الشام وثم بواسطة البنادقة وغيرهم تتوزع باطراف البلاد الغربية . ووصف برايدنباخ الشام سنة ١٤٨٤ فقال : « انها بلدة غنية واصيلة » ويتبع الشام في الاهمية بهذه الدورة بلدة حلب التي كانت كما قال عنها دلابروكيير : « احسن بلدة سورية بعد الشام » . وسنرى كيف سبقت الشام مرات عديدة في القرن السادس عشر .

وكان هناك قوافل تسير بانتظام بين الشام وحلب وحمص التي كان لها بذلك الوقت اهمية تجارية كبيرة لقربها من طرابلس الشام التي هي اهم ثغر سوري بذلك الزمن وكان يذهب منها قوافل تجارية نحو العراق والعجم

وكل ذلك رغم ما خرّب بها تيمورلنك ورغم مضرات الحروب الصليبية .

واذا دققنا الآن مفردات البضائع التي كانت اساس التجارة بين الشرق والغرب بتلك الازمنه نرى انها كانت بالدرجة الاولى البهارات الهندية التي كانت تستهلك بكثرة في الغرب للتعطر والتداوي ثم يعقب ذلك القطن لاحتياج معامل القطن الغربيه التي تأسست هناك في القرن العاشر بعناية عرب الاندلس ثم الاحجار الثمينة وقصب السكر فالاثمار والشراب .... وكان يأتي سوريا من الغرب الانسجه البسيطه القطنيه والصوفيه وملابس الكتان ثم المماليك والاسلحه والنحاس وقد اضر بالتجارة خصوصاً بالنواحي التي كانت تحت نفوذ مماليك مصر الفعلي ، الاحتكار والانحصار اللذين ابتدعهما هؤلاء الملوك على المواد الزراعيه والتجاريه .

اما الصناعة السوريه فلم تكن هذه الدورة التاريخيه وحوادثها المحزنة من الدواعي الى انهاضها ورقيها بل ان الحروب وخصوصاً نقل تيمورلنك اهم صناعها الى سمرقند اثر عليها بصورة سيئة وتأخرت على اثرها كثير من الصناعات في الشام وحمص وحماه ، اما حلب و بعض مدن السواحل فقد تمكنت من المحافظة على قسم من هذه الصنائع السوريه وهكذا نرى صناعات السكر والزجاج والصابون والحصر زاهرة في سوريا خصوصاً قرب السواحل و بفلسطين وكذا صناعة الديباج في حلب حيث كانت ترسل منها الى

الاناضول والاستانه وينتشر من هناك في اكثر اطراف اوربا (١٩١) والشام فقدت كما ذكرنا هم صنائعها وذكر احد السائحين الالمان الذي زارها بعد تخريب تيمورلنك انه حين اراد شراء انسجة حريريه بها اجابوه :

« انا نحن الآن نأتي بالديباج من بلاد البنادقه وغيرها ، فتيمورلنك نفى كل معلمين هذه البلدة والقائمين بصناعاتها » (١٩٢)

ولم يبق بالشام بعدئذ الا صناعة غداير السروج وصبغ الجلود وغزل الكتان وذلك لسد احتياج قوافل الحج والبدو المجاورين .

هكذا كانت حالة سوريا الاقتصاديه حين اكتشف البرتغال طريق الهند البحري بعد ان احاطوا بافريقيا بحراً مارين برأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ للميلاد ومن غريب التصادف ان هذا الاكتشاف الذي بعد فاتحة دور التقهقر السوري الاقتصادي ، كان بدلالة احد الملاحين من العرب واسمه احمد ابن ماجده (١٩٣)

---

(١٩١) Noel Tom 1 page 280
(١٩٢) Heyd tom 2 page 468
(١٩٣) البرق اليماني في الفتح العثماني للشيخ قطب الدين المكي صحيفه ٦

الباب الرابع

حالة سوريا الاقتصادية منذ اكتشاف خط الهند البحري
حتى افتتاح ترعة السويس

(٣) – آخر دور سلطة المماليك واول زمن ادارة الدولة التركية :

لم يكن اكتشاف طريق الهند البحري الا على اثر نهضة اقتصادية ابتدأت تظهر تأثيراتها روبداً على سواحل البحر المحيط الاطلامي بعد افتتاح النورمان بلاد الانكليز وقبول الشعوب الساكنة في شمال اوربا للديانة المسيحية ثم تسهيل الاسباب الى فتح الاندلس. وهكذا توجهت انظار سكان البرتغال نحو البحار وارادوا التخلص من وساطة البنادقه والجنويزيين لجلب بضائع الهند لبلادهم وساعدهم على هـذا التشبث انتشار نظرية كروية الارض و بعد اخطار وصعوبات تستحق الذكر وصلوا الى اكتشاف طريق الهند عن رأس الرجاء الصالح فاضروا بتجارة سوريا مع الهند وخصوصاً للمداوة التي اظهروها تجاه السفن العربية التى كانت تقل هذه البضائع الي جزيرة العرب والبحر العجمي لتنقل منها بالقوافل الى سوريا فاوربا وقد سعي سلطان مصر بارشادات البنادقه الى مكافحة هذه الازمة الاقتصادية

التي تولدت من جراء ذلك بتوسيع حرية التجارة مع مصر واقلال المكوس والضرائب على التجار الاجانب وتنزيل الكمرك حتى الى ٩ بالمائة ثم بخفض اثمان البضائع الهندية التي كانت مماليك مصر احتكرتها وحددت اثمانها ولكن هذا الاحتفاظ لم يأت بالنتيجة المطلوبة لرخص البضائع التي كانت تأتي من اوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح بواسطة البرتغال وقد داومت البنادقة على المتاجرة مع مصر رغم هذه الخسارة التي سببتها لهم البرتغال ، فاشاروا عليه ان يفتح ترعة السويس او ان يرسل حملة عسكرية لمحاربتهم فعمل بالرأي الاخير وانتهى الحال بظفر البرتغال وانكسار جيش المماليك . ولما دخل السلطان سليم سوريا وجدها على هذه الحالة الاقتصادية فلم يعبأ لها ولم يلتفت لضعفها لكن الازمة التجارية ازدادت بنقله تجار مصر الى الاستانة ومنع دخول البضائع الهندية الى سوريا بل جعل دخولها الى الاستانة رأساً .

وقد قسم سوريا الى اثنين وعشرين منطقة وجعل لكل منها سنجقدار ويرأس الكل (باشا) مقره الشام (كما يترأس باشا القاهرة على جميع بلاد مصر) وحكى بلون الذي زار سوريا عقب ما احتلها الاتراك سنة ١٥٣٧ انه حدث كثير من التبدل في السناجق فكان الواحد منهم يكون موظفاً بمكان ثم عن قريب يكون بمكان غيره فلا يمكن احدهم ان يتم عملاً صالحاً او يكون مسؤولاً عن منطقته التي لم يبق بها الا اياماً معدودة وقال ان

سنجقدار القدس حكى له انه قبل ان يتعين لسنجقدارية القدس كان موظفاً اولاً في اطنه فلم يبق بها سنة حتى عين سنجقداراً على الموره ثم بعد نصف سنة عين للقدس (١٩٤) ، وقس على هذا سائر الموظفين وكانت المأموريات تباع وتشترى وحكى الشيخ قطب الدين المكي في تاريخه ان والي اليمن محمود باشا حين اراد ان يكون والياً على مصر ذهب الى الاستانة بهدايا وافرة واستدان فوق ذلك ٢٠٠٠٠٠ دينار رشا بها كلها اهل النفوذ هناك حتى تمكن من تحقيق امنيته ولذلك لا عجب ان تكون غايته بعد ان توظف نهب الرعية لاسترداد ما بذله في سبيل الحصول على وظيفته ووفاء دينه واول ما ابتدأ به محمود باشا المذكور بمصر ان قتل احد ثراتها محمد بن عمر الذي كان قدم لملاقاته بهدية تبلغ قيمتها ٥٠٠٠٠ دينار وذلك بدون سبب او جرم ما ثم استولى على املاكه كلها وكرر هذه الجرائم بغياً وعدواناً بقصد جمع الثروة وهكذا بينما تراه اتى مصر مفلساً وعليه ديون اذ به بعد برهة صاحب ثروة طائلة وعنده اواني الذهب والفضة وكان اجرى مثل ذلك في اليمن . وهذا وامثاله مما يثبت ان هذه المعاملة كانت فاشية في اكثر اطراف السلطنة العثمانية فهذا مما اضر بحياة البلاد الاقتصادية ولم يبق لبلد من بلاد سوريا اهمية اقتصادية تذكر ماعدا بلدة حلب نظراً لموقعها الجغرافي وارتباطها بالاناضول والعجم ثم قبرص

(١٩٤) Belon 325

كما ذكرنا وخصوصاً كانت فلسطين متأخرة وزاد خرابها سوء ادارة الحكام وحكي دارمون D'Aramon الذي زارسورياسنة١٥٤٨ للميلاد ان الرملة كانت بذلك الزمن ضيعة صغيرة خربة وان القدس كانت قليلة السكان وان طبريا كانت خراباً وكذا حمص وحماه اضحتا مقفرتين وبانحطاط اقتصادي ولم يكن بدمشق الا قليل من السكان (١٩٥) وكذا قال بلون ان اريحا كانت حين زيارته سوريا ضيعة بسيطة وان اكثر الثغور السورية فقراء ما عدا بلدة طرابلس وقد سعى ابناء سوريا بمكافحة هذا التأخر الاقتصادي بالاعتناء بالزراعة خصوصاً زراعة القطن وتربية دودة الحرير كما يظهر لنا من تدقيق حالة الزراعة السورية بهذا الدور التاريخي ·

وحكي بلون ان الاراضي الواقعة بين نابلس والقدس كانت بالقرن السادس عشر مزروعة قطناً وسمسماً (١٩٦) وكذا كانت زراعة القطن متسعة باطراف الشام وضواحي حمص وحماه ثم بين حلب ومعرة النعمان وقال ان اكثر الاراضي الواقعة بين حلب وحماه كانت تسقى بمياه الصهاريج التي تحفظ مياه الشتاء ليسقى بها ايام الصيف ·

وبعد القطن والسمسم كانت زراعة اشجار التوت لتربية دود الحرير

(١٩٥) Voyage de Monsieur d' Aramon en 1548 ed. Schefer « recueils des voy. tom VIII p. 11c. 141

(١٩٦) Belon p. 326

زاهرة بتلك الازمنة على اثر اتساع اصدارتها لاوربا بناء على اتساع صناعة الغزل والنسيج فيها ثم تحسن الصناعة في حلب لدخولها مع الاناضول والاستانة بعلاقات اقتصادية واسعة على اثر الفتح العثماني · وقد جرب سكان نابلس استعمال ورق التين لتغذية دودة الحرير وعلى قول بالون لم تكن هذه التجربة بدون نتيجة وعادة اطعام ورق شجر التين لدودة الحرير معروفة في الهند منذ الازمنة القديمة واسم الشجرة المستعملة لذلك هناك باللاتيني (ficus religiosa) وكانت تحيط الشام اشجار التوت لتربية دودة الحرير وكذا اطراف بعلبك وانطاكية ·

ولم يزرع الرز في هذه الدورة الا باطراف جبلة وكان لزراعة العنب اهمية كبيرة خصوصاً في فلسطين وسوريا المتوسطة ولم تكن اصول الزراعة المستعملة هناك تفي بالمطلوب الا ما زرع ما بين الشام وبعلبك فقد كان بدرجة حسنة من حيث الاعتناء واصول الزرع لانها كانت على خطوط مستقيمة وبين الصف والآخر مسافة كافية لمشي الحراث وكانت والي العنب تستند باعواد بعكس اشجار فلسطين التي تترك على الارض ولا يعتنى بها كما يلزم ·

وكانت ادوات الحراثة بسيطة وهي عبارة عن خشبة خفيفة يمكن حملها على الكتف ولا تشق الارض الا بصورة سطحية ولا تقلبها وتشابه بحالتها اليوم اكثر المحاريث المستعملة بين فلاحي سوريا ·

وحكي بلون مشابهة ماراه هو سنة ١٥٢٧ ومايذكره المؤلف الروماني بلينوس الذي كان في القرن الاول للميلاد حيث يقول عن محاريث سوريا « Syria Tenni sulca arat » وكانت زراعة الأشجار المثمرة جيدة باطراف الشام وحلب واطراف انطاكية محاطة بشجر السنديان(١٩٧) وكان بسوريا احراش تستحق الذكر في الشمال اشجار الداب وشجرة الغار وكان في لبنان احراش من الارز وفي جبال امانوس كثير من الصنوبر البري وقمته مكسوة باشجار الغار وخلالها الريحان واكثر هذه الاحراش يبست على اثر اهمال ادارتها فمنها ما احرق ومنها ما قطع ثم بواسطة قطائع المعز التي ترعى النشئ الاخضر .

هذا ما يخص الزراعة السورية واحراشها في هذه الدورة التاريخية ولندقق حالتها التجارية بهذا الزمن :

لم تكن تجارة فلسطين وسوريا المتوسطة مهملة كل الاهمال نظراً لأهمية بعض مدنها الدينية كالقدس التي رغم الصعوبات التي ذكرناها لم تنقطع زيارة الحجاج عنها وكذا الشام فانها لم تفقد منافعها التجارية بسبب قوافل الحج بل بقي لها بعض الأهمية للقوافل الآتية لها من الاناضول والعجم وآسيا المتوسطة اما حجاج شمال افريقيا وأوروبا التركية فكانت تذهب من الطريق البحري الى مصر ومن هناك الى الحجاز بدون ان

(١٩٧) Belon 323

تمر على سوريا ولا يخفى فوائد مرور قوافل الحج من سوريا لانها ذاهبا تأتي بالبضائع والدين الاسلامي لم يذم التجارة اثناء السفر الى الحج وانما لم تبق فوائد هذه القوافل بعد افتتاح الترك سوريا على ما كانت عليه خصوصاً الشام التي قلت اهميتها التجارية بهذه الدورة التاريخية واضحت سنة ١٥٤٨ بلدة متأخرة قليلة السكان (١٩٨) ومما يدل على تأخرها بهذه الدورة كون البنادقة استرجعت قنصلها القديم منها وعوضته بأمور قنصلاتو بسيط (officier) كانت وظيفته تسهيل المناقلات القليلة التي بقيت بها وهناك بلدة حمص كانت حالتها التجارية حسنة نوعاً ما خصوصاً ما اختص بتجارة الحرير (١٩٩) اما حماة فكانت قليلة السكان كثيرة الخراب (٢٠٠) واهم بلدة تجارية سورية في القرن السادس عشر هي بلدة حلب التي كانت مجمعاً لجميع التجار الآتية من الهند وآسيا الوسطى والذاهبة الى الاستانة وبلاد البنادقة ومصر ووصف بلون نشاطها التجاري بالكلمات الآتية :

«قوافل من الهند والعراق تضع بها احمالها وكل من اراد السفر الى تلك البلاد البعيدة يجد بحلب اناساً عازمين على السفر متصاحبين وبها كل صنائع الشرق . وللبنادقة بها قنصل كسفير خاص ومنها ترسل

(١٩٨) D' Aramon p. 113

(١٩٩) Belon 346

(٢٠٠) D' Aramon 110-111

البضائع الى اوربا بواسطة ثغرها طرابلس واذا وصلت قافلة اليها تباع بضائعها بيوم وصولها لماهنالك من كثرة التجار المثرين الذين يتسارعون الى اشترائها » (٢٠١)

وقال عنها السائح دارامون في القرن السادس عشر :

« حلب مخزن كل البهارات والادوية والحرير وغير ذلك من بضائع الهند الآتية اليها عن طريق البحر العجمي والبصرة وهي سوق للبضائع الغربية الآتية اليها بواسطة البنادقة خصوصاً الاقمشة (٢٠٢) وتأتيها قوافل مصر عن طريق البحر » .

وقال هذا السائح ان جمهورية البنادقة كانت تأتي الى حلب ببضائع بقيمة ٣٥٠٠٠٠ دوقات ذهب (٢٠٣) واذا اعتبرنا الدوقات البندقية ٨ـ٧٤ فرنك ٢٦١٨٠٠٠ من الفرنكات وكانت البنادقة تصدر من حلب بضائع تقابل قيمة الواردات التي تدخل حلب والافرنسيون كانوا يجلبون الى حلب بضائع بقيمة ١٠٠٠٠٠ دوقات او ٧٤٨٠٠٠ فرنك و يصدرون منها ما يقارب ذلك وكانت البضائع تأتي من مصر الى حلب بما يساوي

---

(٢٠١) Belon 352

كانت حلب مربوطة بالقرنين الثالث والرابع عشر مع قباب وتدمر والرحبة بواسطة بريد الحمام وكذا كانت هذه المواصلات بين دمشق وصيدا وبيروت وطرابلس

كشف الممالك الظاهري صحيفه ١١٧

(٢٠٢) D,aramon dage 100

(٢٠٣) D,aramon 2 253

٢٠،٠٠٠ دوقات او ٨٩٦٠٠٠ فرنك وتصدر ما يقارب هذه القيمة اليها وبالصورة العمومية كانت تبلغ واردات حلب ٦٥٠،٠٠٠ دوقات او ما يقارب اربع ملايين ونصف من الفرنكات واهم علاقة بمجموع سوريا التجارية كانت مركزها في بلاد البنادقة الذين كانوا يصدرون اليها سنوياً قبل اكتشاف طريق الهند البحري دراهم ذهبية تعادل نصف مليون دوقات مقابل البضائع التي كانوا يصدرونها من كل سوريا (٢٠٤) ولا شك انها نقصت بعد ذلك هذه الكمية ولكن اذا نظرنا الى ٣٥٠٠٠٠ دوقات التي كانت تستوردها حلب فقط وضممنا اليها حصص الشام وحمص وطرابلس والقدس ويافا وسائر المدن السورية يمكننا ان نحصل على مبلغ لا يقل عن النصف مليون المذكور . وابتدأت نتائج اكتشاف طريق الهند ان تظهر بحيات حلب الاقتصادية سنة ١٥٣٧ لان البرتغال كانت تهاجم السفن العربية الآتية من الهند الى البحر العجمي وهكذا قال : ارامون ان القوافل الآتية من الهند عن طريق بغداد . قل عددها ولم تعد ترسل بغداد الى حلب بضائع تفوق قيمتها عن ٨٠٠٠٠ الى ١٠٠،٠٠٠ دوقات وانما عادل هذا النقص ما كان يأتي اليها عن طريق ارمينيا والعجم واتساع تجارتها نحو الاناضول على اثر الفتوحات العثمانية وحكي بلون ان قطن البرازيل بدأ ان ينافس قطن سوريا على اثر اكتشاف واستثمار الاوربيين

[٢٠٤] Grand Encyclopedie tom 14 page 11 8

اميركا ، وقد كان الركن المهم بمبادلات حلب التجارية انتاجاتها الصناعية خصوصاً الصابون الذي كانت تصدر منه سنوياً الى اوروبا ما يقابل ٢٠٠٠٠٠ دوقات او ما يساوي مليون ونصف من الفرنكات وكذا كانت تبلغ كمية الالبسة الحريرية التي كانت تصدرها حلب الى الغرب هذه القيمة وقد بقيت اهمية حلب التجارية حتى نهاية القرن السادس عشر فالسائح الالماني Leonard Rauwolf الذي زارها سنة ٧٤ — ١٥٧٣ قال: ان قوافل الهند والعجم وارمينيا ومصر كانت تجتمع بها للمبادلة بالاقمشة والطنافس والبهارات الهندية والصيني واللؤلؤ وكانت حلب في زمنه محطاً للبضائع الاوروبية المخصصة لآسيا الوسطى واسواقها مملوءة بالاقمشة الاوروبية والفرو وكثيراً من ادوات الترف (lux) (٢٥)

والعملة التي كانت رائجة بسوريا بالقرن السادس عشر هي كما رأينا الدوقات البندقية ثم الدنانير المصرية وكان هناك عملة فضية تدعى (عثمانيا) واخرى نحاسية تسمى «مانغير» لا تستعمل الا لصرف العملة الكبيرة ولم توحد الادارة التركية العملة بسوريا بل تركتها على ما كانت عليه قبل الاحتلال وانما اعطت للبكاربكي او الباشا الذي يدير الولايات

[٢٠٥] Zwideneck, Aleppo als zentralplatz des nordsyr. Handels « Handels museum 1872 page 36 - 37 »

صلاحية ضرب العملة الفضية والنحاسية وكان لكل ولاية .وظاف خاص يدعى (امين الضرب) (٢٠٦) وكثيراً ما كانت تسيء الولاة هذه الصلاحية فتغش الدراهم الفضية (عثمانيـة) بخلطها بكثير من النحاس بحيث ان الدينار الذهبي كان يساوي في مصر ٨٠ عثماناً فضياً بينما قيمته في اليمن تبلغ ٣٠٠ عثماني (٢٠٧) لان هذه الاخيرة مغشوشة بكثيرة من النحاس عوضاً عن الفضة ولم تكن العملة كلها تركية صرفة الا في بلدة اطنـه حيث ان جميع المبادلات كانت تجري هناك على الاصول التركية (٢٠٨)

(٢) توسع تأثير الادارة التركية على حياة سوريا الاقتصادية

قبل الاصلاحات . — منـذ فتحت الاتراك الاستانة سنة ١٤٥٣ الى سنة ١٦٩٩ اي الى معاهدة كولوفيتز كانت تركيا في حروب واهوال مع اعظم دول ذلك العصر وخصوصاً الاوروبيـة منهم حيث بدلوا ساحة المعارك الصليبية التي كانت بأطراف سوريا الى شبه جزيرة البلقان ولم تكن هذه الحروب الدائمة بدون تأثير على مجرى ادارة البلاد السياسية والاقتصادية بحيث نشأ عن ذلك تقهقراً اقتصادي صعب بعدئذ رجوعه الى نصابه وتخفيف مضراته واضعاف ويلاته ولا ننكر ما اظهره بعض

(٢٠٦) دار الضرب موسسة قديمه كانت موجوده بزمن المماليك بمصر وهي تعد من الوظائف الدينية حيث السهر على صحة البيع والمبادلات من جملة وظائف الحسبه الشريفه التي كان لها ناظراً خصوصيا انظر كشف الممالك الظاهري صحيفه ١١٠

(٢٠٧) البرق اليماني في الفتح العثماني للمكي صحيفه ٩٠ انظر ايضاً تاريخ حلب لابي رهبه صحيفه ٢٥٨

[٢٠٨] Belon 355

سلاطين تركيا من الرأفة بسكان البلاد فالسلطان عثمان مثلا حين فتحت بروسه بيده قسم اراضيها البربة على من معه بشرط ان يوجهوا كل عنايتهم نحو راحة ورفاهية سكان البلاد القديمة ولم يسمح لاحد بظلمهم أو تعجيزهم باي صورة من الصور وقد منع بتاتا التسلط على الاراضي التي تعود للسكان قانونيا (٢٠٩) ولم يعد بامكان السلاطين العثمانية الوقوف على تفاصيل ادارة ما لكهم حين قد اتسعت ارجائه و كثرت اشغالهم السياسية والحربية وخصوصا بعد سنة ١٦٩٩ حيث تكررت بعدئذ الانكسارات العسكرية مما قلل من نفوذ الادارة المركزية اضعف تأثيرها على الولايات فنشأ بالبلاد البعيدة عن المركز فئة من المتغلبين انتهزت الفرصة للتعدي على حقوق السكان وابتزاز اموال الرعية العثمانية ومنهم من رفع علم العصيان ونادى بالاستقلال والتاريخ العثماني يذكر لنا كثيراً من هذه الحوادث نخص بالذكر منها قيام حسين باشا والى اليمن وقره سعيد والامير فخر الدين في لبنان سنة ١٥٨٨ ومحمود باشا في البانيا و بشير باشا في حلب سنة (١٦٥٢) والشيخ ظاهر بفلسطين ومحمد علي بمصر الخ. ولم تكن الحكومة المركزية دائما عندها القوة اللازمة لقمع هذه الفتن رأسا ولذلك كانت تدخل بطريق الحيل السياسية وتعطي موقتا لاولئك العصاة صلاحية مضرة بحياة بالبلاد الاقتصادية وقد

(٢٠٩) Zinckeisen Geschichte des Osmanen Bd I p. 89

زاد مضرات هذه الادارة تفاقماً توالي نقل الوظفين والولاه من امكنتهم لكي لا يبقى لهم الوقت الكافي لتشكيل احزاب هنالك . و يظهر لنا جلياً وخامة هذا المبدأ الحادث الآتي :

اراد تجار حلب اعمار ميناء اللاذقية لانها اقرب ثغر لبلادهم وتعهدوا القيام بكل المصارفات اللازمة لذلك اذا عرفوا من المكوس مدة عشر سنوات فاجابهم باشا طرابلس الذي تعود اللاذقية لادارته .

« ما ذا يهمني (حالة اللاذقية) بعد عشر سنين فقد كنت البارحة بمرعش وربما اكون غداً في جده فلماذا احرم نفسي من الحاضر لتأمين فائدة مستقبلة لست امينا عليها » (٢١٠) وقد تشبثت الحكومة العثمانية باعطاء الولايات اقطاعاً بالالتزام مقابل تأدية سلف معين لحكومة المركز وتجهيز عدد معروف من العساكر وارسالهم الى السلطان حين اعلان الحرب وقد قسمت سوريا في بداية القرن الثامن عشر الى خمسة باشويات «١» باشوية الشام «٢» وصيدا «٣» وفلسطين «٤» وطرابلس الشام «٥» وحلب وكان هنالك اياله تدمر تحت ادارة باشا مستقل لحفظ الحدود من هجوم العربان وكذا عجلون كان يترأسها باشا مع ان ادارتها كانت تابعة لباشوية فلسطين وكان لجبل الدروز حرية نسبية منذ الامير فخر الدين بحيث يدفع للحكومة مبلغاً معيناً يعرف باسم مقطوعة ويتخلص بذلك من تجاوز

(٢١٠) Volney II 147

الولاة وتدابيرهم المالية وكان ما يدفعه في ذلك الزمن ٤٠٠٠٠ غرش

والسناجق والنواحي التي كانت منقسمة لها الباشويات كانت تعطى بالالتزام الى من يدفع للباشا اكبر مبلغ وبالنادر كان ينتخب لذلك مأموراً يجمع الضرائب لحساب الباشا (كما كان الحال مع بعلبك بعد ان التزمتها مدة عائلة حرفوش واستبدت بجمع الضرائب هنالك ارسل باشا الشام مأموراً خاصاً لجمع ضرائبها) وتسمى هذه الوظيفة اربهلق (٢١١) ويكفي ان نذكر انه لم يكن هم اولئك الولاة والملتزمين الا جمع الاموال من الرعية فقط وتحضير عساكر للحرب لنعلم مضرات هذه الاصول الادارية ونتائجها الاقتصادية ولنتكلم قليلاً عن طبيعة وكيفية الضرائب التي كانت على عاتق سوريا قبل ادخال الاصلاحات اليها

ان الاراضي السورية كانت منقسمة في بداية سلطنة الاتراك الى قسمين احدهم يدعى (ديموز) ومعناه الاراضي العائدة للجمعية واصلها كلمة يونانية والاراضي الباقية تدعى (قسم) او الاراضي العائدة للاشخاص فالاول كانت تعتبر ملكاً للحكومة وتعطى بصورة (تيار) اذا بلغت وارداتها (٣٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠) اقچه واذا بلغت وارداتها ٢٠٠٠٠ الى ١٠٠٠٠٠ اقشه تعطى حينئذ بصورة (زعامت) وصاحب التيمار والزعامت يعطي هذه الاراضي بدوره الى الفلاحين مقابل قسم معين

(٢١١) كاتب چلبي صحيفه ٨٧

منذ كره قريباً اما اراضي (القسم) فتعتبر ملكا شخصياً وليس عليها الا دفع العشر وسائر الرسومات فقط لا غير واكثر الاراضي السورية خصوصاً من الجهة الشمالية كانت اراضي (ديمز) . ويدفع مستأجروا الاراضي التي تعرف بهذا الاسم (ديمز او فصل (ومفصول) الضرائب مرتين او ثلاث مرات بالسنة : اولا حين الحصاد ثانياً حين غلة شجرة الزيتون واخيراً بعد بيع العسل او الحرير في الحال التي بها ذلك (٢١٢) وكانت الكمية التي يجب دفعها مختلفة باختلاف المناطق والباشويات حيث كان لكل منها قانونا خصوصياً تخفيض هذه الضرائب وارتفاعها ونقول بصورة عمومية ان الاراضي المزروعة حبوباً تدفع عن كل حوش ما يساوي اربعين اقچه باسم (رسم چفت) واذا كانت هذه الاراضي مزروعة اشجاراً مثمرة تدفع عن كل شجرة زيتون في سنجق دمشق اقچه واحدة وفي حماه نصف اقچه وفي كل من القدس وصفد ونابلس وحمص تقسم واردات شجر الزيتون مناصفة بين صاحب الاقطاع والفلاح وبطرابلس كل واردات شجر الزيتون عائدة لصاحب الاقطاع اما شجر التوت فعلى كل اربع منها اربعة بارات (اقچه) بالشام وكذا بالقدس (٢١٤) وكان ايضاً على اشجار العنب والتين والجوز ضرائب

---

(٢١٢) Hammer-Purgstall et staats verwaltung I 221

(٢١٤) يجب ان لا ننسى ان قيمة البارا (اقچه) في ذلك الزمن كانت عالية بحيث كان يشتري سنة ١٦٣٧ باقچه واحدة بسوريا كيلة شعير او دجاجة مطبوخة او ثلاثين الى اربعين بيضة . . .

خاصة تختلف باختلاف المناطق او حسب ظلم او عدل اصحاب الزعامة والتيمار .

اما اراضي (القسم) فكان عليها العشر وضرائب خاصة على شجر الزيتون وغيرها من الاشجار المثمرة ثم كان على الحاملات التي تنقل من الحقول الى المدن ضرائب خاصة وكانت الكسوة محلا تأخذ به من الفلاحين الداخلين الى الشام هذه الضريبة وكان هنالك ضريبة اخرى على المحصولات تسمى «رسم قبان» وذلك داخل خانات الشام وهي عبارة عن خمس بارات عن حمل من ارز واثنان بالمائة من قيمة البقول والفستق وبارتين عن حمل الخروب وسبع بارات من حمل الخيار وخمس من حمل الزيت واربعة من حمل السمسم وثلاثة من حمل الملح ونصف بارة عن كيلة اللبن ويدفع سبع بارات عن كل حمل خضرة واكثر هذه الضرائب كانت تستوفي بالشام (بخان البطيخ) ويؤخذ بارتين عن حمل المشمش وكذا عن حمل التفاح واربعة عن حمل الخوخ .

وكان على الفلاح عدا عن هذه الضرائب دفع رسوم الاغنام ثم ضريبة تعرف «بالبيعية» حين بيع الحيوان بسوق الخيل وذلك باعتبار ست بارات عن كل حصان وثمانية عن كل جمل واربعة عن كل حمار وثنتين ونصف عن كل خروف يباع بهذا السوق وكذا كان على الحرير اربع بارات عن كل رطل يباع بالشام وكان هنالك ضرائب متعددة

تعرف باسم فتوح بندر مباشريه حمام الى ان الغيت بزمن احد الولاة العادلين المدعو (محمد بك) ولم تبق في الشام في بداية القرن التاسع عشر وانما بقيت كثير منها في سائر البلاد السورية فبلدة حماه مثلا كانت تستوفي من الضرائب ما يدعى ضرائب العزبة وذلك عن كل شاب غير متزوج ستة بارات وحين الزواج عن كل ابنة بكر ٦٠ بارة وعن كل ارملة تزوجت ٣٠ بارة وكان هناك عائدات تعرف باسماء مختلفة نذكرها هنا عن سبيل الاستشهاد . في سنجاق صفد : قدوم حصاده مباشرية حمايه في سنجاق طرابلس خميسيه هدايا مباشريه رسم منشور رسم قدوم غلمانيه رسم باغچه خدمت رياست رسم خلمت في سنجاق حمص : خميسيه عيديه مباشريه رسم قدوم رسم منشور وكل هذه الضرائب والبدع رفعت في بداية القرن التاسع عشر ولكن بقيت المكوس على البضائع الخارجة من البلاد العثمانية رغم مضراتها الاقتصادية وكانت ١٠ بالمأة على التبعة العثمانية و٣ بالمأة(٢١٥) على التبعة الاجنبية وهذا مما اضر بالتجارة العثمانية لفائدة الاجانب .

وقد ذكرت الضرائب التي كانت تثقل كاهل البلاد السوريه بصورة مختصرة لما لذلك من التأثير على حياة البلاد الاقتصادية ولان الولاة كانت تنظر الى البلاد لا كنظر امين يجب فيها مراعاة الامانة بل تراها عطية

(٢٠٦) Volney 11 390

بحب الاستفادة الشخصية من ثروتها فلا عجب اذا ان تتأخر البلاد اقتصادياً [خصوصاً] لان سوريا كانت الحروب الصليبية قد انهكتها وكذا تخريب المغول وكانت بازمة تجارية على اثر اكتشاف طريق الهند البحري ويجلي لنا بوضوح مضرات الادارة التركية في سوريا بهذه الدورة ماذكره لنا السائح الافرنسي ولنه‌ى من المقايسة بين لبنان التي سلمت بمساعي الامير فخر الدين عن ادارة الباشويات الحامية وسائر الاطراف السورية ومفادها حرفياً :

« ان سكان لبنان المحفوظين من تجاوزات الادارة التركية يظهرون من النشاط الاقتصادي ما لا يمكن للمرء ان يصادفه في سائر الاطراف الشرقية وقد تمكنوا بكدهم واجتهادهم المستمر على تحويل تلك التربة الجبلية التي يسكنوها الى ارض زراعية مخصبة . مرة تراهم يجرون مياه الانهر بانواع ووسائط عديدة الى الهضاب المرتفعة لاسقائها واخرى يوجهون هذه المياه الى الاودية لريها ويجعلون منحدرات السيول مساكب افقية ليمكن بها سقي اكثر اراضيهم بحيث نرى منحدرات جبالهم تشابه درجات السلم وعلى كل منها صفوة من اشجار العنب او التوت ويبلغ عدد هذه الاشجار في بعض الاحيان من مائة الى مائة وعشرين على كل مسكبة . وعلى هذه الحالة اكثر الوديان اللبنانية منذ سفل الوادي حتى ذروة الجبل . فأمام هذا المنظر البديع نسيت نفسي وبانني موجود على ارض تركية او اذا تذكرت ذلك

ولا فتكر بما الحرية من التأثير الكبير على مقدرات الشعوب ...» (٢١٦)

وقال الكاتب چلبي عند الكلام على حمص «حمص حالاً حاكملرك ظلمندن وعربلرك اشقيالاسندن خرابدر» (٢١٧) .

ولندقق الآن زراعة وتجارة وصناعة سوريا بهذه الدورة التاريخية وتحت تأثير الادارة التي سبق الكلام عليها .

في ابتداء القرن الثامن عشر لم تزل زراعة القطن موجودة بسوريا وكذلك زراعة التوت وتربية دود القز . اما القطن فكان يزرع حينئذ باطراف الشام في (داريا) وكذا باطراف بيروت (بكسروان) (٢١٨)

واحسن انواع القطن السوري كان ينتج في اطراف الشام ويعرف (بالقطن البلدي) وكان هذا اغلى قطن في جميع سوريا (٢١٩) وكان يزرع باطراف يافا نوع من القطن الهندي ادخل اليها بواسطة التجار الاجانب وبقيت هذه الزراعة شائعة باطراف هذه البلدة حتى تأخرت على اثر اغتشاشات فلسطين عدا ذلك نرى ان القطن يزرع في البلاد الآهلة بالدروز سابقاً والواقعة ما بين صور ونهر الكلب وكان لزراعة القطن بهذه الاطراف (سنة ١٧٨٢) اهمية توازي اهمية زراعة التوت وتربية دودة القز التي كانت اهم

(٢١٦) Volney Voyage en Syrie 1784 I 272

(٢١٧) صحيفه ٥٩٠ جهان نما (٢١٨) جهان نما ٥٨٨/٥٨٦ (٢١٩) جهان نما ٥٠٠

مورد لهذه البلاد وحكى ولنه‌ى ان زراعة القطن حين سياحته كانت منتشرة في اكثر سوريا (٢٢٠) و يجلى صريحاً تقدم هذه الزراعة في سوريا وانتشارها بها ادخال محمد علي باشا من سوريا بزور القطن و معلمي زراعتها وكان يزرع القطن بسوريا بهذه الدورة عدا عن البلاد التي سبق ذكرها باطراف عكا والرملة (٢٢١) وصور وصفد وكان لقطن صفد شهرة كبيرة في البلاد و يفضله التجار الاجانب علَى قطن قبرص وقد دامت زراعة القطن في سوريا زاهرة حتى منتصف القرن التاسع عشروقد بلغت صادراتها منه سنة ١٨٥٣ ٥١٥٠٠٠ كيلو غرام وسنة ١٨٦٩ ٢١٠٠٠٠٠ كيلوغرام و بعد سنة ١٨٦٩ ابتدأت بالتأخر بمنافسة قطن مصر واميركا (٢٢٢)

اما زراعة اشجار التوت فقد قال عنها كاتب چلبي في كتابه المؤلف ١٧٣٧ للميلاد انها كانت زاهرة باطراف طرابلس وحلب و كذا كان في الشام في الصالحية محل يقال له السهم فيه كثير من هذه الاشجار التي بها يُربى دود الحرير وكان جميع الجبل المحيط بصيدا مكللا بهذه الاشجار النافعة (٢٢٣) و كذا كانت تزرع على جبل كسروان وقرب بيروت واهم زراعة اشجار التوت كانت باطراف بلدة طرابلس حيث كانت صناعـه

(٢٢٠) Volney I 288
(٢٢١) De Rozel voyage en Gerusalem «1644» page 115
(٢٢٢) Beeren Handel im 19. Jahr hundert
(٢٢٣) جهان نما ٥٨٧

تربية دود الحرير زاهرة بحيث بلغت وارداتها سنة (١٧٣٧) ٧٥٠ كيس او ما يقابل ٩٣٧٥٠٠ من الفرنكات ويعقبها اهمية المزارع الموجودة باطراف صيدا حيث كان محصولها يساوي نفس السنة ٦٠٠ كيس او ما يعادل ٦٦٩٨٦٠ من الفرنكات (٢٢٤) وحكى السائح الافرنسي ولنه‌ى انه صادف اشجار التوت باكثر اودية لبنان سنة ١٧٨٤ وذكر ان هذه الاشجار هي ثروة الدروز المقيمين بهذا الجبل وبأن الضرائب هنالك لا تجمع الا بعد غلة دودة الحرير لاهميتها بحياة البلاد الاقتصادية وحكى هذا السائح ايضاً ان زراعة التوت تأخرت بزمنه باطراف طرابلس وقد سئل السكان عن سبب هذا التأخر فاجابوه :

« هنا لا يزرع احد شجرة جديدة لأن الباشا اذا علم بذلك استدعى الزارع طمعاً بماله فيأمر بجلده طالباً منه دراهم (بلص) فاذا اجابه الى طلبه ضاعف ضربه ليحصل على اكثر واذا رفض ضاعف بضربه ايضاً ليقر بما له من الثروة (٢٢٥) واما جبل لبنان فكان كما سبق محفوظاً نوعاً ما من هذا التعدي .

وقال السائح الافرنسي بوفه — Bové الذي زار سورية سنة ١٨٣١ انه صادف باطراف بعلبك اشجار التوت زاهرة وكانت منتشرة حتى في حوران (٢٢٦) .

(٢٢٤) جهان نما ٥٨٧
[٢٢٥] Volney I 159 [٢٢٦] جهان نما ٥٦١

وكان الحرير الذي يستخرج باطراف بيروت احسن الحرير لان اشجاره هناك كانت نضرة شابه جيدة الغذاء للدود فبذلك يكون حسن الحرير وللامير فخر الدين اليد البيضاء بتقدم هذه الزراعة بانحاء بيروت والحرير الذي كان يحصل بسوريا كان يرسل منه الى الخارج والباقي يستهلك بالداخل في المصنوعات الوطنية التي كانت متقدمة بتلك الازمنه وكذا نرى ان اشجار الزيتون كانت منتشرة في سوريا بهذه الدورة التاريخية لدخول زيتها في صناعة الصابون الزاهرة وكان مركز زراعته باطراف نابلس والرملة وغزة والقدس ثم باطراف بيروت على جبل كسروان وكذا قرب طرابلس وحمص (٢٢٧) و بظاهر حلب والشام وكان لزيت كفرسوسه شهرة خاصه بتلك الازمنة وحكي وانه ي من تقدم زراعة الزيتون باطراف انطاكيه (٢٢٨) واللاذقية (٢٢٩).

واما اشجار العنب فكانت منتشرة في هذا الدور التاريخي باطراف غزه والرمله و بيروت وقال ايضاً : ان اتساع زراعة هذه الاشجار كانت حين مروره بسوريا سنة ١٧٨٤ باطراف بيروت على جبل الدروز الواقع حسب وانه ي ما بين صور ونهر الكلب حيث كانت سابقاً مساكن قبائل الدروز قبل مهاجرتها وقابل بين خمر هذه الضواحي وخمر بوردو المشهور فكانا سيان وكذا كانت هذه الزراعة متقدمة باطراف زحلة

[٢٢٧] Volney I 2e O I I 87 [٢٢٨] جهان نما ٣٦٨ الى ٣٩٣
[٢٢٩] جهان نما ٣٦٣

وطرابلس (٢٣٠)

وابتدأت سوريا بهذا الدور التاريخي ان تزرع نبتا كانت تجهله فيما سبق من الادوار التاريخية (وهو التبغ) الذي دخلت زراعته اوربا بواسطة الاسبان من اميركا ورخص بزراعته تحت شرائط معينة ادخلها قولبرت لفائدة الخزينة الافرنسيه فلا « دروزل » ولا غيره من السواح الاوروبيين يتكلمون عن وجود هذه الزراعة في سوريا حين مرورهم بها في القرن السابع ومنتصف القرن الثامن عشر وكذا الكاتب چلبي لا يأتي بذكر هذه الزراعة حتي ولنهى سنة ١٧٨٤ مما يدعنا نعتقد ان زمن ادخالها كان ما بين ١٧٥٢ و ١٧٨٤ وحيث هاسهل كيست Hass el quist السائح الاسوجي الذي زار سوريا سنة ١٧٤٩ الى ١٧٥٢ لا يذكر وجود شيء من هذه الزراعة وكانت هذه الزراعة منتشرة بزمن ولنهى باطراف سوريا الشمالية والجنوبية خصوصاً باطراف اللاذقيه وصور وكان التبغ الاولى شهرة كبيرة في مصر بحيث يرسل منه كثير الى دمياط (٢٣١) وكذا كان التبغ بلدة صور اهمية لا تقل عن الاولى خصوصاً في تركيا حيث حتي انه كان يستعمل في بلاط آل عثمان الملوكي وكان يزرع ايضاً باطراف عينتاب .

وبعد ما ذكرناه من الزراعات السورية يمكننا ان نبحث عن زراعة قصب السكر التي كان لها في القديم اهمية اقتصادية خاصة بسوريا وكان

«٢٣٠» Volney I 29o II 157 «٢٣١» Volney I 289 II 153

يزرع وقتئذ باطراف اريحا بفلسطين وقرب جنين وبيسان وكان باطراف بيروت وبجبل كسروان وقرب طرسوس (٢٣٢) .

اما زراعة الرز فقد تأخرت بهذا الدور التاريخي بسوريا وكان يأتي هذه البلاد من دمياط وجنوب افريقيا عن ثغور يافا وصيدا وبيروت وطرابلس واللاذقيه او عن طريق البر لانه كان يؤخذ عنه في بلدة غزة دخولية معينة فكانت زراعته مقصورة بسوريا على اطراف الحوله (٢٣٣)

وكانت زراعة دود القرمز باكثر السواحل وكذا النيل باطراف اريحا وكان لليمون اهمية خاصة باطراف صيدا وطرابلس خصوصاً قبل سنة ١٦٠٤ اما بعدها فقد تأخرت زراعته بسبب الاعتناء باشجار التوت اما الحبوب فكانت تزرع باكثر اطراف الداخل خصوصاً قرب المدن السالمة من تعدي الاعراب وفي جبل حوران بعدان هاجراليه كثير من سكان جبل لبنان على اثر الفتن الداخلية وقد تأخرت زراعة البقاع على اثر زلزلة حدثت به سنة ١٧٥٩ وعدا ذلك فقد اخر الزراعة حروب الشيخ الظاهر والاتراك بضواحي البقاع .

فالخلاصة ان الزراعة السورية بهذا الدور التاريخي لم يكن تقدمها على نسبة واحدة بل يختلف باختلاف الشرائط المحلية ففي لبنان وبعض الاطراف التي كانت سالمة من مظالم الحكام كانت حسنة واما البلاد التي

«٢٣٢» Volney v289   «٢٣٣» جهان نما ٦٦١-٦٨٧-٦٨٩

كانت تحت سلطة الباشويات رأساً فكانت بحالة سيئة من التأخر «٢٣٤»

ولم يكن الامن الداخلي مستتباً لتسهيل نقل التجارة بل كانت الباشويات لا تهتم لهذا الامر وكانت تسمح للاعراب التي تنهب قوافل الحج بان تبيع غنائمها قرب بلده غزة او حما وحمص ومن جملة الاسباب لهذا الاختلال الاداري قلة القوة العسكرية التي تحت سلطة الباشا لانه كان مجبوراً على اعاشتها ومن مصلحته اقلال عددها لثقل موءنتها عليه ولم يكن من المتعذر عليهم تأمين المواصلات فلو اهتموا الامر لصنعوا كما صنع عثمان باشا سنة ١٧١١ فانه اسس بالكرك معسكراً لتأمين القوافل الذاهبة من تلك الضواحي وانما لم يداوم ذلك بزمن خلفائه لانه كان كما قال الشاعر

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه   اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

وهكذا نرى اكثر الاطراف البعيدة عن المدن مقفرة لقلة الامن بها وذلك كما قال «ميرابو» « لا تزرع التربه لخصبها بل للحرية التي تكلل تلك الارض . »

وقد زاد اضرار سوء الادارة التركية هنا الفتن الداخلية التي كانت تحدث بين المركز واصحاب الدولة في الولايات حتى كان القتال يحتدم بين الباشويات فتختل المواصلات التجارية وقال البارون بوو Beauvau

«٢٣٤» D'Avety Etats Empires du monde Paris 1626
Empire des turcs en Asie page 95
Hasselquist Reise nach Gerusalem page 184

الذي زار سوريا سنة ١٦٠٤ ان المواصلات بين الشام وحلب كانت عند مروره بها منقطعة لان باشا حلب كان في قتال مع باشا دمشق (٢٣٧)

وكذا خربت بعلبك بحروب الامير يوسف الشهابي مع الجزار فقل عدد سكانها من ٥٠٠٠ شخص سنة ١٧٥١ الى ١٢٠٠ شخص سنة ١٧٨٤ وسنة ١٨٣١ لم يبق عامر في بعلبك الا بعض بيوت قليلة (٢٣٨)

وحكى السائح الافرنسي بوژولات Poujoulat الذي زار سوريا سنة ١٨٣٧ انه وجد اكثر الاراضي السورية الواقعة بين حلب وعينتاب ثم باطراف معرة النعمان وشرقي حمص متروكة (en Griche) . (٢٣٩) وقال هذا السائح ان كل ارض رآها هناك تنقصها الايادي اللازمة لاستثمارها على خصبها وجودتها .

﴿ ومما اضر بحيات سوريا الاقتصادية دخول نابوليون فلسطين حرباً وما احرقه في يافا وعكا ثم قتل سكان الأولى وتخريب اكثر بيوت الاخيرة بحيث يقول بوه Bové انه تعسر عليه ان يجد في عكا بيتاً صالحاً للسكنى به (٢٤٠) وقد حدثت نفس تلك المضرة لسوريا من حروب محمد علي باشا خديوي مصر مع السلطان محمود الثاني خصوصاً

(٢٣٧) Baron beauvau page 123
(٢٣٨) Bové 592
(٢٣٩) Poujoulat Voy. en Asie Mineur I 17,26,13ç,339
(٢٤٠) Bove p. 393.

لاستبداد ممثلي الأول بشؤون البلاد السورية واثقالهم كواهل السكان بالضرائب بحيث ان الناس تمنوا رجوع حكومة الترك مع ما كانت عليه هي ايضاً من الخشونة والقساوة كما يثبت لنا ذلك قيام سكان الرملة ضدهم سنة ١٧٦٧ وقيام اهل غزه بتلك السنة عليها وعصيان اهل يافا سنة ١٧٦٩ وقيام سكان طرابلس سنة ١٧٧٢ والحاصل ان البلاد زمن محمد علي لم تنل التقدم الاداري المطلوب

وقال – بوژولاد – ان سكان سوريا اليوم لم تزرع الا جزءاً قليلا من الاراضي القابلة للفلاحه والسبب ان الحكومة تحرم الفلاح ثمرة اتعابه ولا تترك له ما هو اللازم لتحسين ارضه الزراعية فلو اعطيتم الى حلب وملحقاتها ادارة صالحة عادلة لانمحت من صفحة الوجود هذه السفالة المادية التي تميزها اليوم (٢٤١) Poujoulat Tom II

وصادف ان هذا السائح مر بحمص في يوم اجتمع به اكثر فلاحي البلاد المجاورة لبيع محصولاتهم وبينما كان السوق غاصاً باهله والناس يبيعون ويشترون اذ بفرقة من العساكر المصرية أتت بغتة فاحاطت بالسوق وقبضت على كل رجل يصلح للخدمة العسكرية تاركة الى التصادف والنهب عائلات واراضي وثمرة اتعاب هؤلاء البؤساء وكان من البديهي ان من يصير جندياً هكذا لا يرجع لوطنه على التحقيق واحدثت

(٢٦١) Poujoulat tom II p. 18 انظر ايضاً

الادارة المصرية ضريبة جديدة بسوريا لم تكن موجودة بزمن الادارة التركية دعتها (الفرضه) وهي معادلة (الجزية) على كل سكان سوريا آباء وابناء والزمت بأداء هذه الجزية حتى عن الابناء الذين ادخلوا في سلك العسكرية او تخلصوا من شوءم تلك الحياة بالموت . و يقدر عدد الافراد الاموات او المهاجرون او المفقودون الذين اجبرت اقرباؤهم لدفع الفرضه عنهم بماءة الف نفس وقال السائح بوژولاد ان الضرائب التي وضعتها الحكومة المصرية على السوريين كانت ١٤ مثلا مما كانت عليه في زمن الاتراك . (٢٤٢) ولا عجب اذن ان نرى حدوث ثورات في حلب و بيروت وفلسطين نخص بالذكر منها قيام السامرية بادارة الشيخ كاظم احمد حتى حصروا ابراهيم باشا بالقدس واجبروه على قبول معاهدة كان من اهم بنودها :

١ – الكف عن التجنيد الاجباري
٢ – ابعاد العساكر المصرية
٣ – الغاء اصول انحصار المحصولات الزراعية
٤ – الغاء ضريبة الفرضة
٥ – ارجاع الضرائب الى ما كانت عليه بزمن عبدالله باشا

فهذه الشروط التي وضعها الفلاحون الفلسطينيون تبين لنا بصورة

Guys, relation d'un sejours à Peyrouth 1847
(٢٤٢) Poujoulat Tom II p. 338

واضحة الاسباب الداعية لهذا الاختلال على ان فلاحي سوريا يمتازون بصورة خاصة بمحبة الصلح والمسالمة . وعوضاً عن ان يطبق محمد علي هذه الشروط التي اضطر لقبولها، تمكن من قتل هذا الشيخ الثائر ومن زيادة الضرائب على اهل نابلس ومن التعدي عليهم بصورة خاصة مما ساعد في اتساع دائرة الانحطاط الزراعي وخراب الارض الزراعية القابلة في فلسطين . ومن الفوائد التي احدثتها الادارة المصرية هي الغاء اصول السباهي والزعامة قبل ان تلغيها تركيا من الولايات مما أفاد جداً زراعة القطن وحسن حالتها الاقتصادية وخصوصاً تحسين الامن العمومي والمناقلات بواسطة يده الحديدية وسهره على عملائه كما يظهر لنا ذلك كتابته الى الحكام بقوله : (لا تنسوا انكم مسؤلون برؤوسكم عن طاعة وسكون البلاد أما من خصوص الوسائل التي يجب اتخاذها فاني اعطيكم الحرية التامة) Edward la Syrie.1861

وقد امل اهالي سوريا خصوصاً الفلاحين التعساء خيراً من افول نجم محمد علي باشا وترك البلاد السورية ورجوع عدود مصر الى ضفاف النيل . وفي احدى المكاتبات التي ارسلها دروز لبنان الى سفير فرنسا سنة ١٧٤٠ يقولون بها حرفياً :

Les épouvantables vexations et l'opression la plus cruelle nous ont poussé au desespoir et ont fait revivre en nous l'ardent desir de retourner sous le gouvernement paternel du notre Auguste Souverain

ولكن هل حققت الادارة التركية آمالهم ام هل لم يكن تحسرهم ايها الامن باب اختيار اخف الشرين؟ والا كيف نعلل تلك الاختلالات التي لم يسبق ذكرها والتي حصلت في اكثر الاطراف الدوربية؟ و اذا بحثنا قليلاً نرى ان الادارة التركية بدأت منذ تبوأ السلطان محمود الثاني عرش السلطنة ان تدخل في باب التنظيمات الخيرية التي تقررت زمن السلطان عبدالمجيد بعده وكان في الحقيقة فاتحة دور جديد لحياة الادارة التركية ومقدمة وضع اساس لها غير صورتها الاسيوية الابتدائية واعطاها نوعاً من الافكار الصائبة التي نهضت بالغرب من حضيض الذل والمسكنة الى مساوي الرقي والرفاه . ولم تكن هذه الحركة في البداية الاعلى سبيل التجربة شيئاً فشيئاً ومع ذلك صادفت كثيراً من الموانع الداخلية والخارجية التي ارادت معاكستها مما يثبت لنا بان التقدم الاجتماعي والاقتصادي لا يكون بواسطة بل يكون في الغالب ضد اكثرية الهيئة الاجتماعية المتأخرة فلندقق الآن اهم هذا التجدد .

في سنة ١٨١٢ منع السلطان محمود ان تجدد الاقطاعات المنحلة في جميع المملكة العثمانية وادخلها تحت سلطة ادارة الاوقاف التي احدثها . وفي سنة ١٨٢٦ منع اعطاء الولايات بالالتزام طول الحياة وكذا منع الوالي من ان يكون نفسه ملتزماً بل اجبر على ترك هذا الى غيره (٢٤٣)

الى هذا القرار بناءً على زيادة صنف من الضرائب ... من الولاة بحيث رجعت الحالة الى ... ما كانت عليها من ... اي سوء استعمال القوة الاجرائية لفائدة المحتكرين .

ولكن ابقي قاعدة ان يسلم الوالي ادارة الولاية على ان يدفع الى الديوان مقابل ذلك مبلغاً معيناً وله ان يعوضه من واردات الولاية (٢٤٤) و بعد وفاة السلطان محمود اقتفى السلطان عبدالمجيد اثره واصدر سنة ١٨٣٩ الخط الشريف المعروف باسم كلخانه خط همايوني ، بالغاء اصول اعطاء الولايات بالالتزام وامر بتعيين موظفين ودأبهم جباية الضرائب ومرجعهم نظارة المالية المعروفة بواسطة الدفتردار ومدراء المال ولكن ما عتم ان حدث تقهقر بالافكار العمومية التي تضطرب من كل شيء جديد ولا تفكر في جنسه وفوائده وكانت تخاف ولوج طريق الأصلاحات لتوهمها انه يقود الامة للتأسف على فوات ما كان في القديم وان السلطان يسعى في هدمها واقامة شيء اجنبي مكانها فهذه الحالة الداخلية وتشبثات القونت مترنيخ Meternich لاقناع الباب العالي بان قوة الحكومة التركية ليست مبنية الاعلى مؤسساتها القومية وان بقية المؤسسات الغربية التي تولدت من شرائط اجتماعية مختلفة يمكن ان تهدد كيان الدولة ثم عدم وجود مأمورين قادرين على تحصيل الواردات باهلية وأمانة كل ذلك أدى بالحكومة العثمانية لارجاع اصول الالتزام القديم ما عدا التزام واردات المكوس فانها بقيت تحت ادارة الحكومة رأساً ويمكننا ان نتصور شدة التصعوبات التي كانت تصادف هذا الانقلاب مما كتبه بخط يده السلطان

(٢٤٤) Arslanian, Grudeigentum im Osmanichen Reiches 8183 p. 45.

عبدالمجيد مما يظهر علو فكار هذا السلطان واليك تعريبه ·

« لا يمكن ان نكر انني رغم كل العنايـة التي اظهرتها لتحقيق ذاياتي لم احصل على النتائج التي كنت أؤمل تحقيقها ماعدا التنظيمات العسكرية وحتى ان هذه التنظيمات المذكورة ايضاً تفتقر الى اساس متين تستنـد عليه : اعني رفاهية البلاد العمومية · وانا من جراء ذلك بحزن عميق، وعليه آمرك يا وزيري انت وكل وزرائي بان تفـتكروا ،بان تتناقشوا باتفاق العواطف في كل ما يجب اجرائه لتأمين منافع الرفاهية المادية لرعيتي ···· (٢٤٥) »

ومع ذلك كثرت بعدئذ الشكايات ضـد اصول الالتزام (٢) خصوصاً في الولايات الاوروبية واجبرت تركيا تحت تأثير الافكار العمومية الاوروبية الى الغائها هناك وسنة ١٨٦٤· اسست في لبنان ادارة خاصة تحت سلطة متصرف معين من طرف الباب العالي وبتصديق الدول التي امضت المقررات العائدة لنظام لبنان بتاريخ ٩ حزيران ١٨٦١ واهم اصول تنظيمات الولايات التي اعقبت سنة ١٨٦٤ كانت مقتبسة من مؤسسات فرانسا الادارية وبعد ذلك اتسعت فكرة فوائد الغاء الالتزام واتخذت اصول تعيين ولاة موظفين بمعاشات مخصصة بحيث لم يبق اثنـاء ١٨٧٠ ولا ولاية على طريقة الالتزام ومما يجلب النظر ان اهم المعترضين على

(٢٤٥) Engelhardt la Turquie et le Tanzimat Paris 1883 Bd l p. 75

هذه الاصلاحات كانوا الصيارفة الذين استخدموا روؤس اموالهم مع سلطة الحكومة لسلب الرعايا ثمرات اتعابهم وكدهم ولم تكتف الحكومة بتحسين اصول جباية الضرائب بل سعت لاصلاح الضرائب نفسها فالغى ما كان مضراً منها، كالجزية على الرعايا سنة ١٨٥٦ ثم عينت ضريبة الفلاح بصورة معروفة نسقها واحد فجعلت عليه لكل محل في البداية عشر المحصول ثم ١١ في المأة ثم ثمن المحصول ثم اذا اخرج الى البلاد الاجنبية ثلاثة بالمأة بحيث يكون المجموع ٢٣ في المابة وعدا عن ذلك ويركو مقرر على الارض يوؤخذ عيناً و ينقل ذلك الى المخازن المعينة وكان على المحصولات الداخلة الى المدينة ضريبة ٩ في المابة اما زراعة التبغ والافيون فكان عليها دفع العشر نقداً الا اذا رأى الفلاح ان الثمن الذي يعينه المختار او المحصول يفوق ثمن التبغ او الافيون الحقيقي فحينئذ يمكن دفعه عيناً ومن هنا نشأ ضرورة تعيين مساحة الارض فوضع اربعة في المابة لسد المصارفات اللازمة لاجراء المساحات في بعض الاطراف سنة ١٨٥٢ الى ١٧٨٠ و بعد ذلك الغيت الزيادة ولكن رفعت ضريبة العشر من ١٠ الى ١١ ثم الى الثمن كما ذكرنا و بعده الغيت المكوس التي كانت على البضائع المنقولة في الداخل براً (وليس بحراً) اما يسافر به بحراً فتوضع عليها ثمانية بالمأه عوضاً عن ثلاثة في المابة (٢٤٦) وهكذا كانت حالة الزراعة والزراع

(٢٤٦) Guys p. 35-36

السوريين في بداية ترعة السويس ولنلفت انظارنا الآن الى الحالة التجارية ثم الصناعية في هذا الدور التاريخي :

رغم اكتشاف طريق الهند البحري من طرف البرتغال (كما ذكرنا) لم تفقد سوريا بعض الاهمية التجارية التي كانت لها نظراً لموقعها الجغرافي بين الهند والبحر المتوسط خصوصاً لعدم تمكن البرتغاليين من الاستفادة من مستعمراتها الهندية والافريقية ولوقوع ادارة مملكتهم سنة ١٨٥٠ بيد فيليب الثاني ملك اسبانيا وابن عم شارلكان . اما الاسبانيون فكان اشتغالهم الدائم باملاكهم الاميركية الواسعة يمنعهم عن الاستفادة من طريق الهند البحري الذي فتحته امامهم سياحات البرتغال . ومن الدلائل على علاقة سوريا بتجارة الهند بعد اكتشاف الطريق البحري ان كل ملة اوروبية (ما عدا البرتغال) لها اراض واسواق تجارية في الهند كانت لها ايضاً بيوت تجاريه وقناصل في سوريا (اولاً الهولنديين ثم الافرنسيين ثم الانكليز) ولكن لا نعني بذلك ان سوريا حافظت في هذه الدورة التاريخية على كل تلك الفوائد المادية الآتية لها من تجارة الترانسيت بل بالعكس كما سنبين انه رغم بعض التحسنات الوقتيه كانت احوال سوريا التجارية بسقوط متوالي حتى نهضتها الزراعية قد تاثرت من هذا الانحطاط الاقتصادي

اما اسباب سقوط تجارة الترانسيت فليست منحصرة باكتشاف طريق الهند البحري بل هناك اسباب اخرى يجب ان لا ننساها منها كثرة

المكوس على البضائع المارة بالاراضي السورية امام كل بلدة وولاية مما رفع اسعار قيمة البضائع وساعد الاوروبيين للاتيان بها عن طريق البحر وخصوصاً وضعهم ضريبة كبيرة على الوطنيين ثم عجز الحكومة التركية من مكافحة القرصان الذين كانوا ينهبون السفن التجارية على السواحل السورية والخلاصة ان سوء الادارة وضعفها وقلة الامن والاختلال والطاعون في سوريا اولاً ثم انتشار الصناعة في اوروبا على اثر الحروب الصليبية (مما قلل احتياجهم لبعض المصنوعات الحريرية والقطنية التي كانوا يأتون بها من مصر وسوريا والهند) ، واخيراً اتساع الاستفادة من اراضي اميركا كل ذلك اضر بالتجارة السورية.

ولم تكن الطرق صالحة للتجارة بل ان مصارفات نقل البضائع كانت تساوي داخلاً ١٥٠ الى ١٦٠ بالمائة من قيمة البضاعة وعلى الساحل ٥٠ بالمائة فمستعمرات الغرب الواسعة التي ضمنت لتلك البلاد كثيراً من المواد الابتدائية والبهارات وغير ذلك كالقهوة والقطن التي تأتيهم من آسيا قللت من البضائع التي كانت تمر من طريق سوريا او بمعنى آخر سببت انتقال مركز العلاقات التجارية من البحر المتوسط الى البحر المحيط الاطلانتيكي فازداد الضرر وكانت من الجملة الدواعي التي اثرت على هبوط تجارة الترانسيت (المرور) المارة بسوريا رغم نهضتها الزراعية وتحسين الادارة على اثر الاصلاحات المار ذكرها في بداية هذا البحث وقليل من البضائع التي

كانت ترد لاوروبا براً ابتدأت ان تبحر من طرابزون على ساحل البحر الاسود عوضاً عن اي ثغر سوري (٢٠٧).

لقد بينا في بحثنا السابق حالة سوريا التجارية حتى القرن السادس عشر فلندقق الآن حالتها في القرن السابع عشر والثامن عشر وابتداء القرن التاسع عشر :

اول ما يجلب انظارنا في هذه الدورة التاريخية تحول مركز التجارة السورية من بلدة حلب الى بلدة دمشق ويمكننا ان نعتبر سنة ١٧٧٥ مبدأ سقوط هذه البلدة سقوطاً تجاريا حيث انه قبل ذلك قال عنها السائح دوروزه‌ل De Rozel الذي زار سوريا سنة ١٦٤٤ للميلاد .

Alep la plus belle ville et plus marchsndes qu'aye le grand Seigneur etant d'obord de Tous nations est el'ya la le consul de la France pour la Syrie nommé
Ange Bonnin qui a son vics consul à Tripoli nommé
Louis Gautier aussy est-elle la principale de cette provnice de Syrie . (٢٤٨)

وكذا يقول (يوسف بسون — Joseph Beson) الذي وجد في سوريا بزمن دوروزه‌ل تقريباً .

Alep est la principle de la Syrie pour l'etendu du Commerce (٢٤٩)

وفي يدنا بعض الاعداد عن واردات وصادرات حلب منذ سنة ١٧٧٥ تثبت لنا بصورة واضحة تأخر تجارتها خصوصاً مع فرانسا :

(٢٤٧) Gujs p.58 (٢٤٨) Du Rozel p. 19 (٢٤٨) Besson p. 18

اصدارات حلب الى فرنسا فرنك	واردات حلب من فرنسا فرنك	سنة
٩،١٦٢،٦٣٩	٨،٥٣١،٥٤٤	١٧٧٥
ومتوسط في السنة ٣٤٨٠٠ ٠	٦:٢ ٠٠٠	من ١٧٨٠ الى ١٧٩٢
« « « ١٥٤٨٠٥٨	« ٣١٣٤٧٨٥	١٨١٥ — ١٨٢٢
« « « ٠٦٧٦٨٠	« ٢٢٤١٤٣٠	١٨٣٥ — ١٨٤٠
« « « ٩٨٤،٧٤٥	« ٨٠٧،١٥٠	١٨٤٠ — ١٨٤٦

(٢٥٠) .

ومن جملة الاسباب لسقوط تجارتها ايضاً عدا ما ذكرناه الزلزلة التي حدثت بها والامراض ودخول دمشق بارتباط تجاري رأساً مع بغداد ولا ننسى ان هجوم نابوليون على فلسطين ومعاكسة الادارة لتجارة الافرنسية جواباً لهذا التجاوز كان من جملة المؤثرات التي تستحق الذكر .

وكانت اهمية حلب التجارية في سنة ١٧٤٠ الى سنة ١٧٥٠ كبيرة حتى ان سكانها كانوا يستعملون الحمام لأرسال الاخبار بينها و بين بغداد ثم بينها و بين اسكندرون من جهة أخرى . وقال السائح الافرنسي بوژولاد — Poujoulad الذى زارها سنة ١٨٣١ انها كانت قبل ثلاثين سنة بعد القاهرة والاستانة اهم بلدة في تركيا وقد كانت مخزناً هاماً لتجارة الهند والعجم وتركيا واوروبا فكان يذهب اربعة قوافل في السنة منها

(٢٥٠) Guys p. 155

الي اشهر البلدان وتوزع بها البضائع المتنوعه ولذلك كانوا يسمونها « تدمر الجديدة
Poujoulad Tom P: 16 « La Nouvelle Palmyre

وكما تظهر الارقام المتقدمه ان سقوط تجارتها لم يكن الا قليلا في البداية ثم اسرع منذ سنة ١٨١٥ وهكذا نرى ان وولنهى الذي زارها سنة ١٧٨٤ لم يلاحظ تأخرها البطيء ووجدها في حالة تجارية حسنة مع بغداد وديار بكر والشام ومصر ومكة واوروبا بواسطة ثغري اسكندرون واللاذقية وحكى بانها كانت تدخل الجلود وصوف الماعز والسمن من الاناضول ومن بلاد الكرد (العفص – Noix de Galle) ومن الهند الشال . اما واردها من اوروبا فكان سنة ١٧٨٤ الاقمشة من (لانغه دوق – Langeduc) ، ودودة القرمز والنيل والسكر والفلفل والقهوة من اميركا .

وكان فيها تلك السنة سبع بيوت تجارية افرنسية وبيتين انكليزيين وبيتين بندقيين (٢٥١) وبيت واحد هوللاندي (٢٥٢) وفي بداية القرن التاسع عشر ١٨٠٨ – ١٨١٨ كانت حالة حلب التجارية كما يأتي:

٢٤٩٤٥٥٠٠ غرش واردات من بغداد والعجم والهند تنقسم كالآتي :

٦٠٠٠٠٠٠ غرش موسلين نوع عادي بقيمة القطعة $\frac{\text{غرش}}{٣٠}$ ٢٠٠٠٠٠ قطعة

٦٠٠٠٠٠٠ « « « جيد « « ٤٠ : ١٥٠٠٠٠ :

(٢٥١) كان هناك في القرون الوسطى ٤٠ مكتب تجاري بندقي
(La Syrie Commerciale p. 32)

(٢٥٢) Volney Tom II p. 139

١٢٠،٠٠٠ « موصلين مخطط بالحرير قيمة القطعه : ٣ : غروش. . . ٢٠٠ قطعه

١٨،٠٠٠ « قماش نصف قطن ونصف حرير بقيمة القطعة ١٩ . . . ٦٦،٠٠٠ :

٥٠،٠٠٠ « « من السواد Swate

١٢٠،٠٠٠ « خيوط قطن من السواد

٤٠،٠٠٠ : : من بغداد

٢٠،٠٠٠ : اقمشة متنوعة من بغداد والعجم

٧٨٠،٠٠٠ : قهوة من اليمن (١٣٠٠ حمل)

٢،٠٠٠،٠٠٠ نيل (٥٠٠ حمل)

٣٢٠،٠٠٠ تنباك من بغداد (١٦٠٠ حمل

١٧٥،٠٠٠ « من العجم

٣٢،٥٠٠ بهارات من الهند

٣٠،٠٠٠ شال من كاشمير (١٠٠ قطعة)

٥٠،٠٠٠ باركانه من العجم Barkhanè

وكانت حلب ترسل مقابل ذلك اما دراهم من ضرب سكة بندقية او مجرية او المانية (تالار) اواسبانية اواستانبولية وذلك مايقابل ثلاثة ارباع اما الربع الباقي فترسل عوضاً عنه اقمشة من مصنوعات حلب وغيرها وتستورد من فرانسا الاطلس ، والورق ، ودودة القرمز ، والجوخ .

وعدا عن ذلك فانه كان يأتي الشام عن طريق طوقات . ملاطيه . حسن منصور . سيواس . خربوط . ارضروم . طرابزون بضائع بقيمة : ٤٤٧،٧٠٠ غرش يفصل كما يأتي .

٧٢،٠٠٠ نحاس (ملاطية . حسن منصور . سيواس . خربوط)

٧٢٠٠٠	تابع
١٧،٥٠٠	اثمار يابسة
٤٢،٠٠٠	خيوط قطنية
٧،٢٠٠	نسيج قنب
٧٥،٠٠٠	(من ارضروم وطربزون)
١٤٠،٠٠٠	شمع اصفر « «
١٢٠،٠٠٠	كتان
٩٠٠٠٠	جلود مدبوغة
٤٤٧،٧٠٠	المجموع

وكان يرد عدا عن ذلك من دمشق الى حلب بضائع بقيمه ١٨٨١٢٥٠ غرش (٩٩٠٠٠٠ قطن ٧٥٠٠٠ آلاجه ٣٠٠٠٠ مرور ٧٥٠٠ كفرحر) ٥٠٠٠ زنجفر ٢٠٠٠٠ شمع ١٨٧٥٠ أثمار يابسة ١٥٠٠٠ قمر الدين ٧٢٠٠٠ عروق الصباغين) وكانت تدخل حلب من الولايات الثمانية المجاورة حرير بقيمة ٥٣٥٠٠٠٠ غرش تقسم كما يأتي : (بروسه ١٨٠٠٠ : طوقات مليون غرش بيروت كسروان سبعة ملايين غرش قبرص طرابلس صافيتا كفرون صور ثمانماية وخمسون الف غرش تستهلك بالبلاد ما عدا حرير بقيمة ١١٠٠٠٠ ترسل الى بغداد ومصر)

اما صادراتها فكانت كما يأتي :

مليونين ومأتين وخمسون غرش آلاجه (مائة وثمانون الف قطعة سعر اثنى عشر غرش ، ونصف)

٢٢٥٠٠٠٠ تابع

٧٢٠٠٠٠ « اقمشة حريرية متنوعة الاجناس

٤٠٠٠٠٠ « موسلين وسائر اقمشة الهند

٢٢٥٠٠٠ « خيوط قطنية من

٢٠٠٠٠٠ « قهوة (٢٠٠ حمل بسعر ١٠٠٠ غرش

٣٠٠٠٠ « تنباك عجمي

٧٥٠٠٠ « زنانير حماه ٥٠ حمل

٣٩٠٠٠٠٠ المجموع (١)

ثم بواسطة ارساليات خاصة الى الأستانه رأساً

شال كاشمر	٢١٠٠٠٠	٦٢٠٠٠٠ (٢)
لؤلؤ البحرين	٣٧٥٠٠٠	
عود الهند	٢٥٠٠٠	
مسك	١٠٠٠٠	

٤٥٢٠٠٠٠ مجموع (١) و (٢)

زد على ذلك ما ترسله معامل الصابون الحلبية وذلك بقيمة :

٣٤٦٦٦ غرش الى بغداد

٦٣٣٣٣ « « الموصل

١٠٤٩٦٠٠٠ « « سائر تركيا

١٢٩٩٩٩٩ غرش

بلاد آسيا المتوسطة والهند

ونرى ان مجموع ما يدخل حلب سنة ١٨٣٥ من فرنسا وانكلترا وايطاليا لم يتجاوز سنة ١٥٧٥ مايساوي ٨٥٣١٥٤٤ من الفرنكات ومن هذه الادخالات كان يخص فرنسا فقط ١٤٧٨٢٠٠ فرنك تقسم كما يأتي :

٦٤٤٥٠٠	فرنك	اقمشة
١٦٨٠٠٠	»	دودة القرمز
١٤٨٠٠٠	»	سكر
١١٦٠٠٠	»	قهوة
٤٠١٧٠٠	»	متنوعة
١٤٧٨٢٠٠	»	المجموع

اما اصداراتها العمومية فلم تزد سنة ١٨٣٥ عن ٣٢٧٩٢٠٠ فرنكا وقد ذكرنا ما تصدرها الى فرنسا سنة ١٧٧٥ بلغ تسعة ملايين فرنك مع ان اصداراتها اليها في هذه السنة لم تزد عن ١٣٠٧٩٠٠ فرنك تقسم كما يأتي :

٧٥٠٠٠	عفص (غدد)
٢٥٤٠٠٠	قطن وصوف
٢٥٠٠٠٠	حرير
٩٠٠	بضائع مذهبة وفضية
٤٤٩٠٠	متنوعة .. (٢٥٣)

اما علاقة حلب التجارية مع انكلترا فلم تكن بنفس الانحطاط الذي يميز التجارة الافرنسية خصوصاً منذ سنة ١٨٣٠ اذنرى تجارتها بتقدم ظاهر حتى سنة ١٨٣٤ وثم ترجع الى حالة سنة ١٨٣٠ فتبقى بـ ـامـنـة ١٨٣٥ وتزيد سنة ١٨٣٦ عن امثـال سنة ١٨٣٠ والجاول الآتي يظهر لنا هذه الحركة التجارية بصورة واضحة :

(٢٥٣) Houry p. 73-77

ادخال حلب من انكلترا من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٣٦

البضائع	١٨٣٠	١٨٣١	١٨٣٢	١٨٣٣	١٨٣٤	١٨٣٥	١٨٣٦	١٨٣٧
غروش اقمشه	١٤٠٠٠،٠٠٠	٤٤٣٠٠،٠٠٠	٧٤٥٠٠،٠٠٠	٤٤٦٠٠،٠٠٠	٣٤٧٠٠،٠٠٠	١٠٤٠٠،٠٠٠	١٠٨٠٠،٠٠٠	٤٤٩٠٠،٠٠٠
« خيوط قطنيه	٤٤٠٦٠،٠٠٠	١١٤٤٠،٠٠٠	١١٤٤٨٠،٠٠٠	٢٤٧٠٠،٠٠٠	٢٤٣٠٠،٠٠٠	٢٤٢٠٠،٠٠٠	٢٤٦٠٠،٠٠٠	٢٤٢٥٠،٠٠٠
« موصلين	٣٢٥٠،٠٠٠	٤٠٠،٠٠٠	٥٩٥٠،٠٠٠	٨٥٠،٠٠٠	٦١٠،٠٠٠	٥٣٥٠،٠٠٠	٥٦٠،٠٠٠	٢٣٠،٠٠٠
« محارم	٩٠،٠٠٠	١٣٠،٠٠٠	١٦٠،٠٠٠	١٨٠،٠٠٠	٢٣٠،٠٠٠	١٤٠،٠٠٠	٨٧٠،٠٠٠	٢٧٠،٠٠٠
« سكر	٩٦٠٠٠	٥٤٠٠٠٠	١٢٤٠٠٠	٣٦٠٠٠٠	٢٤٤٠٠٠	٢٢٨٠٠٠	٤٨٠،٠٠٠	٤٩٠،٠٠٠
« دودة القرمز	٣٢٥٠٠٠٠	٦٣٧٠٠٠٠	٩١٥٠٠٠٠	٧٨٠٠٠٠	٩١٥٠٠٠٠	١٤٠٥٠٠٠٠	٩٧٥٠٠٠٠	١٤ ٥ ٠٠٠
« النيل	١٣٥٠٠٠٠	١٣٣٠٠٠٠	١٩٢٥٠٠٠	١١١٥٠٠٠٠	٢٢٠٠٠٠	١٤٨٠٠٠٠	١٤٦٥٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠
٠	٧٤٢٦٠٠٠	٨١٥١٠٠٠	١٢٢٧٧٤٠٠٠	٩٢٢١٤٠٠٠	٧٩٩٩٠٠٠	٧٩٥٣٠٠٠	١٦٩٨٥٠٠٠	٩٦٩٠٠٠

ونرى تفوق التجارة لانكليزية في سائر الملل بالاعداد الآتية في سنتي ١٨٣٦ و ١٨٣٧ جمعاً اصدرت الى حلب:

انكلترا ٦٦٠٦٠،٤٢٥ غروش
فرانسا ٧٠١٣٢،٠٩٠ :
ايطاليا ٥٤٠٦٣،٣٧٥ :
آلمانيا ٢٤٠٢٤٤،٠٠٠ :

ولم تكن كل هذه البضائع خاصة بحلب بل ان النصف كان لهذه الولاية والنصف الآخر كان يرسل الى اورفه وموصل وبغداد (٢٥٤) وبقيت هذه الرئاسة الانكليزية التجارية في حلب رغم تأخرها الظاهر سنة ١٨٣٧ وفي السنين الآتية وهكذا كانت قيمة البضائع المرسلة اليها سنة ١٨٤٥ – ١٨٤٦ كما يأتي:

٣٣٧٢٥٠٠ فرنك من انكلترا
٨٤٩٤٣٩٠ : من فرانسا
٤٨٦٤٣٠٠ : من طوسقانا
١٤٢٩٠٤٣٠ : من تركيا

(٢٥٤) Houry p. 77

اما مجموع واردات حلب فقد بلغت في هذه السنة ٦٢٩٦٦١٩٠ فرنكا وهذا معادلا لما كانت تدخله اليها فرنسا وحدها سنة ١٧٨٣ الى ١٧٩٢ (وذلك ٦٢٥٠٠٠٠) واهم ما كان يدخل حلب من البلاد الاجنبيه متوسطاً سنتي ١٨٤٥ الى ١٨٤٦ الاقمشة القطنية التي بلغت ٢٣١٧٦٠٠ فرنك من فرنسا بقيمة ١٣٧٥٠٠ فرنك) زد على ذلك الاقمشة الحريرية بقيمة ٥٩١٥٠ فرنك (من فرنسا ١٩٢٧٠ فرنك) ثم يعقبها القطن بقيمة ٨٥٦٠٠ فرنك ونرى هنا تأثير تأخر الزراعة على اثر حروب تركيا مع مصر ومغيرات الاصول الاداري وقلة الايادي اللازمة لزراعة القطن التي تحتاج الى كثيراً منها للاعتناء بزرعه والعناية بقطفه كما ان زراعة الحبوب لم تكن حسنه بحيث نرى حلب تدخل طحيناً بقيمة ٧١٣٠٠٠ فرنك وبعده تأتي دودة القرمز بقيمة ٤١٦٦٧٥ فرنك ثم الاقمشه (الجوخ) بقيمة ٣٠٩٠٠٠ فرنك (٢٥٣٠٠٠ من فرنسا) ثم القهوة بقيمة ٢٢١٤٧٠ فرنك (٦٩٦٠٠ من فرنسا) والسكر بقيمة ٢١٥٦٧٠ فرنك (٥٠٠٠٠ من فرنسا) والنيل بقيمة ٢١٨٥٠٠ فرنك (١٣١٠٠ فرنك من فرنسا) وطرابين بقيمة ١٨٦٥٦٠ فرنك (٧٥٠٠ فرنك من فرنسا) ثم الادوية بقيمة ٨٧٢٢٠ فرنك (٢١٧٢٠ من فرنسا) والبهارات بقيمة ٦١٨٧٠ فرنك (١١٧٢٠ من فرنسا) ثم بضائع متنوعة حتى ٢٦٠٠ فرنك اخص بالذكر منها الزجاج والحديد والفولاذ

اما صادرات حلب بهـذه السنة (١٨٤٥-٤٥) فقد بلغت جمعاً ٣٠٣٤٤٣٠ فرنك منها ١٠٢٢٧٧٠ الى فرنسا . واهم هـذه الاصدارات قيمة كانت العفص (العفص) بقيمة ٦٨٧١٨٠ فرنك منها ٢٨٠٠٥٠ الى فرنسا ثم الصوف بقيمة ٣٦٧٧٤٠ (١٣٢٩٨٠ الى فرنسا) ثم مصنوعات ذهبية وفضية بقيمة ٦٤٨٠٠٠ فرنك وسمسم بقيمة ١٢١٩٠٠ فرنك (منها ١١٦٦٠٠ الى فرنسا) ثم لاسفنج بقيمه ٢٧٩٣٠ فرنك فكانت هذه كلها ترسل الى فرنسا والجلود القديمة بما قيمته ١١٦٦٠ فرك (منها ٦٣٨٠ الى فرنسا) والقطن بقيمة ٢٩٨٠٠ فرنك (منها ٢٧١٠٠ الى فرنسا) وبضائع متنوعة بما قيمته ٧٩٠٣٠ فرنك زد على ذلك البضائع الصادرة من انطاكيه عن ثغر بيروت الى اوروبا (٢٥٥)

ويجب ان لا ننسى ايضاً ان حلب كانت ترسل غير ما ذكر اعلاه الى الاناضول ومصر كثيراً من انتاجاتها الصناعيـة كالصابون والاقمشه الحريرية وغيرها التي لم تذكر بهذه الاعداد .

ومما يجلب النظر هنا هو طفيـة القطن المرسل من حلب الى البلاد الاجنبية التي لم تزد في هذه السنين على ثلاثين الف فرنك بينما كانت سنة ١٨٤٤ : ٥٤٠٢١٣ فرنك وبوجه لعموم كانت حلب بتأخر اقتصادي مع الافتقار الى الايد العاملة في كل محل ويمكننا ان نتصور حالتها اذا علمنا انها كان بها

(٢٥٥) Gujs p. 166

سنة ١٦٥٢ ٢٠٠٠٠٠ من السكان (٢٥٦) منها ٢٠٠٠٠ ارمني و ١٠٠٠٠ يوناني ثم ١٠٠٠٠ نصيري والباقي مسلمون وقد قدر سكانها سنة ١٧٨٤ باقل من ذلك بكثير وروسو القونصل الافرنسي بحلب لم يجد بها سنة ١٨١٩ غير ١٥٠٠٠٠ والسائح بوژولاد Poujoulad يقول ان عدد سكانها ٧٠٠٠٠ (٢٥٧) ولم يكن بحلب في منتصف القرن التاسع عشر الا ٦٠٠٠٠ نسمة فقط . و يصف لنا غوى Guys حلب كما يأتي: (وقد كان في منتصف القرن الثامن عشر في سوريا :)

« اي طريق سلكناه للوصول الى بلدة حلب فلا نشاهد الا اراض غير مفلوحة واذا تغيرت المناظر ببعض الاشجار فذلك باطراف القرى = اذا امكننا ان ندعي بهذا الاسم كل من الاكواخ الحقيرة = وحين يقترب المرء من المدينة يرى كثيراً من الاقنية المهملة التي بامكانها خدمة الزراعة . »

و بعد ان تكلم عن قلة السكان وقال ان اسباب ذلك ظلم الحكام وهجوم البدو ونهب الاكراد يداوم :

« و ببلدة حلب نفسها لا يصادف المرء الا ابنية خربة وكثير من الاعمدة التي تزين ظاهرها من بعيد ليست الا آثار عمارات تهدمت اركانها ولا تحيط الا ببيوت سقطت سقوفها . »

(٢٥٦) Besson La Syrie et la terre sainte au xvll siecle p. 16,47
(٢٥٧) Poujoulad p. 17

بعد ان تكلمنا عن مدينة حلب في هذا الدور التاريخي آن لنا ان ندقق الآن حالة ثغور طرابلس ، واللاذقية واسكندرون وقد بينا في بحثنا السابق اهمية طرابلس التجارية كفرضة لحلب ولأكثر بلاد الداخلية والزراعية والصناعية كحمص وحما ونقول انها حافظت على قسم من موقعها الاقتصادي في منتصف القرن الثامن عشر فالبارون بوڤو Bauveau يخبرنا انه صادف بها اثناء سياحته (سنة ١٦٠٤) معتمداً افرنسيا وفندقين لسكنى تجارهم وانه كان هناك للانكليز والبنادقة فندق وقال ان هذه البلدة غنية بالقطن والحرير واخراج (القلى) الى ونديك لتستعمل في معامل الصابون والزجاج (٢٥٨) . وقال عنها دروزهل

Tripolie est le principale port de la Syrie et qui etais autrefoie le meilleur de tous le Levant » ٢٥٩

وكذا بسون الذي زارها في منتصف سنة ١٦٥٠ يقول عنها :

Tripolie aprés Alep et Damas le plus peuplé de laSyrie٢٦٠

ومما ذكرنا ان طرابلس لم تحافظ الا على قسم من اهميتها التجارية وكانت في هذه الدورة التاريخية بمناقشة اقتصادية مع اللاذقيه ولو كان لهذه الاخيرة مرفأ امين لفاقتها اهمية بسرعة زائدة وقد تشبث التجار باعمار المرفأ من نفقتهم بشرط ان يعفوا من الضرائب مدة من الزمن فلم يساعدهم الوالي على ذلك . ولكن اهمية اللاذقية التجارية

(٢٥٩) Du Rozel 18 (٢٦٠) Besson page 85

بقيت منحصرة مع دمياط التي كانت تخرج اليها القطن والزبت والدخان
وتدخل منها كمية مهمة من الارز . والسائح الاسوجي (Hasselquiste)
حكى انه رأى بمرفأ دمياط سنة ١٧٤٩ سفنا سورية متعددة ومائتي
تاجر سوري من ذوي الثروة « ٢٦١ » . اما طرابلس فبقيت فرضة
حلب والداخلية ولكن تأخر تجارة هذه البلدة مع فرنسا أفقد
طرابلس اهميتها خصوصاً بعد ان ظهرت لها منافسة جديدة لا تقابل بمنافسة
اللاذقيه السابقة؛ اعني اتساع تجارة بلدة بيروت التي لها مرفأ وان كان قبل
تعميره قابل السفن لا يقابل بمرفأ اللاذقيه الصغير اما اسكندرون فهي
المنفذ الطبيعي لحلب نظراً لقرب مأمنها ولحسن مرفأها الذي هو احسن ثغر على
طول السواحل السورية هذا اذا صرفنا النظر عن الرياح الشديده التي
تعصف في اشهر الشتاء والتي فقدت اهميتها نظراً لكبر البواخر الحديديه
وشدة مقاومتها الامواج بالنسبة للسفن الشراعيه القديمه ومن الاسباب التي
حالت دون تقدم اسكندرون الاقتصادي في الماضي : فساد هوائها و كثرة
انتشار الحميات بسبب ما يحيط بالبلدة من المستنقعات المضرة . وايضاً
وجود قبائل من الاكراد على الطريق الذي كان يربطها بحلب وكانت
القبائل تسلب اكثر القوافل التجاريه المتوجهة اليها ولذلك كان

(٢٦١) Hasselquis te Reise nach Palestin 131, 135

تجار حلب يجعلون اهمية للاذقيه وان كانت الطرق اليها ابعد من غيرها وذلك لامن طرقها رغم ان هذا ابعد من طريق حلب — اسكندرون وحتى كانوا يفضلون طريق حلب — طرابلس : على الطريق المذكور ويظهر انا جلياً تأخر تجارة طرابلس اذا علمنا ان عدد سكانها سنة ١٧٨٤ لم يتجاوز الخمسة آلاف نفس اى ما يعادل سكان اللاذقيه بذلك التاريخ وحتى كانوا اقل من سكان بيروت الذين بلغوا في ذلك الزمن ستة آلاف نفس (٢٦٢))

(ولم تكن بيروت حينئذ مرتبطة بالبلاد الداخليه الا عن طريق بعلبك فقط (٢٦٣) اما دمشق فكان ثغرها صيدا. وهنا يهمنا ان نتذكر الصعوبات التي وقفت مدة طويلة امام تقدم بيروت كقلة المياه الصالحة للشرب ، وحيلولة جبل لبنان بينها وبين ملحقاتها مما يصعب به تمهيد طريق يربطها مع الداخلية ومنافسة صيدا التي كانت مربوطة بواسطة طريق مع البقاع والداخلية وبها المياه والرياض ونرى ان بيروت لم تتقدم بعدد سكانها الا ببطئ رغم تقدم تجارتها فقد قال الدكتور موربورغ Morporg ان بيروت كانت سنة ١٨٠٨ بعد حلب والشام اهم بلدة سوريه تجاريه بحراً وانه لم يكن بها من البنيان ما

(٢٦٢) Volney tom 11 page 160 et 193
(٢٦٣) جهان نما صحيفه ٥٩٠

يستوعب اكثر من سبعة آلاف نسمه « ٢٦٤ » ورغم تقدمها التجاري الذي سنذكره تفصيلا لم يكن بها سنة ١٨٣٦ اكثر من عشرة آلاف من السكان ثم سنة ١٨٥٨ بلغت العشرين الفا بعدما كانت سنة ١٨٤٦ ١٩١٢٠ اما صادراتها ووارداتها يومئذ حسب هوري Houry مابين عشرة الى اثني عشر مليون من الفرنكات « ٢٦٥ »

واهم ما كانت تتجر به الحرير نظراً لحسنه وتفوقه على حرير طرابلس الخشن والاعداد الاتيه تبين لنا تقدم تجارتها بالحرير في بحر السنين الآتية :

(والنمسا وفرنسا منهم لمصر) ، فرنك سنة

(وسائره ١٦٠٠٠٠ ٣٦٢٤٥٠ ٥٤٥٢٢٠) ٩٣٢١٥٠ ١٨٣٣

و(طوسقانا مصر لفرانسا)

(٢٦٣٠٠٠ ١٢٢٦٠٠٠ ١٣٠٢٣٠٠) ٢٩٢١٣٠٠ ١٨٣٤

(طوسقانا مصر لفرانسا منهم)

(٢٠٩١٢٥ ٨٨٩٣٠٠/٥٠٧٠٠٠) ١٥٥٦٠٦٢ ١٨٣٥

مصر لفرانسا منهم

(١٠٢٥٧٥٥ ١٤٣٦٦٨٤) ٣٠٧٩٣٢١ ١٨٣٦

---

(٢٦٤) Mines de l, orient tom I page 82

(٢٦٥) Houry page50

فرنك ٣٥٠٠٠٠٠ ١٨٥١ (٢٦٦)

هذا ما يختص بالحرير واذا نظرنا الى عموم الداخل والخارج في بيروت منذ سنة ١٨٢٧ الى سنة ١٨٤٦ فصله الجدول الآتي

يكون	صادرات	واردات	سنة
٨٧٨٧٣٧٧	٣٧٢١٢١٥	٥ ٦٦١٦٢	١٨٢٧
١٧٠٥٢٧١٤	٥٨٦٨١٩٠	١١١٨٥٥٢٤	١٨٣٣
٢٠٧٧٢٧٢٨	٨٣١٦٥٦٨	١١٩٥٥١٣٩	١٨٣٤
١٩١١٦٢١١	٧٠٦٧٧٢٩	١٢٠٤٨٤٨٢	١٨٣٥
٢٣٥٨٥٢٤١	٩٠٤٦٣٨٨	١٦٥١٧٥١٢	١٨٣٦
١٧٩٦٨٦٢٣	٦٣٣٦٢١٨	١١٧١٢٤٠٥	١٨٣٧
?	?	?	١٨٣٨ الى ١٨٤٠
٢٥٧١٦٦٤٧	١٥٣٤٩٤٨٩	١٩٧٤٧١٥٨	١٨٤١
٤٤٤١٤٠٠٠	١٦٠١٣٠٠٠	٢٧٤٠١٠٠٠	١٨٤٢
٣٩٦٢٩٠٠٠	١٦٨٦٦٠٠٠	٢٢ ١٦٣٠٠٠	١٨٤٣
٤٠٢٦٢٠٠٠	١٥٨٦٢٠٠٠	٢٤٤٣٠٠٠٠٠	١٨٤٤
٣٧٧٧٨٥٧٠	١٦.١٢٠٠٠	٢١٧٨٨٠٠٠	١٨٤٥
٢٥٨٥١٧٤٠	١٠٠٧٥١٨٠	١٥٧٦٦٦٥٦:	١٨٤٦

(٢٦٦) Guys page 246

؟	؟	؟	١٨٤٧
؟	؟	؟	١٨٤٨
؟	؟	؟	١٨٤٩
٤٣٠٠٠٠٠٠	١٨٠٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠٠٠	١٨٥٠
٢٨١٤٥٩٤٧	١٥٧٦٧٥٥	٢٢٣٧٨٣٩٧	١٨٥١
٤١١٣٥٧٤١	٢ ٢٦٦٨٦٥	٢٠٨٦٣٨٨١	١٨٥٢
٤٦٦٨٩١٤٢	٢١٨٤ ٤ ٢	٢٤٨٤٨٧٤	١٨٥٣
٤٧٣٥٩٩ ٢	٢٦٤ ٣٤٨٥	٢ ٩٥٧٤٢٢	١٨٥٤
٧٤٨٨٦٩٦١	٣٩١٢٦٦٢٠	٣٥٧٥ ٣٤١	١٨٥٥

واذا دققنا تجارة بيروت (مع يافا وطرابلس) والبلاد الافرنجية في هذه السنين التي سبق ذكرها بينت لنا الجدول الآتي :

صادرات	واردات	سنة
١٢١٤٨٣	١٣٥٣٧٢٥	١٨٢٧
؟	؟	من ١٨٢٨ الى ١٨٣٢
٩٧٤٣٤٠	١٣١٩٠١٩	١٨٣٣
٢٦٩٧٠٠٢٠	١٦٨٨٧٧٥	١٨٣٤
١٦٢١٢٥٢	١٦٧٠٦٣٦	١٨٣٥
٢٦٧٤٤١١	٢٧٧٧١٢٩	١٨٣٦

١٦٩٧٢٢٣	٢٠٥٦٧٥٤	١٨٣٧
?	?	من ١٨٣٨ الى ١٨٤٠
٢٧٣٧٩٩٠	٣٠٧٨٣٤٨	١٨٤١
٢٠٠٠٠٠٠	٣٤٣٤٠٠٠	١٨٤٢
?	?	١٨٤٣
٣٠٦٧٧٥٨	٤٥٨٧٨٣٢	١٨٤٤
١٤٠٢١٠٢	٢٨٩٤٨٣٥	١٨٤٥
١٦٠٤٨٥٤	٣٧٦٨١٧٢	١٨٤٦

فظهر من ذلك جلياً ان ما كان يدخل بيروت من التجارة كان تقدمه سائراً يبطئ على ان ما يأتي اليها حتى سنة ١٨٤٦ تقريباً محافظاً على سوية حالته وان مجموع ما كان يدخل بيروت و يخرج منها تقدم اثناء هذه المدة على الصورة التي سبق تفصيلها

واذا دققنا تحولات قيمة اهم البضائع المرسلة من مرسيليا الى بيروت يبنه لنا الجدول الآتي :

فرنك	سنه	سنه	سنه	
«	١٨٤٦	١٨٤٥	١٨٤٤	
«	٥٠٠٠	٣٥٠٠	١٥٠٠	بولاد
«	٦٠٠٠	٣٠٠٠٠	١١٠٠٠	أدوات فضيه

اسلحة ناريه	٢٢٥٠٠	١٨٠٠٠	١٦٥٠٠	«
طرايش	١٠٥٠٠	١٦٢٠٠	٦٧٠٠٠	«
قهوه	١٤٥٦٠٠	١٤٦٤٠٠	٩٩٩١٥٠	«
دودة القرمز	٧٣٣٠٠	٤٠٢٠٠	٩٣٢٠٠	«
جوخ	٤٦٤٠٠	١٩٢٦٠٠	٨٨٠٠٠	«
حديد	٤٣١٧٥	٦٢٨١٥	٩٨٠٠	«
قرنفل	٢٥٠٠٠	٧٥٦٠	٦٦٠	«
نيل	٣٩٠٠٠	١٠٠٠٠	١٢٠٠٠	«
مصنوعات متنوعة	٨٧٥٥٠	١٥٢٤٠٠	١٨٧٨٠٠	«
ادويه	١٦٦٧١٠	٧٣٥٠٠	٤٠٨٠	«
اقمشة حريرية	١٤٠٠٠٠	٥٠٠٠٠	٣٩٠٠٠	«
« قطنيه	٩٦٦٠٠٠	?	?	«
« صوفيه	٥١٠٠٠	٥٤٠٠٠	٤٠٠٠	«
اوراق متنوعه	٥٤٢٠٠	١٢١٣٥	٨٠٧٠٠	«

ومما يجلب النظر هنا عدم وجود تقدم بالاحوال التجاريه و كثرة توريد المواد الابتدائية مما يدل عَلَى تأخر الصناعة في البلاد ويشير لوجود شروط اقتصادية غير صحيحه . وكذلك فأن اهم صادرات بيروت كانت مواد ابتدائية اهمها القطن والصوف والحرير والدخان ثم

الاسفنج وتفصيل اهم هذه الاصدارات للسنين السابقة مصرحة بالجدول الآتي

	سنه ١٨٤٤	سنه ١٨٤٥	سنه ١٨٤٦
قطن	٤٦٧١٢٠	؟	١٢٤٥٠
اسفنج	١٧٢٨٠٠	١٢٠٠٠٠	٣٩٥٠٠
صوف	٥٥٩٠٠٤	١٣٨٠٠٠	٢٢٠٠٥١
حرير	١٨٦٩٥٠٠	١٠٢٣٩٠٠	١١١٨٩٨٣

ونرى هنا ان ما كانت تخرجه تناقص في هذه السنين ما عدا الصوف فانه ازداد ازدياداً مهماً وذلك على اثر ازدياد المناسبة التجارية بين بيروت والداخليه .

واذا دققنا علاقة بيروت التجاريه مع الدول والبلاد الأُخرى وقابلنا مجموع وارداتهم واصداراتهم بهذه السنين الثلاث اي (١٨٤١ و ١٨٤٥ و١٨٤٦) يبنها لنا الجدول الآتي :

في (١٨٤١ الى سنه ١٨٤٦) كانت واردات بيروت

	فرنك
من فرنسا	١١٢٥١١٢٤
من مصر	٦٤٩٠٠٠٠
من انكلترا	٥٨-٥٨٠٠
من طوسقانا	٤٤٢٨٠٠
من تركيا	٣٥٩٨٨٥٠

مجموع اصدارات بيروت للثلاث سنين (١٨٤٤ و ١٨٤٥ و ١٨٤٦ المذكوره

فرنك	
٦٠٦٧٧١٤	فرنسا
٥٧٦٠٩٠٠	انكلترا
٤٦٧٩٦٠٠	مصر
٤٢٨٣٣٣٠	تركيا
٨٥١٦٠٠	طوسقانا

فنرى ان التجارة الافرنسية تأتي بالدرجة الاولى بالنسبة الى سائر الدول ولكن اذا دققنا نسبة السنين الآتية يتضح لنا تأخر التجارة الافرنسية وتقدم التجارة الانكليزية عوضاً عنها من ٢٥ مليون فرنك ادخالات بيروت يعود لسنة ١٨٥٠ (٢٦٧) كما يأتي :

فرنك	
١٠٤٨٠٠٠٠	من انكلترا
٦٤٠٣٠٠٠	من فرانسا
٣٥٧٣٠٠٠	من مصر
١٣٥٤٠٠٠	من النمسا
١٢٥٩٠٠٠	من تركيا
٢٩٩١٠٠٠	من سائر البلاد
٢٥٠٠٠٠٠٠	فرنك يكون

اما الصادرات البالغة ٢٨ مليون في هذه السنه يعود منها

فرنك	
٧٤٨٨٦٠٠	الى انكلترا
١٢٤٨٠٠٠	الى فرانسا

والتأخر هنا واضح من جهة التجارة الافرنسية واذا دققنا البضائع التي

ادخلت بهذه السنة كان اهمها قيمة الاقمشة القطنية والصوفيه التي بلغت مايقابل ١٤٠٠٠٠٠٠ فرنك منها تسعة ملايين ونصف منشأها انكلترا امة الاصدارات فكان اهمها بهذه السنة الحبوب (اي سنة ١٨٥٠) وذلك بقيمه ١١،٥ مليون فرنك ثم يعقبها الحرير بما يقارب مليون فرنك والزيت بقيمة ٨ ، ١ ميليون واخيراً القطن والصوف بما يقارب ١،٠٢ ميليون فرنك ثم سائر البضائع الثانوية .

ومن اهم اسباب تقدم التجارة الانكليزية موافقة اقمشتها القطنية والصوفية لاذواق وعادات سكان سوريا وخصوصاً رخص الاقمشة وهذا مما سبقت به سائر الامم الاوربيه . ثم من الاسباب ايضاً الاهمية التي كانت توجهها انكلترا لسوريا نظراً لموقعها الجغرافي بين اوربا والهند كما سبق ذكره وذلك ان كل دولة كانت تملك تلك البلاد كانت تسعى وراء تأسيس طرق تجاريه مع سوريا .

(ثم يقتضى ان لا ننسى بان الاحتلال الافرنسي والحروب النابوليونيه والفتن الداخلية اشغلت افكار السكان عن استدامة علائقهم مع سوريا فسبقهم الى ذلك الانكليز وخصوصاً بعد رجوع جيوش محمد علي الكبير الذي كانت ادارته تحت ضغط النفوذ الافرنسي فقد استفادت انكلتره من ذلك وتمكنت من روابط الصداقة مع الباب العالي الذي اتيحت لها استخدام النفوذ السياسي في سبيل الفوائد الاقتصادية

و بعد سنة ١٨٥٢ ابتدأت العلاقات الأقتصادية بين بيروت وسائر الموانى السورية وبين اميركا بصورة محسوسة خصوصاً بما يعود للاصدارات التي بلغت ١٨٧٥٠٠٠ فرنك سنة ١٨٥٥ وذلك كما ذكرنا (لبيروت و يافا وطرابلس) سويه ويمكننا ان نقول ان اكثرها عائد لبيروت واذا دققنا بمجموع ادخالات بيروت و يافا وطرابلس لسنة ١٨٥٥ نرى ان النمسا تقدمت هنا حتى على فرنسا بتجارتها حيث ادخالاتها تقارب ما تأتي به انكلترا الى الموانى السورية وكانت تورد محصولات بقيمة ١٤٩٢٠٨٧٠ فرنك اي اكثر من كل الدول التي كان لها علاقة تجارية مع سوريا كما يبين لنا الجدول الآتي تفاصيل هذه النسبة .

(واردات وصادرات بيروت و يافا وطرابلس لسنة ١٨٥٥)

من والى	وردات فرنك	صادرات فرنك
اميركا	٥٠٠٠٠	١٨٧٥٠٠٠
انكلتر	١١٣٨٠٦٤٠	٣٨٨٠١٢٠
النمسا	١٠٢٨٠٩١٦	١٤٩٢٠٨٧٠
فرنسا	٩٩٣٦٨٩٣	٨٠٠٨٣٨٧٤
تركيا	٦٨٠٣٠٠	٣١٨١٣٨٦
مصر	٣٣١٦٢٦٨	٢٩٩٢٩٦٢
هولاندا يونان وتوسقانا	٥٥١٣٠١	١٢٥٧٤٠٧
سائر الدول	......	٠٩٢٨٠٠١
	٧٥٠٣٢٣	٣٩١٢٦٦٢٠

عدد اجناس وحمول السفن الداخلة الى ثغر بيروت في السنين الآتية :

جنسية السفن	سنة ١٨٣٥ عدد السفن	سنة ١٨٣٥ طن	سنة ١٨٣٦ عدد السفن	سنة ١٨٣٦ طن	سنة ١٨٣٧ عدد	سنة ١٨٣٧ طن	سنة ١٨٤٤ (٢٧١) عدد	سنة ١٨٤٤ طن	سنة ١٨٤٥ عدد	سنة ١٨٤٥ طن	سنة ١٨٦٤ عدد	سنة ١٨٦٤ طن
انكلترا	٢٧	٣٣٧٣	١٣	١٨٠٧	١٣	١٣١٦٥١	٤٠	٥١٨٩	٣٩	٥٠٦٠	٧٩	١٠٢٤٩
نمسا	٢٢	٦٠٨٠	٩	٣٠٥٠	٩	١٦٥١	١٥	٢٤٣٦	١٥	٣١٣٨	٣٠	٤٨٣٦
فرانسا	١٤	٣١٧٧	٣٦	٥٤٤١	٤٩	٨١٢٠	٥٦	٧٠٢٥	٤٤	٥٦٥٠	١٠٠	١٢٦٨٥
يونان	١٧	٧٣٨٣	١٠٨	٦٥٦٠	٣٤٠	١٨٧٢	٤٠	٣١٤٢	٤٠	٣١٤٦	٨٠	٦٢٨٨
ساردينيا	..	٤٧٢٠	٣٤	٥٧٥٠	٧	١٢٨٠	١٩	٣١٢٨	١٩	٣١٢٨	٣٨	٦٢٥٦
طوسقانا	٥	٥٧١٩	؟	؟	؟	؟	٦	٩٣٠	٦	٩٣٠	٣	١٨٦٠
مصر وآسيا الصغرى	١١٢٥	٥٢٢٨٣	١٣٤	٢٠٢٣٤	مصري ٣٤٠		٢٩٧	٣٨٣١٨ تركي	٢٩٧	٣٨٢١٨ تركيا	٥٩٤	٧٦٦٣٦
			ازمير ٣	٣٨٦	تركي		١٧	١٢٢٩١ مصري ١٠٠	١٧	١٢١٠٢ مصر	١٩٧	٢٤٣٩١
ردوس						١٢٨	١١	٣٠٥٨	٩	٣٣١٨	٣٠	٦٩٧٦
مالطه	١١	١٥٧٦	٣	٤٣٠	٣							
			٦	٥٨٦	٣	٢٩٧						

(٢٧٠) 1835/37 Houry p.53/54 (٢٧١) 1844/46 Gujs p. 238

فاذا دققنا هذه الاعداد يظهر لنا جلياً تقدم السفن الشراعية التركية المصرية بمجموعها على سائر السفن الاجنبية مما كان له لا شك تأثير حسن على مجرى الاقتصاد في البلاد لان فوائد هذه النقليات لا تتسرب الى البلاد الاجنبية بل تستفيد منها سكان سوريا اما بلا واسطة اذا كان اصحابها سوريين واما بواسطة اذا كانوا من سكان البلاد العثمانية ولا يخلو من فائدة تتبع الاطوار التي حدثت بكمية محمولات السفن المرسلة من دولتي انكلترا وفرانسا فقد كانت الاولى ترسل بالتتابع سفناً قليلة من سنة ١٨٣٥ حتى سنة ١٨٣٧ اي في اثناء هذه الثلاث سنين نقصت محمولات سفنها الى ما يقارب النصف ثم في سنة ١٨٤٤ نراها تسترجع اهميتها السابقة وتزيد على سنة ١٨٣٥ (طناً وعدداً) مع ان سفن فرنسا تزيد عليها عدداً ومحمولاً بالتتابع منذ سنة ١٨٣٥ الى ١٨٤٥ لكنها سنة ١٨٤٤ فاقت جميع سفن الامم الاجنبية عدداً وسبب تأخر استعمال انكلترا سفنها البخارية في البحر المتوسط هو قلتها مع ان فرنسا سبقتها بذلك وأمنت قسماً من الحمولات التي كانت ترسل على سفن انكليزية ولم يكن لانكلترا ولا سفينة بخارية في البحر المتوسط حتى سنة ١٨٠٩ (٢٧٢) وبوجه عام نرى ان اتساع معاملات بيروت التجارية كانت تتراجع ايضاً بسبب هذه الاعداد

(٢٧٢) M. Fancon note de voyage Paris 1٥٢٥ p. 14

خصوصاً اذا قايسنا سنة ١٨٣٥ بسنة ١٨٤٦ . وقال احد الافرنسيين الذي زار سوريا سنة ١٨٦٠ (٢٧٣) عن بيروت انها بهذا الزمن كانت البلدة الوحيدة التي لها اهمية تجاربة ما بين سائر البلاد الساحلية بحيث لا يمكن مقايسة طرابلس ، عكا ، اللاذقية سويديه واسكندرون بها

تكلمنا الآن عن بيروت ولا يخلو من فائدة ان تدقق حالة ثغر صيدا في الازمنة الموازية لما ذكرناه ايضاً . ان السائح الافرنسي دروزول يقول عنها سنة ١٦٤٤ «ان صيدا في الوقت الحاضر هي اكبر ثغر في السواحل الشرقية كما ان بها كثير من التجار وهي مقر القنصل الافرنسي لفلسطين ويرى المرء بها كمية كبيرة من الحرير»

وكاتب جلبي يقول عنها سنة ١٠٣٧ (صيدا : فرنك طائفه لرندن بوراده بر قاج قونصول واردر ابريشم (حرير) قله وغيرى آليش ويريش ايجون اوتوررلر) (٢٧٥)

وولنه‌ى يقول انها سنة ١٧٨٤ كانت محطة لتجارة كل البلاد الداخلية (٢٧٦) ومما يوضح لنا اهمية مناسباتها التجاربة بأن اجرة الباشوبة كلها بزمن وولنه‌ى لا تزيد عن ٦٠٠ الى ٧٥٠ كيساً بينما واردات الكمرك وحده تزيد عن ١٠٠٠ كيس . اما اهم علاقات

(٢٧٣) Guye p. 53 (٢٧٤) De Rozel p. 23

(٢٧٥) كاتب چلبي جهان‌نما صحيفه ٥٨٧

(٢٧٦) Volney tom II p. 105 وايضاً Roux les echelles de la Syrie et de la palestine aux 18 eme ciécle Faris 1907 p. 34

صيدا التجارية فكانت مع فرانسا وكان بها وبعكا عشرة بيوت تجارية افرنسية وخانات قبل دخول نابوليون فلسطين وقد ساعد حسن تقدم التجارة الافرنسية في صيدا خصوصاً والشرق عموماً عدم السماح لكل من اراد الاتجار مع الشرق الأدنى وربطه من قبل غرفة التجارة بمرسيليا بشرائط مهمة منها تأدية ضمانة مادية (كفالة) بالقيام بما يناسب الاسم ألافرنسي والصدق بالمعاملات مع السكان ولهذا كانت التجار الافرنسيون من نخبة الرجال ممن لهم قدره على استجلاب امنية واحترام سكان البلاد السورية التي كانت تفضل الأتجار معهم على غيرهم والغاء هذه الشروط بعد الأحتلال الافرنسي من جملة الاسباب التي اضرت التجارة الافرنسية في الشرق الادنى ونرى ان ازدياد اهمية صيدا كان من تأخر التجارة الافرنسية خصوصاً (٢٧٧) تحت ادارة الجزار الذي انتقم من التجار والتجارة الافرنسية بعد مكافحة نابوليون على ابواب عكا ثم حصر باشا عكا لنفسه تجارة الحرير والفضة (Julliany 233) وهكذا نرى ان بيروت اضحت سنة ١٨٠٨ فرضة الشام الاساسية رغم انها لم تكن مربوطة معها الا عن طريق صيدا فبيروت هي التي كانت تصدر في هذه السنة الرز والقهوة والملح والكتان والحرير والعملة الذهبية الى الشام بدلاً عن صيدا مقابل اقمشة حريرية وموسلين واثمار يابسة من الشام وحتى ان

(٢٧٧) Julliany Essai sur le commerce de Marseille 1834 p. 233

صيدا لم تعد ترسل في هذه السنة اقمشتها الحريرية والكتان الخشن رأساً الى قبرص بل بواسطة بيروت (٤) و يظهر لنا بوضوح تفوق علاقات الشام والداخلية مع بيروت بدلاً عن صيدا الاعداد الآتية :

سنة ١٨٣٣ ادخلت الشام بواسطة (صيدا صور عكا) بضائع بقيمة ١٦٢٥٠٠ فرنكاً وسنة ١٨٣٣ ادخلت الشام بواسطة بيروت فقط ٤٢٠٠٠٠٠ فرنك (منها ٤٤٠٠٠٠ فرنك بضائع اوروبية) وفي تلك السنة اصدرت الشام الى (عكا صور صيدا) بضائع بقيمة ١٦٢٥٠٠ فرنك بضائع اوروبية وقد اخرجت الشام السنة نفسها الى بيروت بضائع بقيمة ٥٣٦٠٥٠٠ فرنك فنرى من هذه الاعداد انه لا يوجد هناك مقايسة بين اهمية بيروت وصيدا التجارية وبأن الاولى اخذت سنة ١٨٣٣ وضعية ثغر الشام تماماً و بصورة قطعية رغم عدم وجود طريق يربطها بها الا عن طريق صيدا . وهكذا نرى ان سكان صيدا لم تكن سنة ١٨٤٦ تزيد عن تسعة آلاف بينما سكان بيروت في ذلك الوقت كما رأينا ارتفعت حتى العشرين الف نفساً بينما كانت سنة ١٧٠٧ لا تزيد عن سبعة آلاف . ونرى انه بعد افتتاح ترعة السويس لم تكن صيدا وصور على ما قاله السائح الافرنسي (شارم — Charme) الا ضيعتين كبيرتين

هذا كلامنا عن بيروت وصيدا ولندقق الآن حالة دمشق التجارية في هذه الدورة التاريخية : قال بسون Besson الراهب الافرنسي الذي

سكن سوريا في منتصف القرن السابع عشر عن الشام :

Damas Grande ville Maitresse de la Sirie (٢٢٨)

ومما يدل لنا على ثروتها بان الباشا الذي لا يتلقى من الباب العالي معاشاً مقابل وظيفته كان يجبى من السكان كل يوم مايعادل ٣٥٠٠ فرنك اي سنوياً مليون وربع من الفرنكات (٢٧٩) وحكى كاتب چلبي في كتابه المحرر سنة ١٧٣٧ كثرة اللغات التي كانت مستعملة بالشام حينئذ خصوصاً من الامم الشرقية كالهنود والعجم والترك مما يدل على علاقة هذه البلدة مع سكان تلك البلاد وحتى ان عدد الهنود كان بصورة تبدت لتأسيس تكايا خاصة بهم (٢٨٠)

قد سبق ذكر حالة الشام حين مرور وولنهى بها وقوله بأنها اقل بلدة خرابا بسوريا نظراً لاعطاء ادارتها طول العمر و بينما بادلت باشوية عكا في اثناء اثنان وعشرين سنة رؤسائها مراراً (الجزار و بعده اسماعيل باشا ثم سليمان باشا) نرى ان باشوية الشام لم تزل سنة ١٨٠٦ تحت ادارة بني العظم (محمد باشا العظم (٢٨١) فهذه الادارة الدائمة جعلت

(٢٢٨) Joseph Besson p. 61

٢٧٩ بسون (Besson) يذكر بانه كان يستلم يومياً لصرفه ١٠٠٠٦ اكو lecu وقيمة الاكو الافرنسية التي ضربت بزمن هنري الثالث سنة ١٥٨٠ كانت تساوي على وجه التقريب ٥٠٣ من الفرنكات

(٢٨٠) جهان نما صحيفة ٥٦١

(٢٨١) Chateau Briand interaire de Paris a Jerusalem p. 1812 Tom 11 p. 120

الشام اقل عرضة لحيرة الحكام نظراً لدوام ادارتهم وان كان ذلك لم يمنع اولئك الولاة ايضاً من جمع الثروة والهيمنة على التجارة مع بغداد والهند . وقد افاد الشام تحسين العلاقات والمناقلات التجارية بينها وبين بغداد من ابتداء القرن التاسع عشر مما سهل السفر بالتجارة وسير قوافل الحجاج ونراها سنة ١٨٤٠ اعظم بلدة سوريه وتفوق بصورة واضحة بلدة حلب ووصفها (هوري —Houry) بهذه السنة بقوله دمشق اعظم بلدة سوريه واكثرهم سكاناً حيث كانت تملك سنة ١٨٣٧ على ٦٠٠٠٠ نسمة (٢٨٢) وكانت زمن سياحة وولنه‌ى ٨٠٠٠٠ فقط (٢٨٣) بينما السائح الافرنسي بوژولاد الذي زار حلب بزمن ادارة محمد علي خديوي مصر لم يجد في هذه الاخيرة الا ٧٠٠٠٠ نسمه كما ذكرنا في ابحاثنا السابقة . واهم علاقات دمشق التجارية كانت مع بغداد والعجم والهند ومصر وبالدول الاوروبية خصوصاً مع انكلترا التي كان لها سنة ١٨٣٧ بالشام معتمداً بينما لم يكن لفرنسا الا موظف قونصولاتو (٢٨٤) واهم علاقات انكلترا التجارية في هذه السنين كانت بواسطة يهود الشام الذين كان لهم سنة ١٨٣٧ من الحال ٢٤ بيتاً للتجارة ورأس مال يعادل اربعة ملايين ونصف فرنك نخص بالذكر منهم مراد فرحي ونسيم فرحي .

(٢٨٢) نعلم من الابحاث السابقة ان عدد سكانها بزمن (لابروكيه) كان ٥٠ الف
(٢٨٣) Volney tom 11 p. 25
(٢٨٤) Julliany Essai sur le commerce de Marseille 1834 p: 334

اما من تجار المسلمين فنخص بالذكر منهم محمد سعيد آغا بغدادي وعبد الرحمن العظم الذين كان لهم علاقات تجارية مهمة مع بغداد ورأس مال كل واحد مليونان من الغروش وعدا عن ذلك كان هناك سنة ١٨٣٧ – ٦٦ بيت تجاري بيد المسلمين لها علاقات مع الغرب (فرنسا النمسا وسويسره وغيرها) فهذه الرؤوس الاموال المجتمعة بأيادي بعض الافراد تبين لنا بصورة واضحة سعة التجارة التي كانت تربط الشام مع البلاد المجاورة هذا عدا عن التجار الصغار وخصوصاً ازدياد رؤوس اموال بيت فرحي التي كانت تعد بالملايين من الفرنكات فأنها تدل دلالة واضحة على اهمية تجارة انكلترا مع الشام وكثرة الفوائد التي كانت تأتي بها هذه التجارة (٢٨٥) واذا دققنا عروض التجارة التي الشام تدخلها سنة ١٨٣٣ يبين لنا المبالغ الآتية ·

من بغداد والموصل الموسلين الهندي والبهارات الهندية واللؤلؤ والتنباك طنافس ، حرير ، شال كشمير جلود الابل صوف محارم موصل ، عبي وفرشات ·

بقيمة فرنك ٤٥٣٥٠٠٠

من مكة : قهوة محارم موسلين الهند تمر هندي شال مسك بقيمة ٧٥٠٠٠٠

من مصر : قهوة نيل حنه جوز الهند جلد جاموس

عاج رز سكر طرابيش تمر ، ٤٦٣١٢٥٠

(٢٨٥) Houry p. 87

من فلسطين : قطن زيت صابون شمع قمح
بطيخ احمر بقيمة = ١٠٧٥٠٠
(صيدا صور عكا) لدخان حرير زيت والتين اليابس بقيمة : ١٦٢٥٠
من بيروت : بضائع (اقمشة اوروبية بقيمة فرنك ٣٤٠٠٠) طرابيش
من تونس دراهم فضة وذهب بقيمة ٤٤٢٠٠٠
من طرابلس : زنانير حرير سفنج برقان ليمون
دراهم فضية وذهبية بقيمة ١٢٦٧٥٠
من لبنان حرير زيت دخان بقيمة : ٧٥٠٠٠
من استانبول : البسة محارم فرو غير ما ورد حرير بروسه
بندق طرابيش جلد جواهر دراهم بقيمة ٩٧١٠٠٠
من ازمير : سجاد افيون حرير طرابيش مصنوعات اوروبية ١٤٠٠٠٠
من حلب : اقمشة حرير محارم مطبوعة شال آنقره سمك انطاكيه
الملح كتان اورفه جلود من انطاكيه بقيمة ٧٢٢٥٠٠
من حمص وحما : بشا كير ممنية صوف جلد اصفر عبي حريرية ٢٤٠٠٠
نربيش اركيله .
المجموع فرنك (٢٨٦) ١٣٢٤٢١٢٥

ومن هذه الاعداد يتضح لنا اولاً اهمية تجارة الشام مع بغداد وانكلترا

(٢٨٦) Guys p. 205

عن طريق بيروت حيث نعلم مما سبق تفوق تجارتها في هذه السنة على تجارة فرانسا ثانياً كثرة واردات المصنوعات الاوروبية وقلة المواد الابتدائية الصناعية مما يدل على قلة المهمات الاقتصادية الا ما يخص الحرير حيث كان يستعمل طرازاً للاقمشة الشامية الحريرية القطنية .

اما اصدارات الشام فكانت كما يأتي :

الي بغداد : بلور آلمانيا مصنوعات انكلترا وسويدره وفرانسا اقمشه ليون وايطاليا الحريرية طرابيش بولاد حديد ماء سليماني مجوهرات اسلحة نارية ثمينه ساعات من فرانسا ولسويدره مصنوعات مصر اقمشة الشام صابون وما شابهه

بقيمة ——— ——— ——— فرنك ——— ٢٢١٠٠٠٠

الى مكة المكرمة : طرابيش اقمشة بلور جواهر وساعات بقيمة « ٣٧٥٠٠٠

الى مصر (بحراً) خشب البز اثمار ملابس للرجال تنباك شال كاشمير وسيوف عجمية ٧٥٠٠٠

الى فلسطين (يافا نابلس القدس) : اقمشة حلب والشام واوروبا اثمار تنباك محارم عبي ١٦٢٥٠٠

الى صور صيدا وعكا : اثمار ملابس الشام وحلب و بغداد تنباك : : ١١٢٥٠

الى بيروت : بضائع هندية لاوروبا واستانبول ومصر (بقيمة فرنك ١١٥٠٠٠) بضائع عجمية لازمير واليونان (بقيمة ٨٣١٠٠ فرنك) بضائع بغداد لازمير (بقيمة ١٣٠٠٠٠) بضائع مكه والشام ملابسها الحريرية اثمارها زيت بقسماط ، لوز حبال (بقيمة مليون فرنك) وغيرها جمعاً . . . . : . . . بقيمة فرنك ٥٣٦٤٥٠٠

الى طرابلس : بضائع الهند والعجم وبغداد ومكه وملابس دمشق ١٥٠٠٠٠

الى لبنان : : : : : : : : ٧٥٠٠٠٠

الى الاستانه : خشب البز ، تنباك العجم و بغداد ، قمر الدين واللؤلؤ بقيمة ٤٤٧٥٠٠
الى ازمير : نيل ، خشب البز ، اثمار ، ملابس شامية : ١٢٥٠٠٠
الى حلب : اثمار ، اقمشة دمشق : ٧٠٠٠٠٠
الى حما وحمص : اثمار و بعض بضائع دمشق والهند : ١٨٧٥٠٠

المجموع فرنك ١١٢٤٣٢٥٠

ونرى هنا ايضاً اهمية بيروت بمساعدة دمشق بالتجارة اذا قابلنا قيمة ما تخرجه الى الاطراف المذكورة سابقاً وتجرى اكثر المناقلات الداخلية بواسطة القوافل ولم تكن الطرق في امن دائم ولو كانت الطرق آمنة لاتسعت تجارة دمشق اكثر من هذا وكذا لم تكن اجرة النقليات غالية بالنسبة الى صعوبة الطريق و بعد المسافه كما يدل على ذلك الجدول الآتي :

مدة سير القافله بين الشام و بغداد	٣٠	الى	٤٠	يوم
» » القافلة » » والقاهره	٢٠	»	٢٥	»
» » » » » » ويافا	١٠	»	١٢	»
» » » » » » صيدا بيروت			٤	»
» » » » » » طرابلس			٦	»

وهذا يوضح لنا اتساع التجارة السورية وتقدمها بعد تأسيس الطرق وتحسين وسائط المناقلات البرية والبحرية كما سنفصله في الباب الرابع من هذا الكتاب .

وقال السائح (شوبرت Schubert) الذي زار الشام سنة ١٨٥٠ ان

سكانها يفوقون غيرهم بالمهارة الصناعية وحب الترتيب والذوق وبان عدد صناع الاقمشة (الاطلس وغيره يزيد على ٤٠٠٠ عامل كما سنذكر ذلك حين التكلم عن الصناعة وبانه لا يوجد بها اثر للفاقة والاحتياج (٢٨٧) وتقدمت بهذه الدورة الحجاج الذين بلغ عددهم في السنة حسبما حكاه هوري من ٣٠ الى ٤٠٠٠٠ شخص (٢٨٨)

ويذكر ان الشام باعت سنة ١٨٥١ الى الحجاج :

٣٤٩٥	قطعة قماش انكليزي
٢٧٠	رزمة خيوط قطنية
١٢٠٠٠	رطل سكر افرنسي
٨٠٠٠	« « انكليزي (٢٨٩)

ونرى ان سكانها فات سنة ١٨٦٠ على اثر فتن حصلت بها . وكذا نرى ان حمص وحماه تقدمت في هذه الدورة التاريخية وذلك على اثر كثرة وفود الحجاج وانكباب سكانها على الصناعة والزراعة فبينما يذكر حاجي قالفا بأن حمص كانت زمنه خرابا من ظلم الحكام وتسلط الاعراب كما ذكرنا(٢٩٠) ولكن يصدق لنا تقهقر هاتين البلدتين الاقتصادي مع بيان ان عدد سكان حمص سنة ١٧٧٤ لم تزد عن ٢٠٠٠ نسمة وكذا سكان حما (٤٠٠٠) نرى

(٢٨٧) Schubert Reise in das Margenland Erlangen 1831 p. 295-96.
(٢٨٨) Houry p: 81
(٢٨٩) Guys p. 213/14
(٢٩٠) حاجي قالفا جهانتما صحيفه ٥٩٠

ان السائح بوژولاد Poujoulad الذي (كما فصلنا) زار سوريا سنة ١٨٣٧ ان عدد سكان حما كان بزمنه ٢٤٠٠٠ وكذا سكان حمص ٢٠٠٠٠ (٢٩١) ولكن الغالب ان هذه الاعداد مبالغ بها لان هذه الكثرة بظرف مدة عمر انسان وسطي بدون دخول مهاجرين او تغير اساس بشرائط البلاد الاقتصادية والادارية بعيدة عن الاحتمال وبعد التدقيق وجدنا في الحقيقة بان (غوى Guys) الذي بقي ٢٧ سنة قنصلاً افرنسياً في سوريا يقدر عدد سكان حما سنة ١٨٤٨ = ١٠٠٠٠ الى ١٢٠٠٠ نسمه (٢٩٢)

واهم وسائل ثروة حمص بهذه الدورة هي زراعة الحبوب والسمسم والزيت ومن اهم موانع تقدم الزراعة في هذه الضواحي فقدان وسائط النقل ومع ذلك نرى ان حما وحمص ارسلت سنة ١٨٤٣ ثلثي احتياجات طرابلس من الحنطه اما تربية دودة القز فلم تكن مهملة هنا ايضاً ولكن محصولاتها الحريرية خشنة ومن جنس واطيء وايضاً فان محاصيل التلي والصابون والشعير مهمه في تأمين معيشة السكان المادية ثم الصوف الذي يأتي اليها من العرب التي تزور اسواقها لتتزود من محصولاتها الصناعية وما شاكله وقسم من هذا الصوف يستعمل في حمص لصناعة اللباد

وتنتج حما سنوياً :

الصوف (٢٠٠٠ قنطار) والحرير (٢٨ — ٣٠ قنطار) من جنس

---

(٢٩١) Poujoulad p. 31　　(٢٩٢) Guys p. 219

واطي ، وعروق الصياغين Alizari (٢٠٠ قنطار) قطن (١٤ الى ١٦ الف قنطار) وهذا القطن تغزله النساء وتحيكه الرجال ومن اهم مصنوعاتها حياكة الفوط المستعملة باكثر اطراف سوريا

ولندقق حالة الثغور التجارية في فلسطين في الدوره التي هي موضوع بحثنا في هذا الباب . يذكر دو روزهل De Rozel ان اهميـة عكا بزمنه كانت اقل من صيدا وانها مركزاً لوكيل معتمد (قنصل) بينما الاخيرة محط قنصل ولاية فلسطين و بان اهمية عكا مبنية عَلَى كونها مركزاً لتجارة الحنطة حيث كانت تزرع بكثرة بسهل الناصره و باطراف جنين ويقول بهذا المعنى : « هذا الثغر مملوء بالحنطه الاتيه له من الداخلية واطراف الناصره وان اسعار الحنطه رخيصه جداً في هذه البلاد ..... »

ومما يذكر بهذه المناسبة ان الناصرة لم تكن بذلك الزمن الا ضيعـه حقيرة (Chetif Village) ثم قال عن يافا أنها اهم مرفأ في فلسطين وانما لا تزورها السفن الكبيرة لصعوبة مرفأها وهي تحت ادارة باشا بلدة غزه التي هي اهم بلدة في فلسطين (٢٩٣) واهميتها الحقيقية مستندة على كونها فرضة القدس ومحطاً للحجاج الآتية من البحر قاصدين زيارة هذه البلدة المقدسة . وقال كاتب چلبي ان الرمله كانت بزمنه مركزاً مهماً للبايعة حيث تأمها التجار في كل نهار جمعة وكذا تأتي اليها الزراع من اكثر

---

(٢٩٣) De Rozel p. 23

الاطراف للمبايعة وان فرضتها يافا التي بها وكلاء التجار (الاجانب) وبعلمناعـدا عن ذلك ان خليل الرحمان كانت تصدرلسائر الاطراف وحتى للحبش والسودان مصنوعاتهـا الزجاجية وخصوصاً الاساور التي تبدلها هناك بالذهب وان بها سوق عمومي في كل سنـة تحضر اليه جماعات عديدة من الاطراف والبلدان (٢٩٤) ويذكر وولنه‌ي بان القدس تصدر بزمنه الى تركيا ، ايتاليا ، البورتغال وخصوصاً اسپانيا انتاجاتها العائدة للتبرك والديانة(Objet de pitiè)وكذا يكرر لنـا بأن أساور خليل الرحمن(Hebron)تذهب حتى الى الأستانة (٢٩٥) وكان بزمنه مكتبان للتجار الافرنسيين في الرملة ولكن لم تكن تجارة القلي متقدمه كما في السـابق لأن الباشا حصرهابنفسه فقل توريـدها الى غزه

واذا دققنا حالة فلسطين سنة ١٧٤٤ نرى الصفحة الآتية :

اساس زراعة وتجارة نابلس كانت القطن وهي تصدر اكثر محصولاتها الى الشام وكذا كانت تربية دود القرمز مزدهرة باطراف هذه البلدة (٢٩٦) وبصورة عامه كانت حالتهـا الاقتصادية حسنة وكانت تصدر جنساً جيداً من الصابون الى اكثر اطراف سوريا ومصر وحتى الاناضول اما الرملة فلم تكن في هذه الدوره مركزاً للتجار الافرنسيين بل ان علائقها التجاربة انحصرت في المدة الاخيرة بتصدير

(٢٩٤) جهانت. كاتب چلبي صحيفه ٥٦٣، ٥٦٤

(٢٩٥) Volney Tom II p. 300

(٢٩٦) Guys p. 300

صابونها لمصر . واذا دققنا حالة يافا التجارية بالقرن التاسعة عشر نحصل على ما يأتي

كان عدد سكان يافا سنة ١٨٤٤ : ١١٣٠٠ نسمة وهي فرضة القدس وكانت تابعة لبيروت حيث تورد بواسطتها احتياجاتها من البضائع الاوروبية لعدم مساعدة ثغرها لدخول البواخر التجارية

واهم اصداراتها الحنطة والسمسم والقطن .

واذا دققنا مجموع اصداراتها نرى انها بتقدم من سنة الى سنة رغم بعض الهبوط الطبيعي تبعاً لحالة المحصول الزراعي والتحولات الجوية :

سنة	قيمة الصادرات فرنك
١٨٤١	٢٢٠٩٥٥٠
	ماعدا قيمة الشعير والدره في هذه السنة
١٨٤٣	١٢٩٠٩٠٠
١٨٤٩	٥٧٣٤٠٠٠
١٨٥٠	٤١٣٩٨٠٠
١٨٥١	٧٥٨١٢٥٠

ويظهر لنا جلياً تقدم زراعة شجر الزيتون في فلسطين الاعداد التالية :

اصدرت يافا زيت بقيمة فرنك .

سنة	١٨٤١	بقيمة	٣٧٦٥٠٠
»	١٨٤٣	»	٥٠٠٠٠٠

«	١٨٤٩	بقيمة	١٢٠٠٠٠٠
«	١٨٥١	«	١٧٠٠٠٠٠

اي ان الزيادة بنسبة ١ الى ٤ و ٥ .

سنة	١٨٤١	حنطة بقيمة فرنك	١٧٦٥٠٠
«	١٨٤٣	« « «	١٦٥٠٠
«	١٨٤٩	« « «	٣٢٢٠٠٠
«	١٨٥١	« « «	١١٣٧٥٠٠

فالزيادة اذاً من سنة ١٨٤١ الى ١٨٥١ هي بنسبة واحد الى ستة وثلث وكذا الشعير زاد من ١٩٠٠٠ فرنك سنة ١٨٤١ الى ١٢٤٠٠٠ فرنك سنة ١٨٥١

وزيادة القطن لا تقل نسبة عما تقدم (سنة ١٨٤١ : ١٨٨٢٥ فرنك وسنة ١٨٤٣ : ٦٠٠٠٠ ، وسنة ١٨٤٩ : ٢٧٥٠٠٠ فرنك وسنة ١٨٥١ : ٤٣٣٧٥٠) وكذا نرى ان زراعة السمسم توسعت بالنسبة لكثرة الطلب من الخارج حيث بدأت معامل اوروبا باستعمال زيته لصناعة الصابون وقد اصدر سنة ١٨٤١ سمسم بقيمة فرنك ٨٤٧٠٠ وسنة ١٨٥ بقيمة : ١٢٦٠٠٠٠ فرنك اي ان الزيادة بنسبة ١ الى ١٤ . والصابون الصادر لمصر وسائر البلاد الشرقية) قد قل نظراً لاصدار الزيت بكثرة ثانياً لمنافسة المصنوعات الاوربية له وهكذا نراه سنة ١٨٤١ يبلغ قيمته

١٢٩٤٠٠٠ فرنك وفي سنة ١٨٥١ : ١٢٠٠٠٠٠ فرنك واما اصدارات الدرى فقد بقيت على ما كانت عليه تقريباً . واذا نظرنا لمحمول البواخر المارة بهذا الثغر نراها بلغت سنة ١٨٥٠ : ٣٢٠٠٠ طن منها ٨١ بالماية حبوب و ١٨ بالماية زيت وسمسم و ١ بالماية قطن واما نسبة البواخر بالنظر للملل فهي كما يأتي : % ٣٣ منها بواخر يونانية

% ٢٩ « « أفرنسية

% ٢١ « « انكليزية

% ١١ « « تركية عثمانية

% ٦ « « تابعة لملل مختلفة

هذا عن حالة فلسطين التجارية و بهذا تنتهي تدقيقاتنا الزراعية والتجارية في هذه الدورة ولم يبق علينا الا ذكر حالة سوريا الصناعية لنبتدي بعدئذ في الباب الاخير من هذا الكتاب :

اكثر صناعات سوريا اهمية كانت كما رأينا صناعة الاكسية وادوات الجدال و الحرب كالاسلحة او المصنوعات المتعلقة بصورة طبيعية مع كثرة المواد الابتدائية الموجودة بها (كصناعة الصابون لوفرة الزيت والقلي) ومع الاسف ليس هناك اخبار تدلنا عن حالة سورية الصناعية بصورة مفصلة ونحن مضطرون لجمع بعض ما ذكر والسعي لبيان حالة البلاد الصناعية في الدورة التي ندققها بصورة صحيحة

ذكر لنا بلون Belon الذي زار سوريا سنة١٥٣٧ ان اكثر زراعة سوريا كانت متجهه نحو زراعة القطن والحرير لا لتأمين احتياجات الصنايع المحلية فقط بل لأصدار قسم مهم من ذلك الى ايطاليا ومنها الى سائر البلاد الغربية الاوروبية حيث شاعت بعد الحروب الصليبية صناعات المنسوجات على الاساسات التي تعلموها من الشرق وقد ذكرنا في المقدمة ما قاله شابدال عن تأثير صنايع حلب على شيوع صنعة المنسوجات في فرنسا وكيف تعلمت اكثر مدن اوروبا ترقية هذه الصناعة والمهارة فيها وكيف انها اتسعت من البندقية (ونديك) الى ليون ولافال Laval وليل Lille وقامبره Cambrai وآميانس Amiens وراءيس Reims واراس Arras ثم بوفوا Beauvais الخ ٠

وقد علمنا ايضاً ان ايطاليا هي التي كانت تدخل مصنوعاتها الحريرية الى اوروبا منذ القرن الخامس عشر حتى السابع عشر بعد الدورة المسماة عند ارباب الصناعة الحريرية (بالدورة العربية) الواقعة بين القرن العاشر الى الرابعة عشر حيث كانت سوريا والاندلس نقطتين للصناعة تتجه منهما البضائع الحريرية نحو اكثر اطراف اوروبا وافريقيا فظهور منافسة الصناعة الاوروبية بعد القرن الرابعة عشر ثم ما خربه تيمورلنك من جهة اخرى اضر بالصنائع السورية خصوصاً صناعة الاقمشة وابتدأت البندقية تورد اقمشتها الى اوروبا كما ذكرنا سابقاً بحيث ان اقمشتها كانت

مشهورة في منتصف القرن السادسة عشر في اكثر اطراف جزيرة العرب وهكذا نرى ان محمود باشا الآتي لمصر من اليمن سنة ٩٦٠ هجرية كان يخلع على العرب الذين يلاقيهم الجوخ الاحمر البندقي (٢٩٧) ولم تفقد سوريا اهميتها الصناعية تماماً . وخصوصاً ما يلزم للاقمشة الحريرية المناسبة للذوق الشرقي وساعدها على ذلك ربط سوريا مع مصر من جهة والاستانة من جهة اخرى بواسطة الادارة التركية . وقال بلون Belon ان محارم حمص كانت تباع في جميع اطراف تركيا تحت اسم محارم حمص Mouchoire de Homs . وكانت هذه المحارم من حرير مطرزة بخيوط ذهبية وبألوان حريرية بيضاء، حمراء، اوصفراء (٢٩٨) وبعد ان امتدح (بلون) بضائع الشام وشهد لاهلها بالمهارة بصناعة الفولاذ والنحاس ، قال ان انتاجاتها تذهب الى الاستانة والقاهرة وتباع هناك برخص لان التجار الكبار يشترونها ويرسلونها بسرعة الى تلك الاطراف البعيدة فتقل بالشام نفسها (٢٩٨) . وقال صاحب كتاب جهاننما ان الشام وحلب كانا مركزين مهمين لصناعة الاقمشة (٢٩٩) ولحلب مهارة خاصة بصنة الطنافس ويتكلم بلون عن سوقاً خاصاً في الشام تعرض فيه الاقمشة ويعرف بسوق الذراع الذي كان في شمال

---

(٢٩٧) فتوح اليمن ص ٩٨ وقد انتقلت هذه الصناعة في بداية القرن التاسع عشر لحلب ثم ضعفت لـ فسة محارم الموسلين التي ابتدأت انكلترا بادخالها لسوريا

(٢٩٨) Belon p. 346 Guys relation d'une sejour à Beyrouth p. 139

(٢٩٩) جهاننما كاتب چلبي ص ٩٨

الجامع الاموي . وقال عن مصنوعات الخليل Hebron الزجاجية واساورها انها كانت تذهب كما ذكرنا في البحث السابق حتى بلاد الحبشة والسودان . وكان بالرملة في بداية القرن الثامنة عشر مصانع متعددة للصابون . وكذا كان لصابون طرابلس (على قول كاتب چلبي) شهره في اكثر البلدان ومن ذلك قوله (بو شهرك صابوني آفاقده مشهوردر) ولم يكن للولاة المودوعة اليهم ادارة البلاد بالالتزام اقل اعتناء بحالة البلاد الصناعية بل كانوا ينظرون اليها من الوجهة الشخصية فقط ولا يتأخرون ساعة من بلصها بدون اقل التفات الى حياة البلاد الصناعية وفوائد هذه المشاريع الاقتصادية ومعادات الصناعة والجمعيات الصناعية Corporation قديمة ترجع الى دور ادارة المماليك المصرية وصلاح الدين الايوبي والسبب هو ان الفاطميين كانوا من اهم اعوان هذه المؤسسات التي كان لها في ذلك الزمن اهمية سياسية وعلائق تاريخية مع فرق الاسماعيلية والقرامطه . فصلاح الدين الذي كان سنياً ومخالفاً لهذه الجمعيات التي لها ميل نحو سلالة سيدنا على اسس الحسبة او بالاحرى جدد احياء هذه المؤسسة الاسلامية القديمة التي كما ذكرنا كانت من جملة اساسات الامام الاسلامي حيث من وظيفته السهر على صحة المبادلات التجارية وغيرها (ومن هنا نشأ في الاسلام ضرب السكة بزمن عبدالملك) فكان المحتسب في زمن صلاح الدين كمراقب صارم على

حركات الجمعيات الصناعية وفي زمن الاتراك واسطة لاغتصاب اموال هؤلاء الجمعيات لفائدة الولاة والحكام وذكر وولنهى بان عبدى باشا والى حلب سنة ١٧٧٠ كان محتاجاً لدراهم فأجبر كل الحرف التي في الولاية لدفع ضرائب بالتهديد والوعيد حتى اغتصب منهم اربعة ملايين فرنك ولم يستثنى منها حتى حرفة منظفي الزاجيل (٣٠٠) وهنا يتجلى لنا اولاً : ما كانت عليه صناعات هذه البلدة من الاهمية المالية . ثانياً استئثار الولاه بالسلطة وسوء استعمالهم لها باغتصاب اموال السكان المودوعة لأمانتهم . وقد قلنا حين التكلم عن اصدارات حلب في بداية القرن التاسعة عشر ان قسماً مهماً من اصدارات هذه البلدة التجارية المرسله نحو بغداد والعجم كانت ثمرة مصنوعاتها المحلية وقد ذكرنا بأنها تصدر سنوياً آلاجه بقيمة مليونين وربع من الغروش واقمشة حريرية باجناس متنوعة بقيمة ٧٢٠٠٠٠ غرش وزنانير من حما بقيمة ٧٥٠٠٠ غرش ثم صابون لبغداد والموصل وسائر اطراف تركيا بقيمة ١٢٩٩٩٩٩ غرش (٣٠١) وكذا ذكرنا بأن بيروت كانت تصدر الى قبرص أقمشة الشام الحريرية وكتان صيدا وذلك سنة ١٨٠٨ على ماذكره الدكتور موربورغ Morpurg في تحريره الى هرنزيتسەن Seetzen و پوژولاد Poujoulad يذكر بأنه كان في زمنه بحلب ١٢

(٣٠٠) Volney Tom II p. 130

(٣٠١) Russeau (Fund gruben des Oriens tom lv p. 93

حرفه -- Metier و ١٠٠ مصنع لصناعة الخيوط الذهبية وعدداً وافراً من المصابغ (Teintureries) والمصابن (Savoniers) والمدابغ (Tanneries) (٣٠٢) وحكى بان حما كانت مركزاً لصناعة الفوط للطواف التي كانت الحجاج تقتنيها في هذه البلدة . و يقول عن حمص بانها كانت مختصة بصناعة الاقمشة الحريرية والصوفية خصوصاً العبي لسداحتياجات العرب الرحل

وهنا يصادف التاريخ طلائع نهضة الغرب الاقتصادية التي تقدمت حياتها المالية بالتتابع منذ سنة ١٤٠٠ حتى سنة ١٨٠٠ خصوصاً بالاعتماد المالي (الكره ديتو) والمؤسسات الاقتصادية الاخرى نخص بالذكر الاسواق التجارية (Messe) والمصارف ولم تكن اوروپا تنتظر حينئذ قبل تقدمها الاقتصادي الذي نرى نتائجه السياسية والاقتصادية اليوم الا تحسن وسائط النقل لتزيد انتاجاتها الصناعية نظراً لتوسع اصداراتها الى البلاد البعيدة وقد حققت لهم هذه الامنية الاختراعات الميكانيكية التي تتابعت موفقياتها الباهرة منذ سنة ١٧٧٠ حتى ١٧٨٠ وذلك على أثر توسع العلوم الطبيعية المبينة على درس خواص الطبيعة المحيطة للبشر و كيفية الاستفادة من قواها الكامنة . وهكذا توفق جامس واط James watt بعد جهد جهيد دام من سنة ١٧٦٨ الى ١٧٩٢ لاستخدام البخار في الحياكة عوضاً عن ايدي العمال مما بدل

(٣٠٢) Poujoulad Tom II p. 16

اساس هذه الصناعة وجعلها برخص وكثرة تمكنها من منافسة صناعة الشرق التي هي ثمرة اتعاب الايادي البشرية والفعلية الثمن . وفي سنة ١٨٠٢ اصلحت آلات البخار بوجود صورة تؤمن اقتصاد ٤ — ٥ من مصاريف المحروقات اللازمة للآلة الاولى وفي سنة ١٨٢١ الى ١٨٤٩ توفق ستفنسن Stephenson لاستعمال البخار في السكك الحديدية . وفي سنة ١٨٠٦ وجد روبرفولتون Robert Fulton اصول السفن البخارية وحسنها اريكسون Erikson بادخال اصول الرفاص فبعد ايجاد هذه الوسائط الجديدة نرى ان مصنوعات الغرب اتسعت دائرة اسواقها واتت الى سوريا ببضائع رخيصة الثمن تزاحم صنائعها الوطنية وساعدها على ذلك تحول ذوق ابناء هذه البلاد بتأثير التفوق الغربي المشاهد وسعيهم بمشابهتهم بما يجلب النظر قبل كل شيء اي بملابسهم. ولقد رأينا بالاعداد التي ذكرناها عن تقدم كمية ادخالات سوريا للاقمشة الاوروبية ونصرف النظر من تكرار ذلك هنا . واهم الصناعة السورية كانت منذ القديم صناعة الاسلحة المشهورة التي بقيت بين الحياة والموت بعد اخذ تيمورلنك اقطاب صناعها الى سمرقند فمع ان (بلون) يذكر لنا ندرة هذه الاسلحة التي كانت تباع بزمنه باثمان باهظة مما يثبت قلة هذه الصنعة نرى ان السواح الذين يتكلمون فيما بعد عن صناعة سوريا من الاقمشة وغيرهما لا يذكرون هذه الصناعة مما يدل على انها لم تكن من الاهمية بكان جالب للانظار وفي الحقيقة نرى هوري

Houri يذكر لنا ان الشام لم تكن بها سنة ١٨٣٧ هذه الصنعة المشهورة
Damas ne vois plus le manufacture d'armes recherehé même en Europe (٣٠٣)

اما صناعة الاقمشه فيخبرنا هذا السائح بأنها بقيت زاهرة في سوريا ويصدق لنا ذلك السائح الالماني (شوبرت) الذى زار سوريا حوالي سنة ١٨٥١ حيث يقول حين مروره من دمشق انه كان بها ٣٠ الى ٤٠ الف عامل يشتغلون بصناعة الاطلس (٤ ٢) وسائر الاقمشة التي ترسل مع القوافل بطريق حلب الى الاناضول والبلاد المجاورة ويذكر بان صناعة الفولاذ بقيت فيها — وريتر - Ritter يخبرنا ان دمشق كانت تجلب حتى سنة ١٨٥٠ الحديد من تريسته - Trieste لتأمين صناعة الاسلحة المشهورة (٥ ٣) فاذا يمكننا نظراً لصدق اخبار هوري التي تجلى لنا في محلات عديدة ان نفتكر بامكان توقفها حين وجوده في دمشق على اثر صعوبة الحياة من ظلم الحكام او قلة الحديد او قلة رؤوس الاموال اللازمة لتلك الصناعة حتى تمكنوا اخيراً من ادخال الحديد اللازم من تريسته .

وفون كرمر Von Kremer يخبرنا بان الشام كان بها سنة ١٨٥٢ ١٩٦٦ نولاً للحياكة منها ١٥٢٠ مختص بحياكة الاقمشة الحريرية و ٦٨٠ يختص بحياكة الالاجه . وقد اخرجت الانوال هذه سنة ١٨٤٩

(٣٠٣) Houry p. 82
(٣٠٤) Schubert Reise in das Morgenland Erlangn 1851 Bd 111 p. 293
[٣٠٥] Ritter Erdkunde p. 1339

١٥٠٠٠٠ قطعة آلاجه (٣٠٦) وسنرى في الباب الآتي بان عدد انوال الحياكة نزل سنة ١٨٨٩ الى ٦٠٠ فقط للآلاجه و ٧٠٠ منها لحياكة الالبسة القطنية وار بعين حرفة لصنع (الكفيات) ثم ١٥ حرفه لصنع الكرامين Kreieh و ١٠ حرف للعبي و ٢٠ حرفة للحبرات (الملايات) و ٦ حرف لشال القاعد وبلغ عدد العمال في هذه السنة ١٠٠٠ عامل وكان بحلب سنة ١٨٣٨ جمعاً ٤٠٠٠ حرفة لشغل الاقمشة الحريرية المطرزة بالخيوط الذهبية والفضية وكان عدد العمال القائمين بها ٤٨٠٠ عامل

وتقسم هذه الصناعات كما يأتي ٣٠٠ حرفة منها للأقمشة الحريرية المتنوعة ثم ١٧٠٠ حرفة لصنع الاقمشة الحريرية القطنية ثم ١٠٠٠ حرفة لنسج الاقمشة القطنية والف أخرى لنسج الموسلين اما وارداتهم فكانت كما يأتي

غرش	عدد الحرفة	
٩٠٠٠٠	٣٠٠	صنعة للاقمشة الحريرية بخيوط ذهبية
١٢٦٠٠٠٠	١٧٠٠	اقمشة حريرية — قطنية
٦٠٠٠٠٠	١٠٠٠	اقمشة قطنية
٥٠٠٠٠٠	١٠٠٠	للموسلين
٢٥٠٠٠٠٠ غرش	٤٠٠٠	جمعاً

زد على ذلك ١٠٠ مصبغة ومطبعة قمشة وعدد عمالها ١٥٠٠ الى

[٣٠٦] Ritter p. 1896

١٦٠٠ ثم بعض مصابغ للخيوط الذهبية وقد تأخرت في هذه الدورة التجارة والصناعة المتعلقة بغزل خيوط القطن وصاداراتها حيث لم تعد تشتري اوروبا منهم ذلك بل ان الخيوط الواردة من الغرب الى سوريا كانت ارخص مما كانت تغزله وتبيعه سكان البلاد انفسهم نظراً لشدة الضرائب التي كانت تثقل كاهلهم والتي كانت تبلغ بالماية (٥٠) على المواد الابتدائية ، وقلة الايادي العاملة وندره رؤوس الاموال من جهة أخرى كما يوضحه لنا ارتفاع الفائض الجاري بذلك الزمن والبالغ ٣٠ الى ٤٠ بالمائة وذلك نظراً لقلة الامنيه وعدم انتظام الشرائط الحقوقيه ليستند الدائن عليها حين مطالبته بالدين

(واذا نظرنا الى صنايع لبنان نرى انها رغم وفرة محصولات هذا الجبل الحريرية ، بدرجة من الانحطاط تستحق الذكر فبينما بلدة غزة وحدها التي لا تملك على الشرائط الطبيعية الممتاز بها لبنان كانت تملك على ٣٠٠ كار للاقمشة في زمن غوى - Guys نرى ان لبنان كله لم يكن يملك في نفس الزمن علىَ اكثر من ٢٨٠ كاراً ومن اهم اسباب تأخر صناعة لبنان مع سعي ابنائه من نساء ورجال هي قلة رؤوس الاموال و كثرة المحتكرين ومركز هذه الصناعات النسجيه كانت دير القمر (١٢٠ كاراً) و بعبدا (٤٠ كاراً) والزوق (١٢٥ كاراً) ومما يجلب النظر انه بينما المايةوالعشرون كاراً في دير القمر لا تعطي فائدة خالصة الا ٣٠٠٠٠ فرنك نرى ان

٢٠ كاراً في بغداد كانت تعطي ٢٠٠٠ فرنك ي ان الشرائط الاقتصادية كانت اوفر نصيباً في هذه الاخيرة / اما ما يخص الصناعات الاخرى فنخص بالذكران شوبرت – Schubert الذي زار سوريا كما ذكرنا في منتصف القرن الثامن عشر) وجد في الخليل Hebron صناعة الزجاج زاهرة و يذكر ان اساورها الملونة وقنانيها كانت تجد انتشاراً حتى في بعض انحاء اوروبا (٣٠٧) وكذا يذكر هذا السائح اهمية الصناعات الدينية في القدس و بيت لحم ثم ارساليات دبس الخليل لمصر التي تبلغ سنوياً ١٠٠٠٠ كيلو . وكذا كانت مصابن طرابلس و يافا مشهورة .

الباب الرابع

حالة سوريا الاقتصادية منذ افتتاح ترعة السويس حتى يومنا هذا

١ – سوريا وترعة السويس

ان فكرة ربط البحر الاحمر مع البحر المتوسط بحفر ترعة اصطناعية تولدت بافكار كل الدول التي حكمت على ضفاف النيل ولكن افكار القدماء كانت متجهة نحو ترعة تربط البحر الاحمر اولاً مع النيل و بواسطته مع البحر المتوسط وقد حقق بطلوميوس الثاني فتح هذه الترعة وصرف عليها

[٣٠٧] Schubert Bd II 475

مبالغ طائلة بلغت على ظن بعض المحررين ثلاثة مليارات فرنك (٣٠٨)
وكانت هذه الترعة مبنية بصورة متينة دامت على احسن حال حتى زمن
الرومان اي بعد ٣٥٠ سنة ولم تحتج في ايام عمرو ابن العاص الى تحسينات
طفيفه لتستخدم بنقل الحنطة من مصر الى جدة ولكن منذ اكتشف البورتغال
طريق الهند البحري وكبر حجم البواخر التي كانت تنقل البضائع بين
اطراف البلاد الشرقية والاوروبية وتوسعت اهمية هذه الصلات تولدت
فكرة فتح ترعة تربط رأساً البحر الاحمر بالبحر المتوسط وذلك بين اقرب
نقطة بينهما وخصوصاً لوجود بحيرات ومستنقعات على قطعة الارض التي
تربط سوريا بمصر ولقد ذكرنا ان البنادقة هم الذين حرضوا مماليك مصر
لتحقيق هذه الامنية دون ان يحصلوا على نتيجة ما وقد اخذ عنهم السلطان
مصطفى الثالث هذه الفكرة واراد تحويل الخط التجارى الذاهب عن رأس
الرجاء الصالح نحو البلاد المصرية نظراً لما لهذه الحركة التجاريـة من التأثير
الحسن على حياة البلاد التي تمر منها وكذلك سعى احد مفكرى الالمان المدعو
لايبنيس Leibniss سنـة ١٦٧٢ الى استجلاب ملك فرنسا (لويس
الرابع عشر) لهذه الفكرة دون ان يتوفقا لامنيتهـما وكذا سعى (نابوليون)
لنفس هذه الغاية وارسل هيئة علمية تحت رئاسة ليبر Lepére وذلك سنة
١٧٩٨ للبحث عن الامكان الفني لتحقيق هذه الغاية فلم يثمر مسعاه

[٣٠٨] Vosse [Martin]

ويظهر مما تقدم واضحاً بان فكرة افتتاح هذه الترعة كانت منذ القديم غاية كثير من الملوك وانما لم يتوفق لتحقيقها احدا لا ذلك الرجل العظيم بارادته وعلو همته Ferdinand Lessepse سنة ١٨٦٩ بعد جهاد عظيم ونفقات باهظة بلغت ٦١٨ مليون فرنك فهذه الترعة قصرت طريق الهند الى اكثر البلاد الاوروبية بنسبة ٣١ الى ٤٥ بالمائة عن طريق افريقيا الجنوبية اما الى هونكونغ Honkong و يوقوهاما Youkohama فالقصر كان بنسبة ٢٦ بالمائة واذا علمنا ان نصف البضائع التي تمر من ترعة السويس منشأها الهند نرى ان هذه الترعة حولت طرق كثير من البضائع التي كانت تمر سابقاً من سوريا ولم يعد خط رأس الرجاء الصالح بعد افتتاح ترعة السويس الا ممر للسفن الشراعية التي تذهب عنه حتى في يومنا هذا لانها ليست باحتياج الى حمل ثقل من الفحم في نقله خسارة اقتصادية . وقد ساعدت هذه الترعة تكاثر استعمال البواخر التجارية وقللت من السفن الشراعية لقلة المسافة من جهة وتكامل آلات البخار من جهة اخرى فجعلت هذا الطريق رغم ايرادات المرور (التي لم تكن قليلة) مفيدة للمناقلات التجارية واكثر من استفاد اخيراً من هذه الترعة هي انكلترا التي بقيت مدة طويلة تعاكس فتحها بكل الوسائل المالية والسياسية وكانت مشتغلة مدة طويلة بتقصير طريق الهند ولكن عن غير طريق ترعة السويس بل يربط نهر العاصي مع الفرات بواسطة اقنية وابتدأت بالبحث عن ذلك سنة

١٨٢٩ – ٢٤ حيث وجد القولونل چهسنهى (٣٠٩) Chesney ان الفرات قابل لاسفن منذ باليس Balis (واقرب ثغر لحلب) حتى البحر العجمي وذلك في بعض ايام السنة ما عدا وقت الحر الشديد او الزمن الذي تنهدر فيه السيول من الجبال المجاورة وانما السفن التي لا تغطس اكثر من ثلاثة اقدام يمكنها ان تسير عليه في كل ايام السنة وهذه الخطة تعود الى Endes الذي افتكر في فتح ترعة تذهب من السويدية فتعقب مصب نهر العاصي ثم تتجه نحو حلب وتصل الى الفرات قرب باليس فتعقب مصبه حتى فلودجه Filuodjah حيث تقطع من هناك العراق العربي وتصل الدجلة قرب بغداد . وقد حسبوا مصارفات هذه الترعة فبلغت بالتقدير ١،٢٦ ملياراً من الفرنكات وفوائد هذه الترعة تفوق من جهات ما حققته ترعة السويس من سهولة المناقلة بين الهند والغرب فلو كان لسوريا الحظ بتحقيق هذه الأمنية لأضحت هذه البلاد مع استعداد سكانها وخصبة تربتها تضاهي حالة البلاد المصرية في يومنا هذا اقتصادياً وتقدماً و يظهر لنا تفوق هذه الترعة السورية على قنال السويس اذا علمنا ان البواخر الكبيرة توفر بعد الحساب اذا سارت على هذه الترعة عوضاً عن قنال السويس (على فرض انها تدفع حتى ١٠ فرنكات عن السائح وطن البضائع) ٢٥٠٠٠ فرنك وكان هنالك خطط أخرى

(٣٠٩) Berard la route de l'Inde 1887 p. 21-38

لربط السويدية مع بالس فبغداد بخط حديدي وحتى اعطت الحكومة العثمانية امتيازاً بذلك سنة ١٨٥٧ وثم خط يربط اسكندرون يبغداد الذي يقصر طريق لوندره - بومباي اربعة ايام ولا يكلف اكثر من مليارين ونصف من الفرنكات ولكن كل هذا الخطط لم تحقق مع ان القائمين بها انكليزيون مشهورون بثباتهم ومثابرتهم على كل عمل نوي تحقيقه اما السبس الأفرنسي فقد توفق رغم كل الصعوبات الى تحقيقها وقد تجددت فكرة ربط السويدية مع بغداد بخط حديدي في فرنسا بعد أن توفقت انكلترا الى تملك اكثر حصص ترعة السويس(٣١٠) ولكن لم تأتِ بنتيجة تذكر، حتى تولدت هذه الفكرة عند الألمان تحت شكل خط برلين - بغداد حيث نراها تظهر الى حيز العمل تحت هذه الصورة دون ان تراعي احتياجات سوريا او تؤثر على مناقلات ترعة السويس.

ولكن لما كانت نهضة سوريا في القرن التاسع عشر مبنية على اسباب لا علاقة لها مع تجارة الهند كتحسين الادارة بواسطة ما ذكرناه من دور الاصلاحات وبناء بعض الطرق التجارية المهمة التي سنذكرها، وسهولة صلاتها التجارية مع اوروبا بعد تحسن الوسائط النقلية البحرية ثم دخول رؤوس الاموال الاجنبية اليها واخيراً نهضة ابنائها الفكرية بعد الاحتكاك بالمدنية الاوروبية التي كانوا يبتعدون عنها بدافع الفقر وبعد المسافة

(٣١٠) Sejourné Suedieh et la route de l'inde p. 1883

وانما عدم تحقيق امنية فتح (الترعة السورية) منع بلادنا من النهضة التجارية واضحت الزراعــة قبل كل شيء ثروة البلاد الاساسية التي يعيش منها اكثر السكان رغم وضعية سوريا الجغرافية ووقوعها بين اوروبا والهند وسهوله ادخال كثير من الاراضي الواقعة في شمالها ما بين الفرات وحلب الى دائرة النشاط الاقتصادي القومي وسنرى في الابحاث الآتية تفاصيل هذه الدورة التاريخية مبتدأين اولاً بالزراعة . ويمكننـا ان نتم هذا البحث بالتلميح عن الخطة الانكليزية العائدة لفتح ترعة تبدأ بحيفا وتتجه حتى البحر الميت ثم تعقب استقامه الجنوب وتصل العقبة مارة بوادي العربا ومع ان طول هذه الترعة من حيفا الى العقبة تبلغ ٤٠٠ كيلومتر لا يزيد القسم الذي يجب حفره صناعياً منها عن ١٩٢ كيلو متراً اما مصارف هذه الترعة فتبلغ — حسب ارباب هـذه الفكرة — ملياراً الى مليارين من الفرنكات (٣١١) . ولكن كثرة المصارفات وخوف الحكومة التركية على ضياع محتويات البحر الميت من الاملاح الثمينة حالت حتى الآن دون تنفيذ هذه الخطة والتي ربمـا وضعت على بساط البحث في المستقبل اذا فقدت انكلترا نفوذها نهائياً في مصر او تضعضع تحكمها على ترعة السويس ولا يخفى تأثير ذلك في حياة سوريا الاقتصادية وخصوصاً في مستقبل فلسطين الزراعي والتجاري

(٣١١) Noel Verney et G. Dambmann les puissanas etrangéres dans le levant. 1900 p. 403

لتحسن حالة الارض الطبيعية وسهولة المناقلات .

٢- شرائط الزراعة السورية من الوجهة المالية والحقوقية بعد فتح ترعة السويس

لقد رأينا كيفية نشوء الاصلاحات الخيرية وتطوراتها حتى فتحت ترعة السويس ولا نحتاج الى تكرار ما قلناه بهذا الخصوص وانما يجب ان لا ننسى بأن كل الاصلاحات لم تكن بالحقيقة الا لفائدة سكان المدن اما الفلاح السوري فبقي كما في السابق يئن تحت مضرات اصول جمع الضرائب بالالتزام الذي كان قبل التنظيمات يعم سكان المدن ايضاً وفي الحقيقة لم يكن بامكان الحكومة العثمانيـة رغم تنور بعض سلاطينها واخلاصهم ومعرفتهم مضرات هذا الاصول الابتدائي من ترك هـذا الاصول المبني على عدم وجود الدراهم بيـد الفلاح وقلة امانة الموظفين وعدم اهتمامهم لمنافع الخزينة العثمانية وصعوبة تفتيش اعمالهم وحركاتهم ومع ذلك تشبثت سنة ١٨٧٠ الى تقليل مضرات اصول الالتزام بمنع المطاولة بالمزاد وعدم تغير الملتزم اذا لم يقدم غير ٣ % ثم اعطاء كل قرية الى ملتزم مستقل وتفويض مختار القريـة بتعيين الضرائب اذا نضج المحصول وطال المزاد ثم توظيف الحكومـة بجمع الاعشار اذا لم يكن من ملتزم بمدة معينة (٢٠٢) وقد جربت الحكومة العثمانية بواسطة واليها في دمشق احمد حمدي باشا ادخال اصول

(٢٠٢) Arslanian P. 46.

ضرائب ثابتة في سوريا سنة ١٨٨٥ - ٨٦ وذلك تحت اسم « تخمين اصولي » باعتبار محصولات الخمس سنين الاخيرة اساساً لتعيين ضريبة زراعية ثابتة على الارض ولكن كون هذه الضريبة ٪ ١٣ (٣١٣) من المحصول اسيء اعلى مما اعتاد الفلاح على دفعه وسوء محصول السنة التي طلب بها وجهل الفلاح وعدم تقديره فوائد هذا التجدد وخوفه من ترك ما نشأ عليه وقبول مالا يمكنه فهمه كل ذلك حال دون المداومة على هذا الاصول واجبر الحكومة للرجوع الى الاصول المتبع قديماً ولكن سعت الحكومة العثمانية لتخفيف اضراره بتشريك مختار القرية لتعيين قيمة المحصول واعطائه صلاحية تعيين الاعشار اذا لم يحضر الملتزم في الزمن المعين واصدرت قانوناً في ٢٤ شوال ١٣٠٦ (١٨٨٩) تجدد به مواد قانون ١٨٧٠ بخصوص شرائط المزاد والالتزام وسنة ١٨٩٥ اصدرت قانوناً يحفظ الزراع من ان تصادر ادواته اللازمة للفلاحة ثم استماع آراء الزراع بقبولهم الملتزم او رده (٣١٤) ومن جهة اخرى لم تكن مهنة التزام الضرائب مكللة بالنجاح دائماً بل نرى ان ملتزمي اطراف حلب افلست جميعها سنة ١٨٨٨ وهذا ما يوضح لنا سعي الملتزمين للتضامن مع بعضهم في الازمنة الاخيرة لكي يحولو دون رفع اسعار

(٣١٣) Gilbert consul de france à Damas bulletin du Ministre de l'agriculture 1885 p. 103

(٣١٤) Noel verney et Dambmann les puissances etrangeres dans le levant 1900 p. 175

الاعشار بالمنافسة التي من نتائجها تقليل وارداتهم ولا يخفى مضرات ذلك للخزينة من جهة والفلاح السوري من جهة أخرى ورغم كل هذه التشبثات القانونية السابق ذكرها بقيت ضريبة العشر واصول الالتزام من اهم الاسباب التي اضرت بالزراعة السورية وحالت دون تقدمها الاقتصادي وقد زاد مضرات هذه الاصول قلة اخلاص اولى الادارة خصوصاً في الولايات البعيدة كسوريا وعدم تطبيق القوانين التي كانت تسعى لتخفيف وطأة هذه المؤسسة المالية ثم الضمائم على العشر لتأسيس مصرف زراعي ثم لمعاونة المعارف والتجهيزات العسكرية وابتدأ بهذه الزيادة منذ ١٨٧٨ فزيد على العشر ربع بالماية لدفع الغرامة الحربية لروسيا ثم بدلت ذلك سنة ١٨٨٥ بزيادة واحد ونصف بالماية منها ١ % لتأسيس مصرف زراعي والنصف للمعارف وفي سنة ١٨٩٧ زيد على نفس العشر نصف بالماية

وهكذا نرى ان ضريبة العشر بلغت في ايامنا الحاضرة اثنى عشر ونصف بالماية مع زيادات خصصت للمعارف والتجهيزات الحربية اي ما يساوي ثمن المحصول الاعلى الشرانق فيبلغ العشر اثنى عشر بالماية فقط هذا ما يخص بالعشر وكان على الزراع عدا عن ذلك تأدية ضريبة على الاغنام تساوي ثلاث غروش ونصف وعن كل جمل عشرة غروش ثم اثنان ونصف بالماية من قيمة الحيوانات اذا بيعت و ٥ بالالف من قيمة الاراضي المنتقلة او المباعة وقيمة هذه

الاراضي تعين من قبل الحكومة بالتحرير (٣١٥) وكان على الزراع دفع ضريبة ثابتة على الاراضي الميرية تبلغ ٤ بالالف ومن الاراضي المزروعة بالاشجار او التي تحمل ابنية ٨ بالالف واخيراً كان على الزراع تأدية ضريبة مختصة بتعمير الطرق بلغت في الازمنة الاخيرة ٢٠ الى ٣٠ غرشاً في السنة باختلاف الولايات العثمانية واجرة العمال بها واساس هذه الضريبة ترجع الى سنة ١٨٦٢ حيث صدر قانوناً عثمانياً يجبر كل عثماني مدة عشرين سنة بحياته ان يخدم سنوياً اربعة ايام بتعمير او تصليح الطرق ويمكنه التخلص من هذه الخدمة اذا دفع (٤) فرنكات سنوياً (٣١٦) والخلاصة يمكننا ان نقول ان مسئلة تعيين الضرائب على الفلاح السوري رغم تشبثات الحكومة العثمانية لم تحل بعد وقد بقيت حتى يومنا هذا على بساط البحث وبينما كل الاختصاصين يقرون بمضرة اصول الالتزام ووفره الضرائب على الفلاح المسكين يصادف المدقق صعوبات كثيرة بتحويل هذا الاصول الابتدائي الى ضريبة ثابتة على الارض كما هو الحال في البلاد الراقية وذلك لاعتياد الفلاح على هذا الاصول منذ القديم وصعوبة وجود هيئة مأمورين مقتدرين ليس اخلاصاً فقط بل اهلية لتأمين منافع الخزينة السورية والفلاح السوري وقد اقترح روبين

---

(٣١٥) Gilbert Bulletin du Ministre de L'agriculture 1885 p. 507

(٣١٦) Noel Verney et Dambmann p. 395

Ruppin في كتابه الثمين رفع ضريبة الويركو بالتتابع وازيد على ذلك بان يوءخذ اساس تعيين ارتفاع الضريبة لغاية عشر سنين على الاقل لا خمسة كما أجرى احمد حمدي باشا وأن تقسم الاراضي السورية الى مناطق ودرجات بالنسبة لقربها من الانهر ثم جودة تربتها بحيث لا يمكننا طلب ضريبة عمومية في بلاد كسوريا حيث كمية الماء تعين وفره وجودة المحصول ومصداق ذلك الآية القرآنيـة الشريفة (وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي) . ولا شك ان قيمة الارض اذا عينت من طرف هيأت تضم بين زمراتها بعض اهل الخبرة تساعـد جداً تعين هذه النسبة لان قيمة الارض تنعكس بالصورة العمومية بمقدار وارداتها الزراعية .

وقد الغيت الحكومة العثمانيـة الضرائب التي كانت على البضائع الزراعية حين دخولها او خروجها من المـدن وذلك سنة ١٨٧٣ وكان ارتفاع هذه المكوس ٢ - ٤ - ٦ - ٨ بالماية من قيمة البضائع الزراعية نظراً لاختلاف انواعهـا . وابقيت على البضائع اذا ارسلت بواسطة الطريق البحري من بلدة الى أخرى تبغاً وملحاً وكحولاً . حيث تدفع ٨ بالماية ويستثنى من هذه الضريبة الحنطـة التي ترسل عن الطريق البحري لكي تطحن وترد الى البلدة التي خرجت منها ولكن

(٣١٧) Noel Verney et Dambmann p: 395

ادخات البلديات هذه الضرائب بصفة دخولية مما يضر جداً بالمحصولات الزراعية نظراً لغلاء النقل في البلاد السورية ·

هذا ما يخص بالضرائب واذا التفتنا نظرنا نحو شرائط تملك الارض التي ابتدأت ان تأخذ اهمية في سوريا منذ كثرت سكانها وتكاثر عدد الطامعين بالتملك عليها حيث من المعلوم ان البدوي الذي يرى امام عينيه مساحات واسعة تعرض نباتاتها الطبيعيه الى استعمال الكل لا يشعر بأحتياج للتملك الشخصي منعاً لغيره من الاستفادة من هذه الارض لانه يجد هناك ساحات واسعه اسداحتياجه وكذا المزارع في البلاد القليلة السكان والتي هي بصلات اقتصادية قليلة مع الخارج لا يرى بنفسه دافعاً لاسعي الى نفس الغاية ولذلك لم يكن بسوريا حق تملك شخصي مؤسس على القواعد الحقوقية العصرية والتعاليم المدنيه ومع ذلك لا يمكننا الا تقدير الاساسات والمساعي القانونيه التي صرفها اولى الامر بذلك العصر من ربط شرائط العقارات الحقوقيه بحولات حفظت من طرف الحكومة العثمانية وبقيت اساس المعاملات الحقوقية المتعلقة بالاملاك حتى يومنا هذا وهنالك صعوبة بتأمين محافظة مالكية الاشخاص لدى حصول المنازعات لكون المحاكم تعطي بقراراتها اهمية زائده لكلام الشهود الشفاهية نظراً لقلة عارفي الكتابة في انحاء سورية واستعمال الاختام وماشاكلها عوضاً عن الامضاء الصعب التقليد وهذه الحالة كانت من جملة الاسباب التي منعت دخول رؤوس الاموال الاجنبية الى

الاراضي السورية (٣١٨) ولذلك لا عجب بان نرى الشكايات والمنازعات عَلَى الاراضي من الامور الاعتيادية في الشرق وقد انتبهت الحكومة العثمانية الى ضبط حدود الاراضي وتعيين مالكيها ثم توزيع الطابو الى المتصرفين وذلك من ١٨٥٥ الى ١٨٧٠ وزادت عَلَى العشر لهذه الغاية مبلغاً طفيفاً (٣١٩) ولكن هذا الفحص لم يكن مبنياً على تبين الاراضي هندسياً بصورة مضبوطة بل بناءً عَلَى الاستعلام الشفاهي والتقدير فهذه الحالة الحقوقية التي من نتائجها عدم الامنية عَلَى الاملاك ساعدت بعض المتنفذين وذوي الاموال عَلَى سلب املاك الفلاحين واراضيهم دون ان يتمكن هؤلاء من المدافعة عن حقوقهم حيث لم تكن الاساسات القانونية كافية للمحافظة عليها وطول الدعاوي والمصارفات وجهل الفلاح كانت موانع لا يستخف بها حتى من طرف الاوربيين المثريين واولى الامتيازات الاجنبية بحيث نرى ان القناصل الاوربية توصي مواطنيها باستعمال كل الطرق لحل المسائل بدون معاونة المدلية العثمانيه فكيف بالفلاح المسكين الضعيف ولا عجب اذاً بعد توسع صلات سوريا التجارية مع الخارج كما سنفصله في محله وكثرة الفوائد المادية التي يمكن تحقيقها باخراج المحصولات بأن نرى كثيراً من اولى النفوذ والثروة توجه ابصارها نحو اراضي الفلاح وتسعى بالوسائط

---

(٣١٨) Recueills Consulairs belge tom L. x lll 1888 page 303

(٣١٩) Aslanian Grundeigentum im Osmanichen Reiche 1888 page 41

الفقير محمودة لى سلب الارض التي ربما صرف الفلاح لتملكها ايام شبابه وحيات اولاده وليس بين ايادينا احصاآت كافية تبين لنا هذه الحالة المحزنة الا ما اخبرنا عنه بعض المؤلفين عن بعض الاطراف السوريه منهم اوهاغن Auhagen في كتابه عن طبيعة الاراضي والزراعة السوريه (٣٢٠) يذكر انه بولاية حلب ٢٠ الى ٣٠ بالمائة من الاراضي الزراعيه تعود للفلاحين والباقي لاولى الاملاك الكبيرة والمزارع السلطانيه ونسبة الاراضي العائدة للفلاحين لمجموع الاراضي في فلسطين هي كما يأتي:

في شرقي الاردن	١٥	بالمائه
في بلاد الخليل	٢٠	»
في بلاد يهوذا	٥٠	»

وكذا الاراضي الواقعة قرب عفولة وارض جبل حوران ثم البقاع واكثر الاراضي في سهل حمص وباطراف حما تعود لاصحاب الاملاك التي تبلغ مساحتها حتى مائتين الى ثلاثمائة الف دونم (٣٢٠) هذا عدا عن الاراضي العائدة للحكومة التركية السابقه واكثرها في شمال سوريا وفلسطين (وادي الغور) وبعض السواحل السوريه وخصوصاً باطراف صيدا وعكا اما لبنان فانه يحتوي على عدد وافر من الفلاحين صاحبي الاملاك الفرديه لصعوبة الاستفادة من اراضيه الوعره الا بجهد وكد فردى يستغرق

(٣٢٠) Auhagen Beitrag zur kenntnissdes landesnatur uud Landwirtschaft Syriens 1904

صبراً طويلاً ومنفعة مديدة وساعد تولد هذا الحس عندهم كثرة عدد السكان نسبة الى سائر الاطراف السوريه الذين هربوا الى لبنان تخلصاً من ضغط الحكم الجبري الذي كان يجريه بعض الولاة التركيه على سكان المدن هذا دون ان ننسى ان هنالك املاكاً واسعه تعود للكنيسه بتأثير العاطفه الدينيه وقد لاحظت الادارة العثمانيه مضرات فقدان قانون خاص يعين بصورة واضحه طبيعيه وحدود التملك الشخصي على الاملاك الغير منقولة وذلك منعاً للتلاعب والمجادلات التي تضر بحياة البلاد الاقتصاديه ونما صادفت تشبثاتها كما هي الحالة في اكثر التجددات معارضات كثيرين منهم بعض المشايخ الذين افتكروا ان هذه القوانين تحدد صلاحية الشرع الشريف او تخالف محتوياته وهكذا نرى ان اللوائح القانونيه التي نظمها احد الاختصاصيين محمود افندي رفضت من طرف العلماء رغم ان الوزارة وشيخ الاسلام وافقوا على قبولها وقد تشبث حقي باشا لتحقيق هذه الغايه ولكن رفضت اللوائح القانونيه من طرف المجلس النيابي المنعقد سنة ١٩١١ ثم داوم على هذه المساعي سعيد باشا وتمكن اخيراً من تأمين موافقة المجلس على قبول هذه اللوائح التي اضحت بعد التنقيح المتتابع قليلة المداخلة بالمسائل العائدة للشرع الشريف وذلك سنة ١٩١٢ ولكن تفرق المجلس دون ان يعطي مصادقة رسميه على اصدار هذه القوانين التي اضطر محمود باشا الى اصدارها بصورة قوانين موقته سنة ١٩١٣ تبعاً للرأى العام

العثماني الذي كان يطلب تجددات واصلاحات تساعد الدولة العثمانيه لتحقيق التخطيط والتحديد الحقيقي التي وعدت به سنة ١٩٠٨ امـا تلك القوانين فكانت تعود للمسائل الآتية.

قانون ٥ شباط ١٩١٣ يعود لتحديد وضبط الأملاك الغير منقوله

» ١٦ » ١٩١٣ يعطي الاشخاص المعنويـه حق التملك الشخصي

» ٢١ » ١٩١٣ يحدث بعض الاصلاحات بخصوص حقوق الوارثة العائدة للأملاك الغير منقوله

قانون ٢٥ شباط ١٩١٣ يعترف لاول مرة بالتأمين العقاري Hypothèque ويعين شرائطه

الحرب البلقانيه والحرب العامة حالتا مع الاسف دون تحقيق الاصلاحات ونرى ان مسألة تنفيذ هذه التجددات الاساسيه هي على بساط البحث في يومنا هذا ولايمكن للبلاد ان تنال تقدمها الاقتصادي الا بعد تثبيت اساس الملكيه وربطها بالشرائط الحقوقيه التي تحتاج اليهـا البلاد ويمكننا تلخيص اساس هذه الاصلاحات بالعبارات الآتيه:

اولاً تجديد دوائر التمليك بادخال اصول التسجيل العقاري والسجلات العقاريه التي تعين بصورة مستقلة عن شخصية المتملك شرائط العقارات الحقوقيه مستنده على اساسات المساحة التي لاتقبل الريب

ثانياً اعطاء حق التملك الحقيقي والقطعي الى الاشخاص حتى لا يبقى محل للشك والمجادلات المتفرقيه وذلك :

بتعين حدود الاملاك

بحل مسائل الوراثة التي لم تحل

باعطاء حقوق التملك خاصه التعميم (Publicite) بحيث يمكن لكل انسان ان يطلع على مستندات تملك الآخر

بتوسيع الاساسات القانونيه التي تعين اصول الاعتماد العقاري

ثالثاً : تحديد الاراضي العائدة للحكومه بصورة صريحه

رابعاً : مساعدة نهضة الاراضي المنفصلة عن اصحاب الاراضي الواسعه او المنقسمه من املاك العثلات وادخال الاصلاحات اللازمـه لتأمين التحسينات الزراعيه

فتح الطرق التي تساعد هذه الاراضي الى توريد حاصلاتها وتجفيف المستنقعات (وتوزيعها على الفلاحين)

واسقاء السهول الواسعه الواقعه على ساحل البلاد السوريه وبداخلها

— الطرق والسكك الحديديه —

ان للطرق تأثيراً كبيراً بحياة الشعوب الماديه حيث انها الواسطه الاساسيه لتأمين الاستفادة من الانتاج الصناعي والزراعي وفقاً لمبدأ تقسيم الاعمال الاجتماعي فاذا لم يكن هناك طرق صالحه لتوريد الزرع واذا كانت مصارفات

نمل المحصولات علَى اثر ذلك تفوق فوائد البيع فأي دافع يدفع الزراع الى الاستفادة من الاراضي المخصبة او الى زيادة واردات الاراضي الوسطيه بوفره الاعتناء والدقه بالعمليات الزراعيه ؟

فالطرق (ان كانت حديديه او عادية) تدفع بتقايلها مصارفات النقل الزارع الى توسيع دائرة عملة بحيث يسعى الى تكثير المحصولات الزراعيـه اما بفلح اراض اهملها حتى ذلك الوقت او بتسميد التربه واسقائها والسهر علَى نمو الزرع والا فما ذا يفيد زيادة المحصول اذا لم يمكنه الاستفادة منه كما كانت عليه الحالة في حلب سنـة ١٨٨١ حيث على اثر رخص القمح في اوروبا بمناسبة واردات روسيا والبرازيل لم يعد في امكان الزراع السور بين دفع مصارفات النقل الغاليه نظراً لفقدان وسائل المناقلات السهلة واضطرارهم الى نقل القمح علَى ظهور الجمال فاحرقت سنه ١٨٧٤ في اورفه محصولات المشير بامر احمد باشا والى حلب حيث لم يكن هناك واسطه لبيعها او تورَيدها الى الخارج نظراً لغلاء اثمان النقل والتخلص من دفع اجره حفظه بالمخازن وقبل ان يبني الخط الحـديدي الذي يربط اطراف حوران بحيفا كانت زراع هذه الاطراف تدفع نصف المحصول الى المكاري لينقل قمحها الى ثغر عكا ولذلك بينما كانت قيمه طن القمح (سنـة ١٨٩٠) ٥٣١٨ فرنك في حوران كانت قيمته في زحله ٧٠٩١ وفي عـكا ١٧٢٥ من الفرنكات فيمكننا

(٢٢٣) Vital Cuinet e 1896 paje 861

تصور ما بقي للفلاح من الفوائد بعد دفع ما عليه من الضرائب للحكومه ورخص المحصولات الزراعيه في اوروبا مع ان الخط الحديدي بين حيفا وحوران (درعا) انزل هـذه المصارفات الى السدس عوضاً عن النصف (٣٢٣) ويمكن ان ينزله في المستقبل حتي اقل من ذلك اذا نظرنا الى تعاريف الخطوط الحديديه الاوروبيه ويكفي ان ندقق واردات طريق الشام بيروت التي بنيت من قبل احدى الشركات الافرنسيـة بناءً علَى امتياز اعطي لها بتاريخ ١٨٥٧ لنري كيف ان بناء هذا الطريق جاء موافقـاً لاحتياجات البلاد الاقتصاديه :

ان واردات هذا الخط تضاعفت بظرف سنة فبقيت تقريباً علَى هذه السويه الى سنة ١٨٦٩ حيث بلغت ١٠٣١٠٠٠ فرنك وبقيت علَى ذلك الى سنة ١٨٩٢ ما عدا سنة ١٨٧٧ حيث لم تتجاوز الواردات ٨٩٢٠٠٠ فرنك وارتفعت منذ سنة ١٨٩٢ الى ١٧٨٠٠٠٠ من الفرنكات الى انتهاء خط بيروت والشام الحديدي الذى اوقف هذا التقدم (٣٢٤) بتنزيل اجرة نقل الطن عن الكيلو متره من ٥٦ سنتيم بزمن الطريق العادي الى ٢٠ سنتيم بواسطه السكة الحديديه فهذه الاعداد السابقه تدل بصراحة علَى تأثير الطرق بكمية المحصولات المتبادلة ضمن حدود سوريا ومع الخارج وقد تشبثت الحكومه لتأسيس خط يربط حلب بثغرها الطبيعي

(٣٢٣) Recueils Consulaires belge 1913 page 220
(٣٢٤) Verney-dambmann page 215

اسكندرون وتمكنت من تنفيذ ذلك سنة ١٨٨٢ ولكن عدم اقتدار المهندسين الذين عمروه الفني وقلة السهر على محافظته حسب الاقتضاء سبب خراب هذا الطريق بعد مدة وجيزة بحيث كانت القوافل تأخذ طريقاً آخراً عن جبل بركات ولا تعقب هذا الطريق الا منذوادي عفرين (٣٢٥) فعدا عن غلاء نقل البضائع على ظهور الجمال يتضرر قسماً مهماً منها بالرطوبة اثناء الطريق وقد بقيت هذه الحالة سنة ١٨٩٧ رغم ارتفاع اسعار الحنطة في اوروبا كما يظهر من بيان معتمد بلجيكا سنة ١٨٩٧ حيث يقول حرفياً « بان غلاء اجرة النقل تمنع حلب من اصدار حنطتها (٣٢٦) وكذا يقول بيان آخر بتاريخ سنة ١٩٠٥ « ان عدم وجود خط حديدي من حلب واسكندرون وصعوبة النقل على ظهر الجمال تصعب ارسال صادرات الاراضي البعيدة عن السواحل » ولذلك نرى حلب بعد اتمام الخط الحديدي بين حمص وحلب وطرابلس الشام من جهة ترسل اكثر بضائعها الزراعية الى الغرب عن طريق طرابلس عوضاً عن ان ترسلها الى ثغرها الطبيعي اي الاسكندرون التي هي على مقرب منها ورغم ان اجرة نقل الطن عن طريق حمص طرابلس كان يكلف التجار والزراع في بلدة حلب ٣٠ فرنك نراهم كانوا يفضلون هذا عن طريق اسكندرون للامن والسهولة التي كانوا

(٣٢٥) Fitzner aus kleinasien und Syrien 1903 p. 133
(٣٢٦) Rcueil Consulaires belge 1899 page ج 76

لا تجدونها بطريق القوافل الذاهبة الى اسكندرون فيمكننا اذاً ان نفتكر في تأثير فوائد الخط الحديدي الذي بنته شركة بغداد في شمالي سوريا لانه يوفر على تجار حلب وزراعها ١٠ فرنكات من كل طن واذا افتكرنا بأن كثيراً ما يمنع بيع محصولات حلب بالخارج رخص الحنطة ثلاثة او اربعة فرنكات بالطن يمكننا اذاً ان نقدر الفوائد الاقتصادية التي تؤمنها للبلاد سكة حديدية التي تربط حلب رأساً بثغرها الطبيعي اسكندرون وقد بقيت هذه الحالة حتى الحرب العامة حيث يذكر Ruppin ان كل او اكثر الحبوب تسير من سنة ١٩١٦ حلب واسكندرون على ظهر الجمال التي تكلف الزارع والتاجر سنويا ٤٤٠٠٠٠ فرنك

وقد تشبث مدحت باشا الى ربط دمشق مع صيدا بطريق موازياً لخط بيروت ودمشق (٣٢٧) وذلك لادخال قسماً من ارض حوران المثبتة في دائرة المبادلات التجارية وذلك سنة ١٨٨١ ولكن لم يتوفق الى تحقيق هذه الامنية والحق يقال انه كان للحكومة التركية رجال مقتدرين افتكروا في اسباب ترقي البلاد ونهضتها وانما اساس مرضنا الاجتماعي هو عدم المثابرة على الاعمال فبالوقت الذي كان مدحت باشا يسعى لأنشاء هذا الطريق كانت الطرق الموجودة - بحالة محزنة من

(٣٢٧) Charme Voyage en Syrie page 30

الاهمال والتساهل مع انها كلفت البلاد مصارفات جسيمة وكذا سعي البعض لفتح طريق بين حما واللاذقية ولكن القوليرا التي نشت في سوريا سنة ١٨٩١ منعت من اكماله فترك ناقصاً حتى سنة ١٨٩٦ حيث تم تعميره

وقد اعطى الطريق الذي اسس بين حوران والشام سنة ١٨٨٨ نتائج باهرة من خصوص تأثيره على زراعة الضواحي التي مر بها (٣٢٨) ومما يبين مقدرة سكان سوريا الاقتصادية اذا عزموا على القيام بامر تأسيس طريق حمص وطرابلس من طرف شركة اهلية بناء على امتياز اعطى لها سنة ١٨٨٣ وكان رأس مالها ابتدائياً ٩٠٠٠ ليرة تركية ورفع اخيراً الى ٢١٠٠٠ ليرة وقد تمكنت سنة ١٩٠٨ الى تأمين فائدة خاصة تساوي ١٦٠٠٠٠ فرنك اي ان فائدة الرأسمال بلغت ٪ ٣٣ ودام الحال حتى تأسيس الخط الحديدي بين طرابلس وحمص سنة ١٩١٠

وقد تمكنت الحكومة التركية منذ سنة ١٨٨٩ ان توسع الطرق السورية على اثر قانون يخصص ٪ ١٠ من واردات البنك الزراعي الى تعمير الطرق هذا عدا وجائب تقديم الخدمة اللازمة او بدلها بموجب قانون سنة ١٨٦٩ ويقدر Ruppin عشر واردات البنك الزراعي ٣٥٠٠٠ ليرة تركية وقيمة الخدمة البدوية او بدلها بموجب القانون السالف الذكر ٦٠٠٠٠ ليرة تركية (٣٢٩) وقدمت الادارة التركية

[٣٢٨] Verney-Dambmann page 393
(٣٢٩) Ruppin Syrien als wirtschaftsgebiet 1916 p. 172

اثناء الحرب الى تأسيس طرق جديدة من طرف العسكرية وتحسين القديم بحيث اضحى ممكناً السفر على اكثرها بالسيارات وعربيات النقل مما سوف يكون له تأثير حسن على حيات البلاد اذا عرفت المثابرة على حسن محافظتها وتعميرها و يمكننا ان نذكر بهذه المناسبة ان مستعمرات الالمان في حيفا تمكنت بجدها وماديانها الشخصية الى تأسيس طريق جميل بين حيفا والناصرة ·

اما الطرق التي كانت بسوريا سنة ١٩١٦ فهي كما يأتي :

خط على الساحل طوله ٣٥٠ كيلومتره وهو يمتد بين غزه وطرابلس مع انقطاع صغير بين حيفا وصور · وهناك خط موازٍ له يخدم للمناقلات بين شمال وجنوب سوريا فيباشر من اطراف مصر ماراً بالقدس، الناصره القنيطره ، الشام ، حمص ، حما ، حلب حتى عنتاب وطوله ١١٣٥ كيلو متر ثم هناك الطرق التي تربط الثغور السورية بالاراضي الواقعة بداخل البلاد اعني طرق اسكندرون ، حلب ، طرابلس ، حمص بيروت الشام ثم الطرق الذاهبة بين صيدا ، عكا ، حيفا ، يافا وما حاذاها من البلاد الداخلية وطول كل هذه الطرق الممتدة بين الساحل والداخل يبلغ ١٦٥٨ كيلو متر اي ان مجموع الطرق السورية سنة ١٩١٦ مع مايليها من الفروع بلغت ٣١٤٣ من الكيلومترات وهناك كثير من الطرق تأسست بعد الاحتلال خصوصاً على الساحل وفي بلاد العلويين والداخلية

زد على ذلك طرق لبنان . ولنذكر بالمناسبة ان بروسيا التي مساحتها تزيد عن مساحة تقريباً الثلث كانت تملك ١٨١٥ على طرق طولها ٤١٠٠ كيلو متر وسنة ١٨٥٧ اي بظرف ٢٢ سنة ارتفع طول هذه الطرق الى ٣٠٠٠٠ كيلو متر اي تضاعف سبع مرات ونيف وسنة ١٨٨٦ بلغ طول طرقها ٥٠٠٠٠ من الكيلومترات بينما مجموع طول كل طرق دولة المانيا التي مساحتها تفوق قليلاً على مساحة سوريا بلغت ١٩٠٩ : ١٥٠٠٠٠ من الكيلومترات وفرنسا التي مساحتها تقابل مثلي سوريا كانت تملك سنة ١٨٠٠ على ١٢٣٠٠٠ كيلومتر وبلغ طول طرقها في نهاية القرن التاسع عشر ٣٨٠٠٠ كيلومتر والنمسا التي كانت تملك سنة ١٨٧٥ (١٢٥٣٧) كيلومتر من الطرق بلغ طول مجموع طرقها سنة ١٩١٢ : ١٥٠٠٠٠ كيلومتر وبالحالة هذه مقياس درجة تأخر سوريا بالطرق اللازمة لتمهيد سبل صلاتها التجارية ونشاطها الاقتصادي واذا اعتبرنا عدد سكانها بالنسبة لطول هذه الطرق . نرى انها قليلة جداً بالنسبة الى ما ذكرناه من البلاد الاوروپية

فمع ان سكان المانيا يفوق مجموع عددها على عدد سكان سوريا ١٥ الى ١٧ مرة نرى ان طول طرقها سنة ١٩٠٩ اطول من طول طرق سوريا سنة ١٩١٦ بـ ٤٦ مرة ونيف هذا مع اهمالنا الالمانيا (عدا عن الطرق والسكك الحديدية التي لا تملك عليها سوريا بنسبة المانيا) ومن لا الفرع التي هي

متشعبة في المانيا وتسهل المناقلات الداخلية وبذلك يتجلى لنا هنا قلة مجموع نشاط سكان سوريا الاقتصادي نظراً الى عددهم وسعة اراضيهم ثم ضرورة امكان توسيع هذه الوسائط التي تستند عليها نهضة البلاد المادية .

وقد ابتدأت رؤوس الاموال الاجنبية ان تدخل في حياة سوريا الاقتصادية منذ منتهى القرن التاسع عشر بتأسيس معامل الحرير وطريق (الشام - بيروت) ثم بواسطة تأسيس السكك الحديدية فيها نظراً لتولد رؤوس الاموال الكثيرة في اوروبا التي لم تعد تجد هناك الفائدة المادية التي تطلبها ولذلك اتجهت خصوصاً نحو البلاد التركية لما للامتيازات الاجنبية من الفوائد المادية والحقوقية وبعض التأمينات كتعهد الحكومة الى شركات السكك الحديدية بتأمين فائدة معينة على كل كيلومتر من الخطوط التي تمد ولا نكرر هنا كل الفوائد التي اتت بها السكك الحديدية حيث تأثيرها يشابه تأثير الطرق وانها تزيد بها رخصاً وسرعة وامناً وضبطاً وقد رأينا ان اجرة نقل الطن على الكيلومتر من بيروت والشام رخص بواسطة السكة الحديدية تقريباً الى الثلث وقد ذكرنا ايضاً ان فتح سكة حيفا -- الشام رخص اجرة نقل الحبوب من النصف الى السدس واعتق سكة حديدية سورية هي التي أسست بين يافا والقدس واهم فوائدها تسهيل مناقلة الحجاج وقد اعطي الامتياز

بتأسيسها سنة ١٨٨٨ وابتدأت بتسيير القطارات سنة ١٨٩٢ فلتأخر الزراعة الفلسطينية وقلة البضائع التي كانت تسير على هذه السكة نرى انها لم تأت في بادئ بدء بفوائد مادية حسنة للشركة ولكن التحسينات التي ادخلها المستعمرون اليهود والالمان في فلسطين والنهضة الاقتصادية التي اخذتها البلاد في الازمنة الاخيرة نظراً لصلات سوريا الفكرية والتجارية مع الغرب غيرت مع الزمن وضعية هذا الخط الحديدي بحيث نرى ان وارداته ارتفعت من ٥١٩٤٠٩ فرنك سنة ١٨٩٥ الى ١٣٨٨٧٥٥ فرنك سنة ١٩١٢ .

وبعد خط حيفا — القدس يأتي خط الشام — بيروت حيث اول قسم منه دشن سنة ١٨٩٤ وذلك بين الشام والمزيريب ثم ١٨٩٥ بين الشام وبيروت وسنة ١٨٩٨ تم تأسيس الترام اللبناني . وسنة ١٩٠٢ الى ١٩٠٤ تم فرع خط بيروت الشام الذي يصل رياق بحلب وسنة ١٩١١ ربطت طرابلس بحمص بسكة حديدية وكذا امتد سنة ١٩٠٢ خط الحجاز وتم حتى المدينة وسنة ١٩٠٤،٥ تم تمديده بين درعا وحيفا وكذا تم خط حلب الصلاحية سنة ١٤،١٩١٢ وطو براق قلعه — اسكندرون سنة ١٩١٣ .

فنرى ان السكك الحديدية بالنسبة الى سائر المؤسسات الاقتصادية حديثة العهد وهي لم تكن تتجاوز سنة ١٩١٦ (٢٠٣٢) من الكيلومترات

مع ان خطوط المانيا الحديدية سنة ١٩١٢ بلغت ٦٢٧٣٤ كيلومتراً وطول خطوط فرنسا في تلك السنة هي ٥٠٢٣٢ كيلومتراً النمسا ٤٥٨٢٣ كيلومتراً واذا نظرنا الى المساحة الارضية يقع في المانيا على كل ١٠٠ كيلومتر مربع في سنة ١٩١٢ ، ١١،٦ كيلو متر خط حديدي وفي انكلترا ١٢ وفي فرنسا ٩،٤ وفي بلجيكا ١٩ وفي النمسا ٧،٩ وفي رومانيا ٢،٧ وفي روسيا ١،٢ بينما هذه النسبة في سوريا ٠،٧ فقط . واذا نظرنا الى النسبة الموجودة بين عدد نفوس سوريا وطول الخطوط الحديدية الموجودة بها نرى انه يقع على كل ١٠٠٠٠ سوري تقريباً (٥) كيلومترات من الخطوط الحديدية بينما هذه النسبة في بريطانيا العظمى ٨،٣ وفي المانيا ٩،٥ وفي فرنسا ١٢،٨ وفي النمسا ١١ اي ان الخطوط الحديدية السورية قليلة ايضاً بالنسبة الى عدد السكان كما هي قليلة بالنسبة الى مساحة الاراضي وانما يجب ان لا ننسى ان النشاط الاقتصادي في اوروبا هو غير ما نعهده في بلادنا بحيث المناقلات هناك اوسع واكثر وبالتالي قوة الوسائط النقلية ونرى جلياً تأثير الخطوط الحديديه بحياة البلاد الاقتصاديه من ارتفاع حاصلات الخطوط الحديديه الغير صافيه مثلاخط بيروت الشام سنة ١٨٩٤ : ٧٧٠٠٠ فرنك ونيف وسنة ١٨٩٥ : ٩٠٠٠٠٠ فرنك ونيف وسنة ١٨٩٦ : ٢٣٠٠٠٠٠ فرنك سنة ١٩٠٢ مليونان وخمسة وسبعون الف فرنك سنة ١٩٠٥ : (٣٤٥٦)

مليون فرنك وسنة ١٨٠٩ حتى ٤٤٧ مليون فرنك واردات غير صافية اما الواردات الصافية فلم تزد بهذه النسبة ولا يمكن مقايسة واردات الخطوط الحديدية السورية مع خطوط الحديدية الاوروبيـة من الوجه المالي حيث ان النقليات هناك اخذت بواسطة الصناعة ومبادلة المواد الابتدائية والصناعية دوراً هائلاً بحياة السكك الحديدية ويمكننا ان نفهم درجة تأخرنا في هذا المضمار الاقتصادي اذا علمنا ان مجموع البضائع المنقولة على الخطوط الحديدية الالمانية تبلغ سنوياً ٤٧٣٨/٥ طناً منها ١٨٩٠٣٦ طناً اي ٤٠ بالماية من المنقولات عبارة عن فحم حجري وقوقس وماشاكله من المحروقات المحتاجة اليها حيات البلاد الصناعية اما سوريا فليس لهـا حياة صناعية تولد هكـذا نقليات واكثر ارسالياتها الانتاجات الزراعيـة والمواد الصناعية الاوروبية كالاقمشة وغيرها المحتاجة اليها البلاد نظراً لتأخرها الصناعي وهـذا من جملة الاسباب التي تـدع شركات السكك الحديدية عندنا ترفع اسعارها نسبة الى تعاريف البلاد الاوروبية دون ان ننسى ان للحكومات هناك نفوذاً اكثر يخولهم صلاحيـة السهر على فوائد السكان اكثر مما كانت عليه الحال في البلاد السورية نظراً للامتيازات الاجنبية التي تغل ايادي الحكام من جهة وفقر البلاد واحتياجها الى رؤوس الاموال الاجنبية من جهة أخرى .

ومن مضرات السكك الحديدية السورية عدم وجود وحـدة اداريه

بينها لتخفيف مصاروفات الادارة وتسهيل المناقلات ثم اختلاف تعار يفها اولاً وعرض خطوطها ثانياً والتي لا تساعد لنقل البضائع رأساً الى كل جهة من جهات سوريا وهناك عوارض طبيعية تمنع تحقيق هذه الامنية في يومنا وهي علو جبل لبنان الذي يدع الخط الحديدي العريض غير ممكن التأسيس الا باختراق انقاباً في الجبل وهذا العمل يتعلق بمبالغ جمة والتي لا يمكن الشركة تنفيذها نظراً لضعفها المالي وهناك ايضاً مشروع لهذه السكك مهمل يمكنه ان يخدم البلاد اكثر من بعض الخطوط الموجودة كخط حديدي عريض يربط الرياق ببلدة عفوله ماراً قرب اراضي الغور والناصره وخط حديدي يربط اسكندرون بحلب اما الخط الذي اسسه الانكليز سنة ١٩١٩ بين فلسطين ومصر فليس له الا اهمية عسكرية قبل كل شيء وهو يضر بثغر بيروت الذي كانت تتوارد اليه من اكثر المدن الفلسطينية البضائع لاجل ارسالها الى اوروبا فانتقلت هذه الفائدة للاسكندريه و پورت سعيد ولو مدد فرعاً للخط الحجازي نحو بحر الاحمر لكان افيد للبلاد السورية واذا اسس خطاً عريضاً يربط حمص ببغداد ماراً بتدمر ثم اذا ترفق الى تمديده نحو بلاد العجم و بلاد الهند يمكن ان يرجع الى سوريا قسم مهم من تجارة الترانسيت التي فقدتها في القرون الاخيرة خصوصاً للبضائع القليلة الوزن والكثيرة القيمة والسواح .

اذ دققنا حالة الاشجار السوريه المثمرة منذ افتتاح ترعة السويس يمكننا

ان نبين تغيرات كثيرة مهمة حدثت بانواع وسعة زراعتهـا فشجر الزيتون مثلاً قد اخذ بالتوسع في اطراف بيروت واللاذقيـة وغربي حلب وباطراف اسكندرون ولبنان حيث تضاعف عدد اشجاره بظرف ١٥ سنة (١٨٨٠ — ١٨٩٥)

وبلغ عدد هذه الاشجار في سنة ١٩٠٩ بولاية حلب : ٦٢٥٨٠٠٠ وفي ولاية بيروت ٤١٨٧١٢٠ شجرة ويصدق لنا بعض هذه الاعداد معتمد بلجيكا في حلب حيث يخبرنا انه كان بهذه الولاية سنة ١٩١٠ : ٤٥٥ كيلو متر مربعاً مزروعاً بالزيتون اي اذا فرضنا ١٣٠ شجره عَلَى الهكتار نحصل عَلَى ٦،٥ مليون شجره عَلَى التقريب (٣٣١) ولكن بعد مدة نرى ان هذا التقدم يتحول الى تأخر ظاهر بزراعـة الزيتون مبتدأ اولا بهبوط برد شديد في شمال سوريا سنة ١٩١١ امحى مـا يقرب (عَلَى قول البعض) من ثلاثمائة الف شجرة من الزيتون واذا اعتبرنا الاعداد الرسمية التركية لسنة ١٩١٤ نرى ان عدد اشجار الزيتون سقط بحلب الى ٣٦١٠٠٠٠ وفي بيروت الى ٥٢٧٠٠٠٠ شجرة اى الى ما يقارب النصف في الاولى وما يقارب الثلث في الاخيرة ومجموع عدد اشجار الزيتون في سوريا سقط من اربعة عشر مليون وربع سنة ١٩٠٩ الى تسعة ملايين ونصف في سنة ١٩١٤ ولا شك في ان الحرب العامة سببت قطع كثيراً هذه الاشجار لغلاء قيمة

(٣٣١) Recueils conculairs belge 1912

المحروقات وقطع المواصلات من الخارج وضرورة تمشية السكك الحديدية بالحطب السوري وسيكون من اهم اسباب نهضة البلاد الزراعية في المستقبل الاعتناء بتوسيع هذه الزراعة التي يمكنها ان تشكل اساساً مهماً بحياة البلاد الاقتصادية اذا علمنا بان الشجرة الواحدة تأتي بواردات سنوية توازى عشرا من الفرنكات اى ان الفلاح الذي يجبي من اراضيه البالغة ٢٠ هكتاراً ما يؤمن له المعيشة والرفاهية يمكنه ان يعيش برغد من واردات هكتارا وهكتارين مزروعتين باشجار الزيتون وخصوصاً اذا ضاف اليها زراعة الحنطة والخضر ويقدرا (روبين) مجموع محصولات شجر الزيتون السوري بثلاثين مليوناً من الفرنكات واشجار الزيتون المزروعة اليوم خصوصاً في اطراف بيروت وفي لبنان وقرب طرابلس ونابلس وعكا وصفد واللد وانطاكيه وكلس واروفه التي كانت مشهورة بتربيتها (٢٣٢) واداب ومما اضر بزراعة الزيتون فسأله طعم الزيت السوري نظراً لسوء عصره نسبة الى سائر البلاد التي تورده كايطاليا وجزر الارخبيل ولا يسعنا هنا ان نجول في هذا البحث بل يكفينا التلميح الى ذلك . وكذا نرى ان الحرب العمومية اضرت بهذه الزراعة حيث نرى سنة ١٩٢٢ : ٣٤١٠٠ هكتار فقط مزروعة بها ونظراً لهذه المساحه يمكننا تقدير عدد اشجار الزيتون السورية ما عدا فلسطين ومرعش واورفه باربعة ملايين ونصف شجره وكذا نرى ان زراعة اشجار العنب

(٢٣٢) Memoires et documents 1921-22 epag 9

قد توسعت في هذه الدورة الثار بخبرة خصوصاً في اطراف فلسطين بتأثير المستعمرات اليهودية والالمانية و بمعاونة رؤوس الاموال الاجنبية .

وقد قال القنصل الافرنسي في بيروت روسو Rousseau سنة ١٨٨٦ « اذا استثنينا ذروة جبل لبنان يمكننا ان نعتبر بان العنب يزرع في كل انحاء سوريا» (٣٣٣) و بعد ان يذكر بعض انواع العنب الاسود التي يمكن استعمالها لتهيئة الاشربة الكحولية يقول بان هذه الانواع اذ امزجت بثلث من العنب الابيض تعطي شراباً يقابل احسن وافخر شراب افرنسي وقد نالت اشربة لبنان شهرة في الخارج تحت اسم (الشراب الذهبي) وهو يعمل من عصير العنب التي تزرعه منذ سنة ١٨٨٣ بعض الافرنسيين الساكنين في البقاع واحد السواح الذي زار سوريا سنة ١٨٩٢ يقابل شراب لبنان مع احسن شراب بلدة (قابري) Capri (٣٢٤) وانما نظراً لقلة الاعتناء التي تظهره الفلاحون نحو زراعة العنب لا ينالون اثمارها الا بعد ١٠ الى ١٢ سنة بينما الافرنسيون الذين يستعملون الاصول الحديثة يقطفون العنب بعد غرس الاغصان ثلاث او اربع اوخمس سنين (٣٣٥) وسبب اهمال زراعة العنب وعدم الاعتناء بها عدا عن جهل الفلاح قلة الدراهم ليستعين بها على استئجار الايادي اللازمة لذلك وتباعد اولى

(٣٣٣)Bulletin du mimistre de l, agrilulture paris 1889 p.477
(٣٣٤) Maier aus Syrien 1897 page 41
(٣٣٥)Bulletin du Ministre de l;agriculture 1686page 478

الاملاك الواسعة عن هذه الزراعة واختيارهم عوضاً عنها زراعة الحبوب ومن ثم توجد اراضٍ واسعة مستعدة لزراعة العنب ولكن غير مزروعة بهذا النبات المفيد . ولقد جاب ذلك انظار بعض الاوروبيين خصوصاً بعد ظهور مرض الفيلوقسرا في اوروبا التي لم يكن معروفه في كل سوريا سنة ١٨٨٧ و بقيت مجهولة فيها الى سنة ١٨٩٢ حيث ادخلتها المستعمرون الالمان قرب يافا بالرغم عن ان الحكومة كانت منعت ادخال غرس العنب الاجنبي ومع ذلك لا يمكننا ان تنكر التحسينات التي ادخلتها هذه المستعمرات في اصول الزرع ثم صورة تحضير الشراب الذي نال في باريز على تقدير او باب هذه الصناعة حيث يذكر المعتمد الافرنسي في القدس في بيانه عن سنة ١٨٩٢ الفوائد التي حصلت لزراع الكروم السورية منذ ابتدأ تطعيم شجر العنب بفروع عنب مدوق Meduc ولانغه دوق Langueduc وسبب تحسن شراب سوريا هو ناتج عن تركه يتخمر الهوينا في جرات صغيرة وفي محل بارد او باحاطتها بالماء و يذكر ايضاً بان زرع الكروم تتسع في فلسطين وكذا في شمال سوريا و خصوصاً باطراف عنتاب حيث يعمل كثير من الاشربة الكحولية وكذا في اورفا المشهورة خصوصاً باطراف روم قلعه و بيره جك (٣٣٦) والاحصاء الشبه الرسمي عن سنة ١٩٠٩ يدلنا بان ٨٤٧٩٩ هكتاراً في سوريا كان مزروعاً كروماً بتلك السنة

(٣٣٦) Vitale-Euinet 6 Asie 11 251

وتفصيل ذلك كما يأتي (٥١٠٨) هكتاراً في ولاية حلب ٢٦٢٤٣ هكتاراً في ولاية الشام ٢٠٤٣ في ولاية بيروت ٣٤٣٣ هكتاراً في متصرفية القدس فبناء على الاعداد التي يعطينا اياها روبين Ruppin عن سنة ١٩١٤ نرى ان مساحة الارض المزروعة كروماً في ولاية بيروت تضاعفت منذ سنة ١٩٠٩ وفي حلب بقيت المساحة ثابتة وليست هناك اعداد تعطينا فكرة عن حالة هذه الزراعة في الشام والقدس بعد ١٩٠٩ وانما يظهر ان الحرب اضرت بها جداً حيث سنة ١٩٢٢ لم يكن لسوريا ما عدا فلسطين وقسماً من ولاية حلب المنفصلة عنها الا ٢٦٠٠٠ هكتار وقد بلغت هذه الزراعة كما ذكرنا ٨٤٧٩٩ هكتاراً في سنة ١٩٠٩ واذا اخرجنا قسم القدس يبقى تقريباً ٨٠٠٠٠ هكتار واذا نظرنا بان ضمن ٢٦٠٠٠ هكتار المذكورة ما فاما يخص لبنان الذي لم يدخل بمساحة سنة ١٩٠٩ وان ذلك ربما يعادل ما خسرته حلب من شمالها الى تركيا لا يمكننا الا ان نعتقد بان زراعة العنب قد تأخرت في سوريا بصورة هائلة بسبب الحرب العمومية ويمكننا ان نأخذ فكره عن تأخر سوريا في هذه الزراعة اذا قابلنا مساحة زراعتها ببعض البلاد التي تنهض بهذه الزراعة

١٩٠٩ كانت تزرع سوريا (ما عدا لبنان) ٨٤٧٩٩ هكتار

١٩٢٢ سوريا ما عدا فلسطين وقسم من عكا وما الحق الى تركيا بموجب معاهدة انقره

	تزرع	٢٦٠٠٠ هكتار
١٩٠٩	الجزائر تزرع عنباً	١٦٠٠٠٠ «
١٨٨٨	ايطاليا « «	١٩٢٧٠٠٠ «
١٨٨٠	فرنسا « «	٢٢٥٨٥٢٠ «
١٩٠٨	المانيا	(التي اكثرها في اقليم بارد) ١١٦٧٦٨ هكتار

اما محصولات عنب سورية بلغت (سنة ١٩٠٩) : ١٨٠٧٥٦ طناً (الطن ١٠٠٠ كيلو) بقيمة تسعة عشر مليون فرنك ونيف

والندقق الآن في تطورات زراعة بعض اشجار اخذت دوراً مهماً بحياة سورية الاقتصادية كشجرة التوت الابيض (اساس تربيه دود الحرير) :

في منتصف القرن التاسع عشر اخذت صناعة تربية دود الحرير اهمية خاصة بحياة سورية الاقتصادية وقد ساعدها على ذلك دخول رؤس الاموال الاجنبية اليها تأسيس معامل حريرية على الطراز الاوروبي منذ سنة ١٨٤٠ وذلك بسعي القونت له موند C. Lhemond والبونت ده لافرته Dela ferte في بيروت ونقولا پورتاليس Nicola portalic في لبنان

وجد في بيروت ولبنان سنة ١٨٨١ ٦٧ معملاً و ٥٨٠٠ برجاً (Tours) اما العمال الذين كانوا مستخدمون سنة بهذه المهنة فقد بلغوا سنة ١٨٨١ تسعة الاف عامل ومحصول شرانق سوريا في هذه السنة فقد بلغ ٢٢٠٠٠٠٠

كيلو بقيمة ٨ ، ٨ مليون فرنك (٣٣٧) اما سعر الكيلو الوسطي فكانت ٤ فرنكات وقد نزلت هذه القيمة بعد عشر سنين اي سنة ١٨٩١ الى ٢ ، ٧ فرنك (٢) واذا دققنا قيمة الحرير المفرود منذ ١٨٧٧ الى ١٨٩١ نرى ان سعرها الوسط عن كل كيلو تنازل من ٦ ، ٦٧ سنة ١٨٧٧ الى ٦٠ ، ٥٧ سنة ١٨٨٠ والى ٩ ، ٤٨ سنة ١٨٨٧ ثم ارتفع سنة ١٨٨٩ قليلاً ثم هبط سنة ١٨٩١ الى ٥ ، ٤٢ فرنك ومن سنة ١٨٧٧ الى ١٨٩١ كانت تشتري معامل القز في سوريا سنوياً من مليونين الى ثلاثة ملايين كيلو شرانق لتفردها وتخرجها الى ليون حيث كان يباع الكيلو ٥ ، ٥١ فرنك وبعد تنزيل مصارفات البيع والنقل والحمولة واخراج ٣% للفائض يبلغ السعر الخالص للحرير فقط ٥ ، ٤٢ فرنك عدا عن قيمة الشرانق واجرة فردها اما الحرير المخرج الى ليون سنة ١٨٩٣ (من طرابلس وبيروت فقط) فبلغ ٣ ، ٦ ملايين من الفرنكات

(٣) اكثر اشجار التوت كانت منتشرة باطراف بيروت وصيدا وطرابلس وعكار وصافيتا وحصن الاكراد ودخلت اطراف الشام (٣٣٨) ثم نواحي بعلبك وضواحي حمص ويقدر عدد اشجار التوت في سوريه سنة ١٨٩٩ ما يقارب الثلاثة ملايين ونصف . (٣٣٩)

(٣٣٧) Charme voyage en Syrie 1881 page 220
(٣٣٨) Recueils Cousulair- belges 1903
[٣٣٩] Lyon et le Commerce de Soir 1901 p. 43

وكانت هذه الاشجار تتوزع في البلاد السورية كما يأتي مليونين شجرة في البقاع ستماءة الف في بعلبك ماءة الف في دوما مائة وثلاثون الف في وادي العجم خمساءة الف في حاصبيا ومرجعيون خمسة عشر الف في راشيا عشرة الاف في النبك مائة واربعون الف في القنيطره مائة الف في حوران وجبل الدروز والمساحة التي كانت تستوعبها شجر التوت في سوريا الوسطى (ما عدا انطاكيه واطراف اسكندرون وحلب) بلغت سنة ١٨٩٩ ما يعادل ١٧٦٠ هكتاراً وقد ساعد اتساع زراعة شجر التوت دخول واردات عشره منذ سنة ١٨٨٢ تحت ادارة الديون العمومية التي اعتنت بهذه الزراعة لازدياد وارداتها حتى عفيت زراعة التوت من الاعشار مدة ثلاث سنوات ثم ارسلت سنة ١٨٨٥ شباناً الى فرنسا ليتعلموا اصول تربية دود الحرير وسعت في ادخال اصول پاستور Pasteur وهكذا اخذت تتسع زراعة شجر التوت في سوريا بعد ان كانت مهددة بالتأخر على اثر المرض الذي طرأ على شرانق سوريا سنة ١٨٧٢ وانا لنرى ان محصولات شرانق سوريا ارتفع من خمسة ملايين كيلو سنة ١٨٩٦ الى خمسة ملايين ونصف سنة ١٨٩٧ ولكن انحطت سنة ١٨٩٨ الى خمسة ملايين وثلث وبقيت سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩٠٢ على سوية خمسة ملايين ونصف كيلو من الشرانق (٣٤٠) وهذا يوضح لنا تقدماً ظاهراً ويمكننا ان نقدر اهميتها

(٣٤٠) Recueils consulairs belge 193

اذا علمنا ان سوريا لم تكن تحصل سنوياً بعد مرضه سنة ١٨٧٢ الى ١٨٨٧ اكثر من مليونين الى ثلاثة ملايين كيلو شرانق فقط . (٣٤١) لم تبق مع الاسف قيمة الشرانق ثابتة بل انحطت كما ذكرنا بصورة موثرة على مستقبل البلاد الاقتصادي خصوصاً لهبوط اسعار الحرير من واحد وخمسين فرنك سنة ١٨٩١ كما ذكرنا الى ٤٠ = ٣٧ فرنك سنة ١٨٩٢ وحتى ٣٥٤٩ فرنك سنة ١٨٩٤ ومع ذلك نرى ان هذا لم يوثر كثيراً على اتساع زراعة شجر التوت خصوصاً في ضواحي سوريا الشمالية قرب انطاكيه واسكندرون حيث بينما تخرج اسكندرون سنة ١٨٩٠ : ٣٨٠٠٠ كيلو شرانق نجد القيمة ترتفع سنة ١٨٩٥ الى ٩٦٠٠٠ وسنة ١٨٩٦ الى ١١٣٠٠٠ وسنة ١٨٩٧ بلغت الى ١٤١٠٠٠ كيلو بقيمة مليونين وثلث من الفرنكات عوضاً عن ٣٨٣٠٠٠ فرنك سنة ١٨٩٠ وقد بقيت هذه النهضة الزراعية في تلك الضواحي حتى سنة ١٩٠٦ كما يذكر لنا ذلك قونصل بلجيكا في اسكندرون .

اما في بيروت ولبنان فالظاهر ان الحالة باقية سنة ١٩٠٢ على ما هي عليه حيث هناك ٤٤٢٠ معملا للشرانق تملك على ٩٠٠٠ حوض (٣٤٢) كما كانت عليه الحالة سنة ١٨٩٩ ولم تزد حاصلات الشرانق على ٥٥٠٠٠٠٠ كيلو وفي سنة ١٩٠٣ اخذت زراعة التوت تتأخر

(٣٤١) Vital-Cuinet page 216/17
(٣٤٢) Recueils Consulairs belge 1903

في ضواحي بيروت بسائق منافسة شجر البردقان والليمون اللاتي مع قلة المؤنة كانت تأتي بفوائد مادية اكثر من شجر التوت وان قنصل بلجيكا يذكر عن هذه السنة ان الالف متر مربع المزروعة بردقان كانت تعطى واردات من ٥٠٠ الى ٦٠٠ فرنك سنويا هذا عدا عن سقوط قيمة الحرير في اوروبا بمنافسة الحرير الياباني والصيني ثم غلاء اجر الايادي العاملة على اثر المهاجرة الى اميركا ومع ذلك نرى ان محصولات شرانق سوريا محفوظة على كميتها وقد بلغت اكثر من ستة ملايين كيلو في سنة ١٩١٠ و ١٩١١ وذلك بسبب اتساع الزراعة في الاطراف الشمالية ولكن الحرب الذي سلب اكثر الايادي العاملة وترك الفلاحين ضحايا الجوع والفقر لعدم امكانهم المتاجرة في الخارج ضف الى ذلك غلاء الحاجيات الضرورية ومصادرة محصولاتهم من طرف الادارات العسكرية بحيث ان اكثر الاراضي التي كنا نراها زاهرة قبل الحرب بزراعة هذه الاشجار اصبحت الآن لا تشتمل على شيء او على قسم قليل وترى عليها ظواهر خطر الحرب والاهمال وسوريا التي تورد كل احتياجاتها الصناعية من الخارج عوضاً عن ان تقابل ذلك بسعي ايادي ابنائها العاملة ترى سكانها في حاجة شديدة الى عمال بسبب الهجرة مع فقد اهم اساسات سلامتها الاقتصادية ويمكننا ان نرى درجة تأخر زراعة شجر التوت وتربية

دود الحرير المؤسس عليها ان سوريا لم تخرج سنة ١٩٢١ اكثر من مليون كيلو شرانق (٣٤٣) وقد ارتفعت هذه القيمة سنة ١٩٢٢ الى مليوني كيلو (٣٤٤) مع انها كانت تحصل في السابق كما شاهدنا من ٥ الى ٦ ملايين كيلو ولا نعجب من ذلك اذا اعلمنا ان شجرة التوت فقدت من اكثر الاراضي التي كانت متمتعة بها فالبقاع مثلاً بدلت تقريباً كل اشجار التوت بغيرها من النباتات الزراعية واكثر الاشجار التي بقيت في لبنان اهملت اثناء الحرب وهي بحالة تحتاج الى الاعتناء الا في بعض المحلات التي تمكنت من التحفظ من مضرات الحرب كزغرتا مثلاً فهناك بها يرى المرء الحالة تشابه قبل زمن الحرب ويمكننا ان نفهم درجة تأخر سوريا في مضمار تربية دود الحرير اذا علمنا انه لم يبق فيها سنة ١٩٢٢ الا ١٥٠٠ حوض مشتغل مع ان هناك معامل تحتوي على ١١٠٠٠ حوض (٣٤٥) وقد اعتنى مندوب فرنسا في سورية بصورة خاصة بهذه الزراعة بمساعدة اختصاصيين مقتدرين ويمكننا ان نتأمل تحقيق الرقي المطلوب خصوصاً لرخص العمال حيث نزلت الاجور السورية سنة ١٩٢١ الى نصف ما كانت على سنة ١٩٢٠ (الى عشرة غروش سنة ١٩٢١) ثم ارتفاع اسعار اوقة الشرانق من ٢٠ الى اربعين غرشا سنة ١٩٢١ الى ٦٠ — ٧٠

(٣٤٣) Beriel la Sericulture au Liban 192- page 7
(٣٤٤) la Journee Industrielle 7 avril 1922
(٣٤٥) Belin page 1922

والى ٧٥ غرشاً سنة ١٩٢٢ وقد قلت منافسة حرير اليابان في فرانسا بمناسبة اتساع المصانع الحريرية الاميركية التي ارتفع عددها من ٦٢٤ سنة ١٩٠٤ الى ١٣٦١ سنة ١٩٢١ برأسمال ٥٣٣ مليون دولار وهكذا نرى ان كمية الحرير المرسلة الى اميركا من اليابان ارتفعت من ١٤١٩٤١ باله سنة ١٩١٤ الى ٢٤٧٢٠٤ باله سنة ١٩٢١ في الوقت الذي نقصت الكمية المرسلة الى اوروبا من ٢٨٧٤٠ باله الى ١٤٠٦١ بحيث نرى ان اميركا تستهلك ٩٤،٠٦ بالماية من محصول الحرير الياباني وقد قلت من جهة أخرى محصولات الحرير في فرنسا نفسها من ٢٤ مليون كيلو غرام شرانق سنة ١٨٥٠ الى ٢٥٩٥٠٠٠ كيلو غرام في يومنا هذا ولم تأت تشبثاتها في توسيع تربية دود القز بفائدة محسوسة حتى الآن بالرغم عن المصارفات والعناية التي اظهرتها هناك حيث لم تزد محصولاتها في يومنا عن ٢٠٠٠٠ كيلو غرام حرير اما في الصين فان تربية دود القز بتأخر فيها لسوء نوعها ولنتم هذا البحث بان نذكر ان قيمة الكيلو شرانق التي لم تتجاوز قبل الحرب اربعة فرنكات بلغت اليوم ١٢٠ فرنكاً واصبح ارتفاع سعر الحرير من ٥٠ الى ٣٢٠ فرنكاً وهو بازدياد ولاشك ان ارباح هذه الصناعة تدفع سوريا على توسيعها وقد اقتنعت غرفة التجارة في ليون على اثر رابور موسيو ترايي Trrail بقيمة الحرير في سوريا ووضعت لها اعتمادات مالية ولاشك

في انها ستساعد هذه النهضة المنشودة (٣٤٦) كما ان منافسة شجر البردقان قد خفت نظراً لصعوبة توريد اثمارها الى الخارج ويظهر لنا جلياً اهمية احياء زراعة شجر التوت وتربية دود القز اذا علمنا ان اصدارات سوريا من الشرانق وغيره من محصولات دودة الحرير كان يساوي قبل الحرب ٢٨ مليون فرنك اي قرب نصف صادرات سوريا بذلك الزمن

ونرى ان تربية دود القز تتقدم بسوريا ومقدار البزور المستعملة سنة ١٩٢٣ ينمو على السنة الماضية ٢٥ الى ٣٠ في المائة(٤) ولنقتصر على ما ذكرناه فيما يتعلق بشجر التوت و يجدر بنا ان نأتي على ذكر بيان تطورات زراعة البردقان والليمون في سوريا فنقول :

لم تكن هذه الزراعة مجهولة في سوريا في الازمنة القديمة كما سبق الايضاح عن ذلك في ابحاثنا المتقدمة حيث اوقفنا على وجود هذه الزراعة في اطراف طرابلس وانما لم تأخذ هذه الزراعة دوراً مهماً بحياة البلاد الاقتصادية الا في نهاية القرن التاسع عشر وابتداء القرن الحالي والسبب في ذلك هو صعوبة نقل هذه الاثمار التي تحتاج الى عناية خاصة وكذلك قيمة هذه الاثمار التي لم تكن مرتفعة بدرجة يسهل معها اصدارها الى البلاد النائية قبل انشاء السكك الحديدية وتسهيل المناقلات هذا من

(٣٤٦) Journee Industrielle 1923

جهة تور بد الأنتاجات وقد كانت هناك صعوبات اخرى منها عدم وجود رؤوس اموال لأجل اجراء معاملة الاسقاء والانتظار حتى يعطى الشجر ثمراً الامر الذي كان مفقوداً حتى الازمنة المتأخرة

ولكن حينما تبدلت الاحوال السالفة وتحسنت المناقلات في نفس البلاد السورية من جهة وفي البلاد الاجنبية من جهة أخرى ثم بتولد رؤوس الاموال وتقدم تجارة البلاد وانشاء المصارف وتأسيس الشركات التجارية الاجنبية وارتفاع سعر البردقان في اوروبا وغير ذلك من الاسباب الاقتصادية اثرت على تقدم زراعة البردقان حتى اصبحت من اهم الموارد لاهل السواحل السورية . ويتضح ذلك من الارقام والاحصاآت الآتية :

قال قنصل دولة بلجيكا في طرابلس ان قيمة الالف بردقانه سنة ١٨٧٩ لم تتجاوز العشرة من الفرنكات (٣٤٧) فاذا اعتبرنا ان الصندوق الواحد في طرابلس يحتوي على ٢٥٠ بردقانه يتبين ان قيمة كل صندوق بردقان يعادل فرنكين ونصف وقد بلغت في نفس طرابلس سنة ١٩٠١ ثلاثة او اربعة فرنكات حتى ارتفعت قبيل الحرب العامة الى خمسة فرنكات (٣٤٨)

وكذلك ارتفع سعر صندوق البردقان في يافا من ثلاثة فرنكات

(٣٤٧) Recueills consulairs Belge 1845 p. 94
(٣٤٨) Ruppin p. 422

الى ثلاثة ونصف ثم في سنة ١٩١٤ بلغ ٣،٧٥ من الفرنكات وهو على الشجر اما قيمته في اسواق يافا فقد بلغت ٥،٨٧ فرنك وفي ليوربورل سعة الى ثمانية فرنكات (منها فرنك ونصف اجور نقل من يافا الى ليوربول) ومن هذا يتبين لنا اتساع محصولات وتجارة البردقان في بلاد سوريا

وقد حسب « فيتال كينه Vital Cuinet » صادرات طرابلس من البردقان فبلغت سنة (١٨٩٤) ٣٣٠٠٤٤ من الفرنكات(٣٤٩) وكذلك بلغت صادرات الليمون ٧٢٧٠٣٦ من الفرنكات بينما السائح الالماني فيتسنر يذكر ان صادرات طرابلس من البردقان والليمون بلغت سنة ١٩٠٣ مليوناً من الماركات (٣٥٠)

وقد اصدرت طرابلس سنة «١٩١٠» ثلاثمائة الف صندوق بردقان وليمون وكان سعر صندوق البرتقال ثلاث فرنكات ونصف وصندوق الليمون من ٧ الى ١١ فرنك ليس هناك صراحة مع الاسف عن مقدار كل منهما على حدة الا انه يمكن ان يقدر ان ثلث هذا الصادر ليمون والثلثين بردقان فعليه يكون صادرات طرابلس سنة ١٩١٠ من هذا النوع ما يزيد عن مليون وثمانماية الف فرنك اكثرها كان يرسل الى اودسا والاستانة وجزر الارخبيل

اما تجارة بيروت بالبردقان والليمون فقد ابتدأت تتقدم على اثر منافسة حرير الشرق الاقصى لحرير البلاد السورية وتأخر زراعة التوت فبعد ان كانت

(٣٤٩) VilalCuinet p. 35
(٣٥٠) Fitzner Aus Klein asien und Syrien 1903 p. 194

صادرات بيروت ١٩٠٢ ا خمسين طن بردقان نراها تصدر سنة ١٩١٠ ٤٨٠ طن (٣٥١)

وقد بقيت هذه الحالة ثابتة قبل الحرب واخيراً بدأت تتأخر بسبب صعوبة الاصدارات الى تركيا وروسيا كما مر بيانه :

واهم بلدة ترتكز فيها زراعة البرتقان في سوريا هي يافا نظراً لمتانة قشره ثمرها وهي التي تساعد تصديرها لانكلترا والولايات المتحدة بل الى البلاد الاسترالية مما يمنع كساد المحصول في ليورپول و يساعد انتشار البرتقان السوري في انحاء العالم ويمكننا ان نتصور مقدار اتساع هذه الزراعة في يافا اذا ثبت لدينا ان مقدار اصداراتها ارتفعت من اربعمائة الف صندوق في سنة ١٩٠٢ (٣٥٢) الى مليون ومائتين الف صندوق سنه ١٩١٠ ثم الى مليون واربعمائة الف صندوق سنة (١٩١٢) بقيمة ٧ ملايين من الفرنكات (٣٥٣) هذا عدا عن الاستهلاكات الداخلية بحيث يبلغ مجموع محصول بردقان وليمون سوريا حسب تقدير روبين ١٥ مليون فرنك (٣٥٤) . وقد ساعد اتساع هذه الزراعة في هذه الانحاء عدا عن تحسن شرائط الاسقاء وارتفاع قيمة البردقان في اوروبا وتقدم وسائط النقل اعطاء اعتمادات ماليه من طرف مرخص تجار ليورپول الى منشئي زراعة الليمون والبردقان ترغيباً لهم وذلك فى سنة ١٩٠٠ (٣٥٥) .

(٣٥١) Recueils Consulairs Belges 1921
(٣٥٢) Receuils consulairs belges 1903
(٣٥٣) » » » » « 1913
(٣٥٤) Ruppin p. 229 (٣٥٥) Dambmann p. 477
(٣٥٥) Dambmann p. 477

وقد أضرت الحرب العامة بهذه الزراعة في كل البلاد السورية لوقوف الاصدارات الى الخارج وصعوبة وجود الايادي العاملة للقيام بالاسقاء والقطف ثم فقدان لوازم الشحن كالخشب والورق الخ . ولم يأت الصلح بالفرج المنتظر بل نراها في الوقت الحالي مهددة بأزمة شديدة نظراً لارتفاع اسعار الشحن وهبوط قيمة البردقان في البلاد الاجنبية بمنافسة بردقان اسبانيا ومن المحتمل رجوع الزراع في اطراف سوريا الوسطى لتربيته شجر التوت عوضاً عن البردقان .

اما زراعة المشمش فهي كذلك قديمة بسوريا وخصوصاً في اطراف دمشق حيث تشكل اساس ثروة اكثر سكان الانحاء

وقد منحنا القنصل الافرنسي بدمشق التفصيلات الآتية عن انتاجات مشمش الشام سنة ١٨٦٥ (٣٥٦)

انتجت دمشق في هذه السنه : ٦٦٠٠ قنطار تنقسم كما يأتي :

٢٥٠٠ قنطار مشمش سندياني يستهلك في دمشق بقمية ٢٠٠٠٠ فرنك

٦٠٠٠ قنطار مشمش حموي (بكير ولقيس) يستهلك في دمشق بقيمة ١١٤٠٠٠ فرنك (سعر وسطي ١٩ فرنك القنطار)

٢٥٠٠ فرنك مشمش وزري يستهلك النصف في دمشق والنصف يذهب الى بيروت بقيمة حباً ٢٣٣٣٣ (اغلى من السندياني بقدر السدس)

(٢٥٦) Bulletin du Minestre de l'agriculture 1866 p. 228

٢٠٠ قنطار مشمش شامي يستعمل اكثره لصنع القمر الدين بقيمه ٥٥٠٠ فرنك (سعر وسطي ٢٧،٥)

٥٠٠٠ قنطار مشمش بلدي (الف قنطار يستهلك في دمشق الباقي يصنع منه نقوع) بقيمة ٧٧٥٠٠ قيمة النقوع المخرجه ٨٠٠٠٠ فرنك

٥٠٠٠٠ قنطار مشمش كلابي يستعمل لصنع القمر الدين قيمة المحصول ٤٥٠٠٠٠ سعر ٩ فرنك

٦٦٢٠٠ المجموع قنطار   ٦٩٠٣٣٣ المجموع فرنك

ثم ان قيمة القمر الدين الصادر من دمشق سنويا تعادل سنة ١٨٩١ ٢٥٠ الى ٣٥٠ الف فرنك زد على ذلك مائتان الف فرنك قيمة بزر المشمش الصادر سنويا الى المانيا وفرانسا وايطاليا والنمسا بحيث تبلغ غلة زراعة المشمش في هذه السنة بالنظر الى قيمة النقوع ما يقارب مليون فرنك وربع فاذا قابلنا هذه الاعداد مع سنتي ١٨٨٤ ، ١٨٨٥ نرى ان زراعة المشمش اتسعت في هذه الدروة اتساعاً يذكر .

وقد صرح القنصل الافرنسي جيلبرت Gilbert بما ياتي (٣٥٧) ان محصولات مشمش دمشق لم تزد سنة ١٨٨٤ عن ٤٥٠٠ قنطار وسنة ١٨٨٥ ارتفعت هذه القيمه الى ٧٠٠٠ قنطار حتى بلغت حسب ما تحقق لدينا . . . ٦٦ قنطار في سنة ١٨٩١ اما قيمة المشمش فليس هنالك

(٣٥٧) Bulletin du ministre de l'agriculture 1885 p. 103.

صراحة عن صورة تحولها خصوصاً لاختلاف انواع وقيم المشمش بحيث لا يمكننا تدقيقها الا ما يخص بالقمر الدين و بالحري ان نعلم ان قيمة القنطار كانت تبلغ سنة (١٨٨٤) ٥٥ الى ٨٠ فرنك ثم ارتفعت سنة « ١٨٨٥ » الى ١٤٠ — ١٥٠ فرنك ثم اخذت في الهبوط بعد ذلك حتى اصبح سنة ١٨٩١ سعر القنطار ٩٠ فرنك في الشتاء و ٣٥ الى ٥٥ في الصيف وقد بقيت زراعة المشمش في تقدم باطراف الشام لاجل البزرة الى سنة ١٨٩٩ حتى بلغت قيمة الاخيرة (٥٠٠) الف فرنك ودامت على هذه الحالة الى سنة ١٩١٠ (٣٥٨) وقد بلغت اصدارات الشام لقمر الدين في هذه السنه ثمانمأة الف فرنك عوضاً عن ٢٥٠ الى ٣٥٠ الف فرنك في سنة ١٨٩١ كما ذكرنا ولم تقتصر زراعة المشمش عَلَى الشام وضواحيها بل نراها زاهرة في البقاع و باطراف انطاكيه ومتصرفية القدس ولقد كانوا يملكون عَلَى اراض واسعة مزروعة فيها . وان لم يكن هناك اعداد تبين لنا حالة زراعة المشمش في سوريا بعد الحرب ولكن يمكننا ان نجزم بان عددها نقص عَلَى اثر تخريبات الحرب خصوصاً وقد كانت هذه الشجره عرضة للقطع حيث استخدم حطبها لتسيير القطارات ولكن الاحتياج الى القمر الدين في الاستانه ومصر وشمالي افريقيا لم يزل على حاله كما ان احتياج البلاد الاوروبية حالياً الى بزر المشمش ما زال كالسابق فاذا اعتبرنا ايضاً الاستهلاكات الداخليه

(٣٥٨) Oberkammer ù-Heinrich zimmerer Durch kleinasien ù Syrien 1889 page ‎76

لا يسعنا الا ان ننتظر رجوع هذه الزراعه الى اهميتها قبل الحرب

ثم ان اشجار التين في سوريا اهمية خاصه لتغذية اكثر فلاحيها وهو من الاشجار التي توجد في البلاد السورية مستوفية كل الشرائط اللازمة لنموها الطبيعي ومع ذلك ترى السوريين لا يستفيدون من هذه الشرائط . ولم تتجاوز محصولاتها سنة ١٩٠٩ سوى (٢٠) مليون اوقه بقيمه ١٢٤٨ مليون غرش وقد اخذت في الازمنه الاخيرة زراعة الفستق باطراف حلب اهميـة خاصه واتسعت على اثر سهولة بيع محصولاتهـا خصوصاً في اميركا وانكلترا ثم الى تركيا ومصر وفي سنة ١٨٩٥ لم تصدر حلب اكثر من ١٤٠٠٠٠ كيلو بقيمه (١٦٨) الف فرنك (٣٥٩) توسعت هـذه الزراعه سنة ١٩٠١ واضحت من اهم اساسات سكان حلب كما اخبرنا القونصول البلجيكي الذي يقدر محصولات الفستق في السنين الجيدة ما يزيد عن ثلاثة ملايين كيلو وقد بلغت قيمة اصدارات فستق حلب الى اميركا فقط سنة ١٩١١ على قول القونصول الاميركي ١٢٨٢٨٢ ريال او «٦٥٠» الف فرنك وفي سنة ١٩١٣ مليون فرنك (٣٦٠) «هذا من اصدارات حلب فقط» و يقدر روبين اصدارات كل سوريا السنويه من الفستق من المليون الى ثلاثة ملايين من الفرنكات . ثم تأتي زراعة الجوز خصوصاً باطراف الشام حيث كانت اصداراتها قبل الحرب نصف مليون فرنك ثم البلح الذي اخرج تمرها سنة

---

(٣٥٩) Recueils consulairs belge 1897 C. 444
[٣٦٠] Ruppin C. 231

٢٩١ من طرابلس بقيمه (١٠٠) الف من الفرنكات وقد اخذت في السنين الاخيرة اهمية خاصه زراعة الخرنوب واللوز خصوصاً في فلسطين بمساعي المستعمرات الزراعيه الاجنبيه التي استقرت بها و يقدر رو بين مجموع قيمة محصول الاشجار المثمره السوريه قبل الحرب بمائة وعشرة ملايين فرنك تقسم كما يأتي : مليون

(٣٠) فرنك من الزيتون

(٣٠) « قيمة محصولات زراعة العنب

(٢٥) « « تربية دود القز السوري

(١٥) « « محصول اشجار البردقان والليمون

(١٠) فرنك قيمة محصول سائر الاشجار الفستق واللوز والمشمش والتين الخ

. . . . . . ١١٠ مليون

زد على ذلك خمسة ملايين فرنك قيمة محصولات الاشجار البريه كالعفص والسوس وما شاكلهما وقد اخذت اخراجات العفص نحو اميركا من اطراف (عمق) اهمية خاصة بعد ان فقدت سوريا قسماً كبيراً من العفص والذى كان يأتي اليها من بلاد الكرد والتى تذهب الآن (بعد انفتاح ترعة السويس) الى بغداد عوضاً عن ان تأخذ طريق سوريا (٣٦١) وتحول الكمية المخرجة من اسكندرون بنسبة محصول السنه بالسنين الجيدة ربما لا يجد

[٣٦١] Recueils cons · belge 1897

الفلاح الزمن اللازم لجمع الغدد ولكن تتقدم الكمية بصورة ظاهرة خصوصاً سنة ١٨٨٥ في زمن تأسيس معاصر في اسكندرون والسويدية من طرف المواثقة (Trust) الاميركية للتبغ Stamford manufacturing Co. التي ترسل هذا المحصول لزجه بمصنوعاتها الدخانيه (٣٦٢)

هذا ما يخص الاشجار المثمره وبعض النباتات البريه ولنشرع الآن في الكلام على بيان تطورات زراعة التبغ والقطن وغيره من النباتات التي تعرف باسم (النباتات الصناعية) لنعلم تطوراتها في هذه الدورة التاريخيه فنقول :

لقد رأينا في الابحاث السابقه قدوم عهد زراعة التبغ في سوريا وقد تقدمت هذه الزراعة بعد فتح ترعة السويس وبلغت انتاجات سوريا من ذلك سنة ١٨٧٥ . مليونين واربعماءة الف اوقه بقيمة تسعة عشر مليون ومأتي الف غرش (٣٦٣) وقد كانت بزمن كوى في نصف القرن التاسع عشر ١١٤٨٣٩ أقه (٣٦٤) ولكن قد أخر هذه الزراعة اصول الانحصار الذى ادخل بقانون سنة ١٣٠٣ (والحق اليه بقانون ١٣٣٠) والشرائط التي تحدد اتساع هذه الزراعة وتكاملها في سوريا منها عدم الترخيص بزراعة الدخان الا في البلاد الآتيه : في ولاية

[٣٦٢] Dambmann p. 463
[٣٦٣] Oesterreichiche monatschrift furdemOrent 1875 p. 174
[٣٦٤] Guys page 35

بيروت : قضاء اللاذقية جبله وصهيون صيدا وصور ·

وفي ولاية حلب : بقضاء عينتاب ·

ولم يكن ليسمح بان يزرع في ولاية بيروت الا دخان ابو ريحه وفي ولاية حلب دخان (حسن كيف) ولا يسمح للفلاح القاطن في الاقضية السابقة ان يباشر بزراعة الدخان قبل استحصال رخصة خاصة بذلك هذا عدا عن تعجيز الفلاح بواسطة المفتشين واجباره لتقديم محصولاته لأقرب شعبة للريجي وبيعها اياه بالسعر الذي يراه مناسباً واذا لم يبع الفلاح محصوله المخزون في هذه الشعبة في مدة سنتين يوضع بالمزاد العلني ولا يسمح للزارع ان يبيع محصوله في البلاد العثمانية ، ويدفع رسم ١٫٥ الى ٧٫٨ غروش عن كل كيلو اخرج للبلاد التي كانت تابعة للدولة العثمانية كمصر وغيرها ، وتختلف هذه المكوس باختلاف البلدة المرسل اليها

فكل هذه الشرائط اضرت بهذه الزراعة وهكذا نرى ان حاصلات تبغ سوريا سنة ١٩١١ لم تزد عن ١٣١٠٩٦٨ كيلو (٣٦٥) بينما كانت كما رأينا قبل ادخال الريجي ٢٤٠٠٠٠٠ أقة او ما يقارب الثلاثة ملايين كيلو ، وقد ارتفعت اثناء الحرب عدد الاراضي المزروعة

(٣٦٥) Ruppin 221

بالتنباك والدخان في سوريا لوقوف الوارد وضعف تأثير الريجي المضر ٠

وهنا نرى ضرورة السعي للنهوض بهذه الزراعة في المستقبل لمساعده الشرائط الطبيعية لذلك واهمية الواردات التي يمكن لهذه الزراعة ان تأتي بها الى البلاد ٠

واما القطن فقد رأينا قدم عهد زراعته في سوريا حيث كان يشكل اساساً مهماً في اصداراتها نحو البلاد الغربية وقد بلغت اصدارات حلب فقط سنة ١٨٧٣ ما قيمته ١٠٥ مليون فرنك (٣٦٦) ولكن بعد فتح ترعة السويس واتساع زراعة القطن في مصر واميركا لم يبق لقطن سوريا اهمية في البلاد العربية خصوصاً لقصر خيوطه وفساد النوع المزروع بها على ممر الازمنة وكذا لم يعد يغزل في سوريا لمنافسة خيوط القطن الاوروبية التي ترد على البلاد السورية وتباع فيها بالرغم عن رسوم الجرك المرتفعة لرخصها واسباب هذا هو ان المصانع الاوروبية باستخدامها للوسائط الميكانيكية تستفيد استفادة عظمى من نفس كمية القطن عدا عن رخص الفحم هناك ووفرة رؤوس الاموال اللازمة ثم هبوط اسعار القطن في اوروبا بعد نهاية حروب امريكا الداخلية وهذا بالرغم عن توزيع بدار القطن الاميركي والمصري من قنصل انكلترا ومع ذلك نرى ان هذه الانواع التي تحتاج الى عناية خاصة لم تنجح حينئذ بسوريا

(٣٦٦) Handelsmuseum 1875

وقد اقتصرت سوريا فيما بعد على زراعة القطن في الاطراف الشمالية التي لا تحتاج الى الاسقاء الصناعي وخصوصاً في اطراف ادلب ودانا غربي حلب ومحصولات قطن ولاية حلب في سنة ١٨٩٠ لم تزد عن ٢٥٢٥ طن (٣٦٧) واصداراتها سنة ١٨٩٥ لم تزد عن ١٥٠٠٠٠ كيلو بقيمة ١٢٦٠٠٠ فرنك (٣٦٨) (سعر ١٠٠ كيلو ٨٠ فرنك) واصدارات ادلب فقط سنة ١٩٠٣ بلغت ٢٧٩ طناً بقيمة ٢٥٠٠٠٠ فرنك ومحصولات ولاية حلب جميعاً بلغ في هذه السنة حسب رابور القنصل البلجيكي ٢٣٠٠ طن وفي سنة ١٩٠٥ هبط سعر القطن في مرسيليا من ٨٤ فرنك سنة ١٨٩٥ (سعر المأة كيلو) الى ٤٢ — ٥٨ سنة ١٩٠٥ ٠

وان قسماً من القطن السوري كان يستعمل في سوريا نفسها للفرشات والاوسدة الخ ٠ وقطن حلب مرغوب في اوروبا بالرغم عن قصره الا بزره فلم تكن فيه منفعة لاستخراج الزيت منه نظراً لبقاء الياف القطن عالقة به ولذا تستعمل كغذاء مقو للمواشي المحلية ٠ واذا دققنا النظر في محصولات قطن ولاية حلب (ادلب ودانا) لسنين متعددة نراها تتراوح بين الالف ١٥٠٠ الى الفي طن سنوياً وقد ارتفعت سنة ١٩١٣ حتى

(٣٦٧) Vilale-Cuinet la Turquie Tom I I p 136

(٣٦٨) Receuils consulairs Belges 1897 p. 144 1905

الى ٣٠٠٠ طن اصدرت منها اسكندرون في سنة ١٩٠٨ الى ١٩١٣ قريباً من ٦٠٠٠ طن (٣٦٩) وترى ان زراعة القطن تبتدئ في المدة الاخيرة اتساعاً باطراف جبله وطرابلس وعكا وحيفا وغور بيسان ولكن لم تأتِ في فلسطين دائماً بالنتائج المطلوبة الا في اطراف عكا حيث جربت احدى الشركات الاجنبية المصرية Société agricole et industrielle d'Egypte زراعة القطن على الاصول الحديثة ما بين حيفا وعكا سنة ١٩١١ فكانت النتيجة حسنة جداً من جهة الكمية والكيفية كما يأتي :

زرع خمس فدانات مصرية اولاً الواردات :

محصول ٩٠٠ كيلو بسعر ١٫٨٠ فرنك الكيلو :	١٦٢٠	القيمة فرنك
قيمة البزر	١٨٠	» »
فيكون الواردات جميعاً	١٨٠٠	فرنك

والمصارفات كما يأتي :

مصارفات الاسقاء والمحافظة والعشر ١٢٫٥ ٪	٥٤٠	فرنك
قيمة البدار واجرته	٣٠٠	فرنك
	٨٤٠	»
الخالص	١٨٠٠	فرنك

(٣٦٩) Achard Etude sur la Syrie et la Cilicie 1922 p.39

عن خمس فدانات مصرية (٢١٠٠٠ متر مربع) ٨٤٠ «

الصافي ٩٦٠ فرنكاً

اي عن الهكتار ما يوازي ٤٦٠ فرنك (٣٧٠) .

ولكن اجريت تجربة اخرى في غور بيسان قبل هذه وتحت نظارة الخواجا التويني في بيروت وذلك على الارضي الخاصة بالسلطان ولكن بالرغم عن توفيق باهر في البداية لغسطر - الى توقيف هذه الزراعة لقلة فوائدها المادية . هذا رغم كون حصد ٥٥٠ كيلوغرام قطن من الهكتار من نوع افضل من نفس الجنس المزروع بمصر من حيث رفع الخيط ومتانته ورغم انه كان هناك بحيفا معمل خاص يملك على ادوات بقيمة ١٠٠٠٠ فرنك لتنظيفه وحسن السعر التي بيعت به في انكلترا واسباب عدم النجاح يلخصها اشارد chard كما يأتي :

١ - ظهور دودة اخرت بالزرع بنسبة ٢٠ بالمائة في السنة الاولى و ٢٥ في المأة في السنة الثانية وعدم امكان حمايتها اقتصادياً .

٢ - قلة عدد العمال وشدة الحر على العمال الاجانب عن البلاد كالمصريين .

٣ - مصادفة زمن تنظيف ارض القطن من النباتات البرية مع الحصاد في تلك النواحي ومن ذلك زيادة مضرات قلة الايادي العاملة .

يمكننا ان نقول ان شمالي سوريا في استعداد تام لزراعة القطن اكثر من الجهات الجنوبية خصوصاً اذا استعمل اصول الاسقاء الحديثة حسب الاحتياجات العصرية باطراف الفرات وقرب العاصي وفي نواحي عكار وجبله وفي اطراف العمق وقرب دمشق وربما تمكن السوريون من استحصال على جنس من القطن ملائم لشرائط الطبيعية وذي مورد غزير وحينئذ تتقدم واردات البلاد القطنية وهناك زراعة القنب التي يمكنها ان تأخذ اهمية اقتصادية في البلاد السورية لو اعتنى بتعليم الفلاحين حسن تفريق الخيوط من القنب التي تستدعي مهارة هذه المهنة ولا يوجد بالشام الا قرية واحدة تقدر نسائها على القيام بهذا الامر مما ينتج ابقاء المساحة الارضية المخصصة لهذه الزراعة محدوده بنسبتهم (٣٧١) ويمكننا ان نفهم اهمية هذه الزراعة في سوريا اذا علمنا ان وارداتها في الشام فقط تساوي مليونا من الفرنكات عدا عن محصولات ولاية حلب وضواحي الفرات. ولنبحث الآن عن زراعة الحبوب السورية في هذه الدورة التاريخية : رغم ما تجلي لنا من الاهمية الاقتصادية لزراعة الاشجار المثمرة في سوريا لا شك ان اساس الزراعة السورية هي زراعة الحبوب خصوصاً الحنطة والشعير وبعدئذ السمسم. واذا صرفنا النظر عن بعض الاطراف الممتازة بالطبيعة الكثيرة المياه كالغوطة والغور والبقاع

(٣٧١) Buppin 219

واطراف حمص وحما وحلب نرى ان اكثر السهول السورية خصوصاً اطراف حوران والاراضي الشرقية مختصة بهذه الزراعة التي تكتفي بقليل من المياه والعناية ولا تحتاج الى رؤوس الاموال كزراعة غيرها من الاشجار المثمرة ويصعب سرقتها كالاثمار ثم تعطي كل سنة واردات ويسهل نقلها نظراً لسهولة الحمل وقلة احتوائها على الماء بنسبة حجمها ومنذ دخلت سوريا بصلات اقتصادية مع البلاد الغربية وتولدت على اثر التجارة رؤوس اموال وتحسنت النقليات بواسطة السكك الحديدية والطرق نرى ان اصحاب الاملاك تخرج من المدن تباعاً وتسعى وراء اكتناء اراضي زراعية تستعملها في الغالب لزراعة الحبوب لما ذكرناه من السهولة بحفظها ونقلها وبيعها ولانها لا تطلب بالنسبة الى مساحة الارض الا قليلاً من رؤوس الاموال فالقسم من هذه المحصولات كان يخدم لاعاشة سكان المدن التي كما ترى زال عدد نفوسها في العصر التاسع عشر والقسم الآخر كان يصدر الى البلاد الاوروبية خصوصاً بين سنة (١٨٧٠ الى ١٨٨٦) حيث قيمة الحنطه كانت غالية في اوروبا وكانت اخراجات الحنطه اهم واردات ولاية حلب (٣٧٢) ولكن بعد ذلك هبطت اسعار الحنطة في ايطاليا على اثر منافسة حنطة روسيا والهند ووضع مكوس على الحنطة السورية في مرسيليا · واتسعت زراعة الشعير خصوصاً

(٣٧٢) Recueil cons Bel. 1897 p. 444

في فلسطين واطراف غزة على أثر اصدارها الى انكلترا لصناعة البيرا ثم السمسم منذ علم امكان استخدام زيته بصناعة الصابون الغربية وسنرى في التصريحات الآتية كيفية هذه التطورات الزراعية والعلاقة الموجودة بينها و بين شرائط البلاد الاقتصادية والاسعار الاوروبية واهم مركز لزراعة الحنطة في سوريا انما هو حوران بعد انتقال كثير من سكان جبل لبنان الى تلك الاطراف على اثر الاغتشاشات التي حدثت بين الدروز والنصارى في سنة الستين وما قبلها وقد اتسعت فيه زراعة الحنطة تباعاً بحيث بلغت سنة ١٨٩٢ (حسب اخبار القونصول الافرنسي Guillois) ٢٠ الى ٢٥ مليون مد (كل مد ١٦ ليرة)

وبعد ابقاء قسم من ذلك للبدار واحتياطاً يرسل ٢ الى ٣ مليون مد الى الشام حيث يستهلك نصفها في هذه البلدة والنصف الآخر يطحن ويرسل الى بيروت ومصر و بعض مدن السواحل .

ثم من ٧ الى عشرة مليون كانت ترسل الى عكا ومن هناك الى مصر وجزر الارخبيل وكان يذهب من حوران الى لبنان وخصوصاً لزحله قسم من قمح حوران وعدا عما ذكرناه ٥٠٠٠٠٠ الى ٧٠٠٠٠٠ مد الى جهات مختلفة ولم يكن يصدر حوران شعير ولا ذرة لاحتياج السكان الى ذلك وصعوبة النقليات وغلائها فبينما كانت قيمة مد القمح تساوي ثمانية غروش او ١٫٧٥ من الفرنكات كان سعر مد الشعير يساوي

٥ ومد الذرى ٤ غروش

وترى ان اجرة نقل مد القمح من حوران الى الشام من ٢ الى ٤ غروش والى زحله ٣-٥ غروش والى عكا ٤-٧ غروش وكثيراً ما يتفق الفلاح كما سبق ذكره ويتقاسم مع المكاري محصولاته في مقابل نقلها الى الساحل واما اجرة النقل في الاطراف الشمالية فكانت تبلغ الى (٤٠) في المائة من قيمة الحنطة وقد ارتفعت قيمة الحنطة في اوروبا سنة ١٨٩٩ وترى تأثير ذلك في كمية الحنطة المخرجة من حلب التي ارتفعت سنة ١٩٩٥ من ٣٥٠٠ طن الى ٢٥٠٠٠ طن في سنة ١٨٩٩ وقد بلغت اصدارات حلب سنة ١٩١٢ ٤٠٠٠٠ طن من حنطة وشعير معا وهذا على اثر ارتفاع قيمة حنطة حلب في اوروبا من ١٤ الى ١٥ فرنك (قيمة ١٠٠٠) كيلو سنة ١٨٧٨ الى ١٩ وسنة ١٩١٢ الى ٢٢ فرنك وحيفا التي تورد قسماً قليلا من قمح حوران اصدرت سنة (١٩٠٣) : ٣٤٥٤ طن قمح (نظراً الى القوليرا وامتناع السفن عن زيارة السواحل السورية) وسنة ١٩١٠ ما يقارب ٧٥٤٠ طن قمح و ٧٩٠ طن شعير (٣٧٣) (و بالرغم عن ان محصول هذه السنة كان وسطاً) وبلغت اخراجات الحنطة من حيفا سنة (١٩١٢) ١٣٠٣٠ طناً ثم هبطت سنة ١٩١٣ الى ٥٩٦٠ طناً .

وقد ارتفعت في سنة ١٩٠٤ قيمة الحبوب فبينما كانت فيها قيمة كيلو الحنطة

(٣٧٣) Recueils Consulairs Belge 1912

« في يافا » ٢٤ غرشاً بلغ سعر الكيلو (١٩١١) ٣٥ للحنطة و ٣٠ غرش للشعير ولا شك ان لذلك علاقة مع اصدار الشعير الى انكلترا من جهة وتكاثر سكان المدن السورية واحتياجاتهم اليها من جهة أخرى وفي الحقيقة نرى ان مساحة الارض المزروعة حنطة ترتفع في ولاية حلب من ١٥٠٠٠٠ هكتار سنة ١٩٠٩ الى ٧٠ الف هكتار سنة ١٩١٤ حسب Ruppin (بينما عدد شجر الزيتون ينقص كما ذكرنا من ٦٢٢ر٢ ملايين الى ٢٠٦ر٢) وكذا ارتفعت مساحة الاراضي المزروعة حنطة في ولاية بيروت من ٤٢٠٠٠ هكتار سنة ١٩٠٩ الى ١٠٢٠٠٠ هكتار سنة ١٩١٤ (بينما كان عدد اشجار الزيتون ينقص من حوالي اربعة ملايين الى ١٧٥ مليون) و يقدر Ruppin محصولات قمح سوريا قبل الحرب بمليون طن تنقسم كما يأتي :

١٥٠٠٠٠ طن محصول حوران والاراضي المجاورة لها ١٠٠٠٠٠ طن محصول البقاع ٥٠٠٠٠ طن محصول مرج ابن عامر وشرقي الاردن والباقي في انحاء سوريا المختلفة (اطراف حلب وحمص وحما) واذا نظرنا كما لاحظ روبين الى عدد سكان سوريا واخرجنا من المليون طن عشرة للبذار لا يقع على الشخص الا ٢٢٥ كيلوغرام حنطة مما لا يترك للاصدار الى الخارج كمية كبيرة خصوصاً لكثرة استهلاك الخبز في البلاد الشرقية و يمكننا تفسير بعض الاصدارات التي سبق ذكرها بان الفلاحين تستعمل خبز الشعير والذرى للغذاء وتخرج القمح للخارج وقد اشار القنصل البلجيكي في طرابلس بان ...

رأى بعض فلاحي تلك النواحي تستعمل خبز القمح الابيض كالأدم لخبزهم الاسود واذا نظرنا الى ايطاليا التي كما ذكرنا تشابه سوريا بمساحة واقليما نرى ان محصول قمحها سنة ١٩١٣ يوازى ثمانية ملايين طن قمح ومحصول فرانسا سنة ١٩١٢ من ٨ الى ٩ ملايين قمح ما عدا الجزائر التي تنتج مليونين الى ثلاثة ملايين قمح فمن المؤكد امكان اتساع زراعة القمح في سوريا وذلك اولاً بتوسع الاراضي المخصصة لهذه الزراعة ثانياً برفع المحصولات على اثر تقدم الوسائط الزراعية وهناك اراض واسعة شرقي حمص وحلب وباطراف الفرات لا تزرع الآن لعدم وجود الامنية اللازمة وتجاوز الاعراب ثم صعوبة الوسائط النقلية ولا شك ان تحسن أصول الادارة العدلية والمالية في سوريا سيكون له تأثير محسوس بادخال هذه الاراضي المهملة حتى الآن بساحة النشاط الاقتصادي القومي وعلى تقدير هوله‌ن Huvelin يمكن توسيع مساحة الارض المختصة بالقمح في سوريا « ما عدا فلسطين وما الحق بتركيا من ولاية حلب » من نصف مليون هكتار سنة ١٩٠٩ الى مليونين وربع هكتار بحيث يكون محصول قمحها السنوي (اذا اخذنا سنة ١٩٠٩ اساساً) عن الهكتار ١٤٠٠ كيلو وجمعاً ما يقارب ثلاثة ملايين طن قمح (٣٧٤) بحيث يمكن اخراج ثلثى هذه المحصولات الى البلاد الاجنبية بعد تأمين الثلث لاحتياج السكان والبدار ولكن

(٣٧٤) Huvelin ,Que vaut la Syrie 1922 Page 16

لا تنال سوريا هذه المساحة الزراعية قبل ان يكون لها سياسية اقتصاديه قوميه تحافظ على منافع البلاد وتمنع من ان تؤثر منافسة الحنطة الخارجية على مزروعات ابنائها كما هي عليه الحال في يومنا هذا حيث يتولد على اثر ذلك بحران زراعي تنعكس تأثراته في كل حياة سوريا الاقتصادية نظراً لاهمية زراعة الحنطة في تلك البلاد ·

وكذا يمكن حسب هوله ان تتسع زراعة الشعير في سوريا من ٣٢٢٤٠٠ هكتار سنة ١٩٠٩ الى ١٤٤٠٠٠٠ بالمستقبل ومحصولاتها من نصف مليون طن الى مليونين ويجد الشعير السوري علاوة على السوق الوطني ربحاً كبيراً في البلاد الاجنبية خصوصاً في انكلترا حيث يرغب الشعير السوري لاستحضار الجعه والوسكي · ويمكن توسيع زراعة الدرى في سوريا التي لم يتجاوز محصولها (١٥٠) الى (٢٠٠) الف طن مع استعداد البلاد السورية لنمو هذا النبات الخادم لتقدم ثروة البلاد اما زراعة السمسم فبقيت في بداية هذه الدورة في تأخر الى سنة ١٨٩٩ حيث يخبر المعتمد البلجيكي بانها ابتدأت تتسع في تلك الولاية بحيث اصدر منها الى مصر وفرانسا والاستانة مقدار ١٢ الى ١٣ الف طن (٣٧٥) اما اصدارات فلسطين للسمسم فبلغت سنة ١٩٠٢ (عن ثغر حيفا يافا وعكا) اربعة الاف طن الى مرسيليا وهامبورغ وبلغ اصدار حيفا فقط سنة (١٨٩٥) ٢٥٠ طن وسنة ١٩٠٣ : ٢٧٨٤ طن

(٢٢٥) Recueils consulairs Belge 1899

وقد ارتفعت بعدئذ كمية السمسم الصادر الى اوروبا (تريدته ، مارسيليا ، انورس ،) و بلغت سنة ١٩٠٥ عن ثغور فلسطين حيفاعكا يافا ٨٠٠٠ طن

وفي سنة ١٩١٠ نرى ان اصدار حيفا وعكا لم يتجاوز (٥٢٤٠) طن وسبب هذا النقصان هو ان محصول هذه السنة كان وسطاً وكذا نرى ان السمسم كان مزروعاً عَلَى مساحة واسعة في ولاية بيروت بلغت سنة ١٩٠٩ (٢٣٦٧٥) هكتارا (٣٧٦) وانما لقد اضرت الحرب وامتناع الاصدار الى الخارج هذه الزراعة التي رجعت في ولاية بيروت حتى مساحة من الارض كافيه للاستهلاكات الحالية لا تتجاوز سنة (١٩١٥) ٧٦٣٩ هكتاراً حسبما صرح روبين Ruppin ولا شك ان القمح بتحسن الصلات التجارية مع الخارج سيرجعان لسوريا ما فقدته من ارباح هذه الزراعة التي يمكنها ان تلعب دوراً مهماً بحياة سوريا الاقتصادية اذا صادفتها العنايه

وهناك زراعة الفول والحمص والعدس في سوريا ابتدأت تأخذ في هذه الدورة اهمية تجاريه تستحق الذكر ولكن الحرب اضرت بزراعتها لقلة الايادي العامله وكذا بزراعة البطيخ وما شاكله لصعوبة النقليات اثناء الحرب وقلة الايادى العاملة للقطف والتعشيب الخ . . . هذا ما يخص النباتات واذا لفتنا انظارنا نحو المواشى السورية في هذه الدورة التاريخية نرى انها اتسعت بنسبة تكثر عدد سكان المدن وشدة استهلاكات المواد الحيوانيه

(٣٧٦) Resumé de la statis tique ete1912

وارتفاع اسعارها اذ ا حدثت سنة ١٩٠٢ امراض بسبب النشاف وقلة الامطار اردت كثيراً من الخواريف في شمال سوريا بحيث قل عددها من ١٨٨٧٩٠٠ سنة ١٩٠١ الى ١٧٨١١٦٥ سنة ١٩٠٢ ولم تزل تتأخر عدد خواريف ولاية حلب في السنين الآتية نظراً لثقل الضريبة الموضوعة على الاغنام ثم منافسة خواريف ديار بكر ثم المرض Episotie الذي قتل عدداً كبيراً من الخواريف والجاموس هكذا بحيث لم يزد عدد خواريف ولاية حلب سنة ١٩٠٥ عن ٩٣٠٠٠٠ رأس وسنة ١٩١٥ عن ٩٧٠٠٠٠ رأس وكذا تأخر في ولاية حلب عدد الاحصنة من ٧٥٠٠ سنة ١٩٠٩ الى ٣٢٥٠ سنة ١٩١٥ عدد انثى الخيل من ٣٨٧٢٢ الى ٢٢٨٤٦ سنة ١٩١٥ ثم كذا عدد البغال من ٣٠٤٣٤ الى ٩٤٤٩ وعدد الحمير من ١٠٧٢٩٧ سنة ١٩٠٩ الى ٣٢٢٦٩ سنة ١٩١٥ وهبطت عدد البقر في هذا الولاية من ٤٩٦١٥٥ سنة ١٩٠٩ الى ١٠٦٢١١ سنة ١٩١٥ اي ما يقارب ٧٦٪ بالمايه وكذا تأخر عدد الماعز في هذه الولاية من ١٠٧٥٤٨٧ سنة ١٩٠٩ الى ٥٠٤٤١٢ سنة ١٩١٥ فهذه الاعداد تبين لنا صراحة تأخر تربية المواشي خصوصاً في سوريا الشماليه التي تشتمل على اراض واسعة مع كثرة المطر التي تساعد تأمين المراعي الواسعة لتربية هذه الحيوانات الاهلية ولا شك في ان اهم اسباب هذا التأخير هي المصادرات التي وقعت سنة ١٩١٥ على اثر دخول تركيا بالحرب وتلف كثير من هذه الحيوانات في المحلات

التي جمعت بها دون ان تلاقي دائماً العنايه والتغذية اللازمة لمحافظتها عوضاً عن مشقات السفر والنقل ·

ولا شك ان الحالة هذه توجد ايضاً في سائر الاقسام السوريه الباقية كالشام وولاية بيروت وفلسطين وانما ليس هناك اعداد توضح لنا ذلك اما بعد الحرب فقد تحسنت الحالة نوعاً ما في اطراف الشام وحلب على اثر وجود الجيوش المحتلة خصوصاً جيوش الانكليز في فلسطين حيث اكثرهم من الهنود الذين لا يأكلون لحم البقر بل يتغذون بالغنم والقنصل الاميركي قد بين ان قيمة الحوار يف التي استعملتها الجيوش الهندية في فلسطين في مدة ثمانية عشر شهراً الى اوغستوس سنة ١٩٢٠ بلغت خمسة ملايين دولار(٣٧٧) اكثرها من اطراف الشام وحلب وقسماً قليلاً من قبرص ·

وهذا اثر على تربية المواشي في فلسطين لصعوبة المرعى هناك ومنافسة اغنام الشام وحلب لها ويمكن ان نقسم عدد مواشي سوريا خصوصاً الخيل الجياد والبقر لتؤمن الزراع في سنين المحل مورداً يساعد على تحمل وطئتها وفي كل البلاد الراقيه جعل تربية المواشي جزءاً اساسياً من الحقل الزراعي لا كما عليه الحالة في سوريا حيث ترك التاجر والراعي على القيام بهذه المهنه التي تنفصل عن الزراعة وتأخذ صورة تجارية محضة والغالب

(٣٧٧) Daily cousular and trade repports 1921 Page 244

ان يتفق الراعي والتـاجر على ان يعطي الاول للثـاني الخواريف ونصف صوف النعاج و ١٢٨٠ غرام سمنه عن رأس كل انثي و يتعهد بدفع ضريبه الاغنام للحكومه « ٣٧٨ » ويمكننا ان نتصور الواردات التي تمكن لتربيـة الجياد العربيه في سوريا اذا تذكرنا ما لهذه الخيل من الاعتبـار في البلاد الغربيه وكم تتحسن حالة الزارع السوري اذا تمكن من تربية البقر اللازمه لاعطائه اللبن والسمنه والجبن ونشيد محراثاً حديثاً لايخط الارض بل يقلبها فيقتل الاعشاب الضاره و بدع (الاوقسيجهن) يشكل تركيبات نافعة لتغذيه الزرع واعاشه تلك الملايين من الكرويات الترابيه التي تزيد بوجودها كميـة المواد العضويه اللازمه لتحسين التربه الزراعيه و يقدرون مجموع واردات تربيه المواشي السوريه مع التوليـد ومحصولات السمنه والجبنه الخ بمأة مليون فرنك و بما ان الحيوانات لا ترى في الغالب مشتركة مع زراعة النباتات فتفقد هنا سوريا كثيراً من واردات المواشي التي تخدم بالواسطه ارتفـاع المحصول اعنى فوائد السماد الطبيعي وهناك امكان زراعة القلي في سوريا كما اظهرت التجارب في فلسطين حيث زرعت اليهود المستعمرون قلي مصري ادى بنتائج حسنه خصوصاً اذا اتسعت زراعـه الصبير التي تؤمن غذاء حسناً ورخيصاً لاكثر الحيوانات الاهليه واعتني بحفظ حشيش الصيف لحسن تغذيه الحيوانات الشتويه وقد اتسعت في المده الاخيرة

(٣٧٨) Recueils consul · Belge1900

بظاهر بيروت وطرابلس واللاذقية وبعض اطراف فلسطين تربية الدجاج على اثر حسن رواج البيض والالبومين في اسواق مرسيليا والالبومين ولا شك ان هذه التجارة ستأخذ نفس الاهمية بعد الحرب خصوصاً للاحتياج الموجود حالياً في تلك البلاد لهذه المواد على اثر تخريبات الحرب ولا شك ان لسوريا الاستعداد اللازم لان تأمن من تربية الحيوانات الاهلية مورداً مهماً بحياتها الاقتصادية حيث ليس هناك مناسبة بين استعداد الاراضي السورية لتربية قسم مهم من المواشي وبين العدد التي تملكه قبل الحرب وبعده والاعداد الآتية تبين لنا ذلك بصراحة :

اسم البلد	سنة الاحصاء	عدد الخيل	عدد البقر والجاموس	عدد الغنم	عدد الماعز	عدد البغال والحمير
سوريا	١٩٠٩-١٠	١١٨٠٠٠	٧٤٩٠٠٠	٣٠٣٣٠٠٠	٣٣٣٣٦٠٠	٤٥٤٠٠
سوريا بعد معاهدة نقه	١٩٢٢	مع البغال والحمير ٩٤٣٠٠٠	٢٩٣٠٠٠	١٢١٦٠٠٠	٤٠٩٢٠٠٠	
بلغاريا	١٩١٠	٤٧٧٧٢٣	٢٠١٨٠٠٨	١٦٤٦٧٠٠٠	١٤٥١٣٤٤	١٠٠٣٩٨
رومانيا	١٩٠٠	٨٦٤٣٢٤	٢٥٨٨٥٢٦	٥٦٥٥٠٠٠	٢٣٣٠٠٠	٧٧٠٠
صربيا	١٩١٠	١٥٢٥٠٠	٩٥٧٠٠٠	٣٨١٨٠٠٠	٢٣٠٠٠٠	١٦٥٣
ايطاليا	١٩٠٨	٩٥٥٠٠٠	٦٢٠٠٠٠٠	١٦٩٦٧٠٠٠	١٤٠٨٠٠٠	٥٥٥٠٠٠
فرانسا	١٩١٢	٣٢٢٢٠٠٠	١٤٧٠٥٠٠٠	١٦٩٦٧٠٠٠	١٤٠٨٠٠٠	١٥٥٠٠٠٠
المانيا	١٩٠٧	١٤٣٤٠٠٠	٢٠٣٣٠٠٠	٧٧٠٣٠٠٠	٣٥٣٣٠٠	٣١٢٩١

ولنتم هذا البحث بان نذكر بان واردات ضرائب سوريا التي لم تتجاوز في سنة ١٧٩٧ بزمن سياحة برون (١٧) مليون فرنك وبلغت حسب داميان في سنة ١٩٠٠ (٦٣٦٣٢٣٤١) فرنك وسنة ١٩١٤ ارتفعت هذه الواردات الى ٨٨٣٦٠٠٠٠ فرنك ما عدا الرجى (١٩٣٤٩٨٦ فرنك) وبلغت هذه الواردات سنة ١٩٢١ ما عدا فلسطين والقسم

المنفصل عن سوريا الشمالية ٨٦٤٠٠٠٠ فرنك وتقدر لسنة ١٩٢٢
لسوريا دون فلسطين و ١٢٩٧٢٦٠٠٠ فرنك اما المصارفات فكانت
عشرة ملايين فرنك سنة ١٨٣٦ وفي سنة ١٩١٤ : (٤٤٥٧٨٠٠٠) ثم في
سنة ١٩٢١ ١٤١٩٦٥٠٠٠ فرنك وسنة ١٩٢٢ حسب الميزانية
٦٢٧٢٦٠٠٠ فرنك واذا نظرنا الى هبوط سعر الفرنك يمكننا ان
نعدل الفرق ما بين مصارفات سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٢١ الى ما يقارب
ثلاثة ملايين فرنك ذهب وهذه الزيادة على المصارفات عن سنة ١٩١٤
تبلغ حسب الميزانية المنظمة لسنة ١٩٢٢ ما يقارب ثمانية ملايين من الفرنكات
الذهبية ولم تتناقص المصارفات سنتي ١٩٢٣ و١٩٢٤ بتشكيلات الاتحاد

اذا دققنا حالة حلب التجارية بعد افتتاح ترعة السويس نرى ان
وارداتها بلغت سنة (١٨٧٣) ٢١ مليوناً ونصفاً من الفرنكات (٣٧٩)
ولم تتجاوز هذه الواردات سنة ١٨٤٥ كما رأينا ٦٫٢ مليون من الفرنكات
وقد حدثت في هذه الدورة تحسنات ظاهرة بحالة البلاد الاقتصادية
خصوصاً الزراعة بحيث تمكنت حلب من ان تصدر في هذه السنة
اي سنة ١٨٧٣ ما يفوق الواردات التي اتت اليها من الخارج بينما كانت
هذه الواردات تفوق الاصدارات قبل هذه الدورة التاريخية بمثلين اما
اذا دققنا النظر في اهم البضائع الواردة الى حلب في هذه السنة نراها

(٧٦٢) Zwidineck Handels Museum 18,5 page 36

انها تعود للأنتاجات الصناعية خصوصاً الانسجة القطنية التي بلغت في هذه السنة ١٣١٥٨٠٠٠ من الفرنكات اي ما يقارب ٦٠،٤ ٪ من مجموع واردات حلب و يعقب الانسجه القطنية اهمية الانسجة الحريرية ثم الطرابيش والسكر والادوية الخ .. اما الاصدارات فقد بلغت سنة (١٨٧٢) ٢١ مليون وستمايــة الف فرنك منها كمية مهمة تعود للزراعة وتربية المواشي خصوصاً القطن حيث بلغت اصداراته في هذه السنة مليونا ونصفاً من الفرنكات اى ما يقارب سبعه فـي المايه من مجموع الصادرات و يعقب ذلك اهمية (الغدد) حيث بلغت اصداراتها ١،٤ مليون فرنك او ما يزيد على ستة في المائـة من مجموع الصادرات و البضائع الآتية اصدرت في هذه السنة : بقيمة

سمسم	١١٥٩٠٠٠ فرنك
سمنه	٩٩٠٠٠٠
توتون وتنباك	٦٠٠٠٠٠
صوف	٤٩٣٦٨٠
جلود	٣٦٠٠٠٠

والباقي من سائر الانتاجات كالحنطه والعدس الخ وليس هناك مع الاسف تفصيلات عن ذلك ولكن لم تبق حالة حلب الاقتصادية حسنة كما كانت عليه سنة ١٨٧٣ حيث نرى ان الواردات تتزايد بسرعة

بينما الصادرات تعقبها ببطئ وحتى تهبط في سنتي (١٨٩٠ و ١٩٠٢) عن صادرات سنة ١٨٧٣ على اثر القوليرا . وارتفعت قليلاً في سنة ١٩١٠ والاعداد الآتية توضح لنا هذه الحركة الاقتصادية

ولاية حلب

سنة	واردات	صادرات	
١٨٧٣	٢١٤٠٠٠٠٠	٢١٥٠٠٠٠٠ فرنك	(٣٨٠)
١٨٨٠	٣١٦٩٠٤٥٠	٢٠٧٩٩٠٥٥	
٥٨٨١	٤٢٥٦٨٦٠٠	٢٢٣٤٥٣٢٥	
٠٨٨٢	٤١٦٠٩٩٢٥	٢٦١٠٧٣٧٥	
١٨٨٣	٤٠١٧٢١٠٠	٢٦٤٠٧٧٢٥	
١٨٨٤	٣٣٨١٧١٢٥	٢ ٨١١٢٢٥	(٣٨١)
١٨٨٥	٣٨،٦٢٢٦٨٠	٢٤٩٦،٩٣٠	
١٨٨٦	٤١٧٦٨٤٠٠	٢٥٥٥٥١٢٥	
١٨٨٧	٤٠٤٧٢٠٨٠	٢٢١٢٣٦٠٠	
١٨٨٨	٤٢٣٢٦٦٧٠	٢٦٣١٧٧٣٠	(٣٨٢)
١٨٨٩	٤٤١١٢٧٧٠	٢٤٥١٦٠٣٠	

(٣٨٠) Handels museum 1873 (٣٨١) Vital-Ciunet tom II 204

(٣٨٢) Recueils Cons. bel.. 1897 page 4

١٨٩٠	٤٢٩٠٨٨٠٠	١٧٤٢٢١٥٠	(٣٨٢)
١٨ ١	٤٤٩٩٨٥٠٠	١٨٤٠٥١٧٥	
١٨١٢	٤٥٠٢٠٧٥٠	٢١ ٢٠٧٨٧٥	
١٨٩٣	٤٧١٧٦٧٥٠	٢٣٠٨٣٠٦٠	
١٨٩٤	٤٨٥٤٧٤٨٠	٢٤٤٩٨١٤١	(٣٨٣)
١٨٩٥	٤٥٤١٢٦٥٠	٢١٤٤٨٨٩٥	
١٩٠١	٥١٩٧٨٢٩٠	٢٤٤٣١٦٠٢	
١٠٠٢	٤٤٦٤٤٦١٥	١٧٤٤٤٣٢٧	(٣٨٤)
١٩٠٣	٤٨٤٢٧٨٠٠	٢٠٠٢٢١٨٠	(٣٨٥)
...	...	...	
١٩٠٥	٥٠٠٠٠٠٠٠	?	(٣٨٦)
١٩١٠	٥٩٠٠٠٠٠٠	٣٥٠٠ ٠٠٠	(٣٨٧)

فاذا صرفنا النظر عن سنتي ١٨٩١ و ١٩٠٣ حيث الكوليرا اضرت بحياة البلاد السورية وصعبت المناقلات بمناسبة الكرنتينا وامتناع بعض

(٣٨٢) Recu. Cons. belge 1897 page 4
(٣٨٣) » » » » » »
(٣٨٤) » » » » » 3
(٣٨٥) » » » » » 5
[٣٨٦] » » » » » 6
(٣٨٧) » » » » » 2

السفن من زيادة عن سواحلها يمكننا ان نقول ان حياة حلب التجارية اتسعت بالتتابع منذ ابتداء هذه الدورة التاريخيـة وانما لم تكن سرعة التقدم متساوية بين كمية الاصدارات والواردات كما يظهر من التدقيق بالاعداد السالفة حيث نرى ان الواردات تضاعفت على التقريب ثلاث مرات من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٩١٠ بينما الأصدارات التي كانت توازي الواردات سنة١٨٧٣ تأخرت حتى نصفها سنة ١٩١٠

ثم لم تزد في مدة ٣٧ سنة اكثر من الثلث تقريباً ولا شك ان هذه الحالة مضرة بحياة البلاد الاقتصادية حيث لا يمكن المداومة عليها دون ان تفقر البلاد وتخسر ثروتها والايادي العاملة فيها وانما يجب ان نتذكر بان حلب كانت ولم تزل مخزناً لكثير من البضائع التي تحتاجها شمالي الجزيرة وديار بكر وقسم من بلاد الاناضول المجاورة وانهـا تسد احتياجات العربان الرحالة والكرد بحيث ان هـذه الواردات تعدل نوعاً ما ثقل هذا النقصان بالموازنة التجارية ومن المعلوم أن الموازنة التجارية المنفية لا تضر الا اذا كانت المبالغ المدفوعة الى الاجانب في مقابلة بضائعهم الواردة اكثر من المبالغ الداخلة ولدى تدقيق واردات حلب نرى ان اهمهـا الانسجة القطنية الرفيعة ومن جنس مخوط وهنا تنجلي لنا نتائج تأخر البضائع الوطنية وتبدل الذوق الشرقي الذي يفضل المصنوعات الغربيـة على محصولات بلاده مغروراً

برخص هذه البضائع نسبة الى محصولات البلاد نظراً لاستعمال الوسائل الميكانيكية و كثرة رؤوس الاموال الموجودة تحت ادارة ارباب المعامل الغربية ثم تحسن وسائط المناقلات بين الغرب والشرق ثم بينما كانت قيمة البضائع القطنية الموردة الى حلب سنة ١٨٧٣ لم تتجاوز ثلاثة عشر مليونا ونصف فرنك نرى ان هذه القيمة ترتفع فيما بعد اثناء سنة ١٨٩٠ الى ٢٥،٤ مليون من الفرنكات اي بنسبة ٪ ٨٨ ودامت هذه الزيادة الى الحرب العامة التي قطعت المواصلات بين السواحل السورية والغرب ولا شك في انها سترجع الى ما كانت عليه قبل الحرب بعد رجوع هذه المواصلات كما نرى ذلك من مرفأ بيروت الذي بلغت وارداته لسنة (١٩١٩) ١٠٥٧٦ طناً من هذه البضائع والمصنوعات القطنية وكانت سنة (١٩١١) ٩٧٣٥ طناً .

ومجمل هذه البضائع القطنية التي كانت تأتي الى حلب من الخارج كان منشأها معامل انكلترا سنة (١٨٩٠ د ٢٨،٤ مليون فرنك) التي تقدمت بالتجارة مع حلب بعد ان كانت على وشك التأخر سنة ١٨٤٥ كما رأينا في الابحاث السابقة وابتدأت ان تنافسها بهذه التجارة المفيدة ايطاليا في سنة ١٨٨٨ هذا ما يختص بالبضائع القطنية اما رقباتها بالبضائع الصوفية والاجواخ فالنمسا والمانيا واما فرنسا فلم تتمكن من ادخال بضائعها القطنية الى سوريا لأن مصنوعاتها كانت

تمتاز وتفوق جنساً و بالتالي قيمة مصانع انكلترا وايطاليا . مع ان فقر البلاد السورية لا يساعد الا اكتناء البضائع الرخيصة و يعقب البضائع القطنية اهمية خصوصاً سنة ١٨٩٠ المواد الطبية التي كانت توردها حلب والتي بلغت في هذه السنة ٣٩٤٣٧٦٠ من الفرنكات اكثرها (١٩٨٠٩٠٠ فرنك) من فرنسا ثم النمسا والمانيا واخيراً مصر (انكلترا) وبعد ذلك تأتي البضائع والانسجة الحريرية من ليون والاجواخ من المانيا والنمسا ثم النيل (Indigo) والجلود والسكر وهذه المادة الاخيرة تزايد ورودها الى حلب في السنين الاخيرة بصورة تستحق الذكر وذلك من ١٠٠٤٣٢٦ كيلوغرام سنة ١٨٩٠ بزمن ويتال كينه Vital Cuinet الى ١٣٧٤ طناً سنة ١٩٠٢ حسب بيان القونصول البلجيكي و بعد ان هبطت سنة ١٩٠٣ بسبب الكوليرا الى ٢٨٥٠ طناً بلغت سنة ١٩١٢ ٥١٢٠ طناً وكان للنمسا اليد الطولى في توريد السكر الى سوريا ولكن نافستها على ذلك في المدة الاخيرة مصر وفرنسا وروسيا

واذا دققنا النظر في نفوس حلب في هذه الدورة التاريخية نرى انها ارتفعت من نحو ستين الفاً بزمن (غوى) الى مائة وسبعة عشر الف سنة ١٨٨٨ ثم انه حسب الاحصاء الرسمي سنة ١٩٠٤ : ١٤٣٣٦٣ وقد تحسنت مواصلات حلب مع البلاد المحيطة بالمدة الأخيرة خصوصاً لارتباطها مع رياق وطرابلس و بغداد بالسكك الحديدية وتقدر نفوس

حلب اليوم ٢٠٠ الى ٢٢٠ الف نسمة ١٥٦ وقد استفادت حلب اثناء الحرب من موقعها الجغرافي نظراً لانقطاع المواصلات البحرية ورجعت قسماً لها من المواصلات التي فقدتها كما سبق ذكره على اثر افتتاح ترعة السويس وسهولة المناقلات التجارية وانما الحدود التركية الحالية وحدود العراق ربما وضعت لها بعض الصعوبات ولا شك ان قسماً من اسباب ازمتها التجارية الحاضرة تعود الى صعوبة مواصلاتها مع الاناطول والكردستان وايضاً عدم وجود سكة حديدية تربطها مع مرفأها الطبيعي اسكندرون لتخفيف ثقلة النقل وتجعل محصولاتها الزراعيه قابلة للدخول الى الاسواق الاوروبية بنسبة احتياجاتها الى بضائع الغرب .

هذا ما يخص تطورات حلب التجارية في هذه الدورة التاريخية ولندقق الآن في النشاط الاقتصادي العائد لثغرها الطبيعي : اسكندرون لما له من العلاقة مع ما سبق ذكره من حاصلات حلب التجارية مع الخارج .

لقد ذكرنا آنفاً بان اكثر القوافل الآتية والذاهبة من حلب الى الخارج كانت تأخذ طريق اللاذقية وطرابلس نظراً الى صعوبة غيره وعدم امنية المواصلات بينها وبين ثغرها الطبيعي اسكندرون وانما بعد تحسن المواصلات البحرية بين سوريا والغرب نرى ان البواخر الأجنبية اخذت تتردد الى مرفأ اسكندرون اذ هو احسن ثغر سوري ولقربه من بلدة حلب التي تشكل مدخراً للبضائع الاوروبية وانما لم تتسع حالتها التجاريه الا بالتتابع

خصوصاً لوخامة هوائها و كثرة الامراض الناشئة من المستنقعات المضرة باطرافها حيث انه حتى سنة ١٨٨٤ لم تشتمل على اكثر من ٣٠٠٠ نسمة من السكان (٣٨٨) وانما بعد سنة ١٨٨٥ اخذت تتحسن حالتها كما ترينا محمولات السفن الداخلة الى مرفأها التي ارتفعت سنة ١٨٨٥ من ٢٩١٥٦٣ طناً الى ٣٥١٠٨٤ طناً في سنة ١٨٨٦ و بقيت تقريباً على هذه السوية في سنة ١٨٨٩ ثم هبطت على اثر تغيب شركة البواخر الروسية عن زيارة ثغرها وفي سنة ١٨٩٠ الى ١٨٩١ لم تزد مجموع محمولات السفن التي رست بها عن ١٨١١١١ طن سنة ١٨٩٠ و ١٦٤٧٦٥ سنه ١٨٩١ وسبب هذا النقصان انتشار الكوليرا في سوريا كما بيناه في محله وقد ارتفعت محمولات السفن في السنين التي اعقبتها و بلغت سنة ١٨٩٢ ٣٣٩٥١٢ طناً ودامت تقريباً على هذه السوية في سنة ١٨٩٨ حيث ارتفعت الى ٤٠١٣٣٣ طناً ثم بلغت سنة ١٩٠٠ (٣٤٧٤٦١) طناً اما البضائع التي كانت تأتي بها السفن الى اسكندرون فاكثرها انكليزي حيث نرى ان واردات انكلترا متجهة اليها وكانت قيمة ذلك سنة ١٨٨٥ ايضاً عشرون مليون ونصف من الفرنكات ثم ارتفعت سنة ١٨٨٦ الى ٢٢٫٤ مليون و بقيت على هذه السوية الى ١٨٨٨ وحينئذ ارتفعت الى ٢٣٫٣ مليون وفي السنة التي اعقبتها الى ٢٤ مليون من الفرنكات ثم بلغت سنة ١٨٩٢ ٢٦٫٥ مليون من الفرنكات ثم هبطت

(٣٨٨) Fitzner Durch klenasien und Syrien 1903 page 180

بعدئذ في السنين التي اعقبتها الى ٢١ و ٢٠ مليون فرنك ولم تنهض الا سنة ١٨٩٧ حيث بلغت وارداتها اذ ذاك ٢٦ مليوناً من الفرنكات اكثرها عائد الى البضائع القطنية ثم النيل والادويه وما شاكلها واذا لاحظنا اصدارات اسكندرون الى انكلترا في هذه السنين نراها تدور حول مليونين من الفرنكات الا سنة ١٨٨٧ فانها بلغت اربعة ملايين ثم بلغت سنة ١٨٩٧ ٢،٤ مليون من الفرنكات اما التجارة الافرنسية في اسكندرون فكانت كما يأتي في نفس الزمن الذي دققنا بها التجارة الانكليزية سنة ١٨٨٥ كانت واردات اسكندرون من جهة فرنسا ٦ ملايين من الفرنكات ثم هبطت في السنين التي بعدها بالتتابع الى ٥،١ ملايين سنة ١٨٨٩ و ٣،٩ سنة ١٨٩٠ وبعد ان ارتفعت في سنتي ١٨٩٣ و ١٨٩٤ الى ٤،٥ ملايين هبطت سنة ١٨٩٥ الى ١،٦ مليون هذا ما كان من امر الواردات واما الصادرات فبقيت في سنة ١٨٨٥ الى سنة ١٨٨٥ تقريباً ثلاثة ملايين من الفرنكات الا في سنة ١٨٩٢ فانها سقطت قليلاً بمناسبة الكوليرا ثم انها زادت في السنة التي اعقبتها وبلغت ٤،٥ من الفرنكات وقد بقيت انكلترا محافظة على اوليتها في اسكندرون في السنين التي اعقبت حيث نرى ان وارداتها الى اسكندرون سنة ١٩٠٠ بلغت ٩٩٩١١٣ ليرة انكليزية بينما كانت واردات فرنسا ٩٧٦٧٣ ليره انكليزيه في تلك السنه ثم اعقبت انكلترا النمسا بواردات بلغت ١٠٨٩٥٥ ليره انكليزيه وتلك الواردات التي تدخلها النمسا

عبارة عن اثمان طرابيش وجوخ وسكر وتعقبها ايطاليا بمبلغ ١٨٦٦١٢ قيمة بضائع قطنيه وحريرية ثم المانيا بقيمه ١٣٥٠٠٠ (٣٨٩) واذا دققنا النظر في واردات الاسكندرون في سنة ١٨٩٢ نرى انها بلغت بهذه السنة ١،٨ مليون ليره انكليزيه ثم بقيت على هذه السوية تقريباً في سنة ١٨٩٥ فنا نراها هبطت ١،٤٤١ مليون ليره ثم ارتفعت بعد هذه السنه و بلغت سنة ١٨٩٧ مليونين ليره ونيف وفي سنة ١٨٩٤ بلغت ٢،٣ ليره ونيف و بلغت سنة ١٩٠٩ ٢،٠٤ ليره ونيف (٣٩٠) ونري ان هذه الواردات بلغت سنة ١٩١٠ مليون ونصف ليره انكليزيه ثم هبطت سنة ١٩١١ الى مليون ونصف ليره انكليزية وبقيت سنة ١٩١٢ على مليون وربع ليره انكليزيه اهم هذه البضائع الوردة كانت في السنين الاخيرة قبل الحرب اولا البضائع القطنيه بمبلغ يتراوح بين ٥٢٤٠٠٠ ليره انكليزية (وفي سنة ١٩١٠) و ٥١٠٠٠٠ ليره انكليزيه سنة (١٩١٢) ويعقب هذه البضائع قيمة قطعات الحديد والادوات الحديديه بقيمة تتراوح بين ماة الف ليرة انكليزيه ثم تأتي الانسجة الحريريه بقيمه هبطت من ١٣٤٠٠٠ ليره سنة ١٩١٠ الى ٦٨٠٠٠ ليره في سنة ١٩١٢ وكذا النيل فقد هبطت قيمة ادخالياته الى ١٥٠٠٠ ليره لتأخر الصناعات الوطنيه بحلب ثم يأتي الطحين من روسيا بقيمة ٥٥٠٠٠ ليره وزهاء ٥٠٠٠٠ جلود من الصين والهند لصنع الاحذيه المحليه بسوريا .

(٣٨٦) ارساليات البلجيك و ١/٤ ارساليات النمسا ثم ١/٢ راسا ليره ٥٣٠٢٧

(٣٩٠) Fitzner 182

اما اصدارات اسكندرون الى الخارج فكانت سنة ١٨٩٢ زهاء ٨٦٦٠٠٠ ليرة انكليزيه ثم ارتفعت بالتتابع الى ١٧٧٠٠٠ ليره انكليزيه في سنة ١٨٩٥ وبقيت على هذه السويه الى سنة ١٨٩٨ ثم هبطت الى ٩٥٠٠٠٠ ليره انكليزيه ونيف ثم ارتفعت في سنة ١٩٠٠ وبلغت بتلك السنه ١٬١٨ مليون ليره انكليزيه وفي سنة ١٩٠١ بلغت ١٬٢٢ ليره انكليزيه وبقيت حوالي هذه السويه حتى سنة ١٩٠١ ثم هبطت بعدها في سنتي ١٩١١ و ١٩١٢ الى ١٬٠٢ و ١٬٠٤ مليون ليره انكليزيه واهم هذه الصادرات قيمة في السنين الاخيرة قبل الحرب كانت المواشي من بقر وغنم ومعز الى مصر وتركيا ومالطه وقيمة هذه الارسالات بلغت في سنة ١٩١٠ ٢٣٩٠٠٠ ليره انكليزيه ونيف وبقيت سنة ١٩١٢ زهاء ١٩٢٠٠٠ ليره انكليزيه وبعدها اتت في سنة ١٩١٠ البضائع المحليه من الحرير السوري والصين والخيوط الانكليزيه بقيمه ١٩٣٠٠٠ الف ليره انكليزيه ونيف ثم هبطت سنة ١٩١١ الى ١٦٣٠٠٠ ليره انكليزيه وبقيت سنة ١٩١٢ زهاء ١٣٠٠٠٠ ليره وبعد ذلك اتت الشرانق بقيمة تتراوح ما بين ٦٠٠٠٠ ليرة انكليزيه لسنتي ١٩١٠ و ١٩١١ و ١٠٠٠٠٠ ليره انكليزيه سنة ١٩١٢ اما القطن فلم تزد اصداراته عن ٥٠٠٠٠ ليره انكليزيه سنة ١٩١٠ و ٣٠٠٠ ليره سنة ١٩١٢ ثم اخذت في السنين الاخيرة اصدارات السوس اهمية خاصة بحيث بلغت الاصدارات منها سنة ١٩١٢

١٣٨٠٠٠ مليون فرنك بواسطة التراثق الاميركي للتبغ لتستعمل هناك من طرف فبارك الدخان وقبلاً من ذلك ذهب الى فرانسا وكذا بلغت اصدارات الفستق ٦٠٠٠٠ ليره انكليزيه كل ذلك مما يدلنا على اتساع زراعة تلك الاشجار باطراف حلب وعينتاب وروم قلعه وافدا ارسلت هذه المحصولات الى انكلترا واميركا ومصر ومما يجلب النظر ان اسكندرون لم تصدر في تلك السنين اكثر من ٥٠٠٠ الى ماة الف ليره انكليزيه زبيب وتين يابس مع استعداد هذه البلاد الى زراعة هذه الاشجار المثمره وكذا السمن لم تزد ارساليانه عن ٦١٠٠٠ ليره سنة ١٩١٠ و ١٤٠٠٠ ليره في سنة ١٩١٢ ومما يهمنا من جهة الصناعه المحليه اصدارات اسكندرون الى تركيا ومصر مجوهرات ونقود مذهبه تراوح بقيمه ٩٥٠٠٠ ليره انكليزيه في سنة ١٩١٠ و ٢٠٠٠ ليره انكليزيه في سنة ١٩١٢ ومن البردقان والليمون كانت تصدر اسكندرون الى روسيا وتركيا بقيمة تبلغ زهاء ثلاثون الف ليره انكليزيه ومن الصابون بقيمه ٤٦ الى ٣٢ الف ليره و بعد هذه البضائع كانت تصدر جلوداً بقيمة تراوح بين ٨٩٠٠٠ ليره وذلك في سنة ١٩١٠ و ٢٠٠٠٠ ليره في سنة ١٩١٢ ثم من افيون ما قيمته تبلغ زهاء ثلاثة آلاف ليره وزيت ٦٢٨١ ليره سنة ١٩١١ و ١٤٢٨ ليره سنة ١٩١٢ ثم كم تعلمنا من الامور عن تأخر حالة البلاد الزراعيه الاعداد التي تخبرنا عن اصدارات اسكندرون للغنم التي لا تجاوز مع الشعير ٤٤٠٠ ليره انكليزيه سنة ١٩١٠ و ٩١٩٥

ليره انكليزيه سنة ١٩١٢ . وقد تأخرت اصدارات اسكندرون للصوف من ٥٥٠٠٠ سنة ١٩١٠ الى ١٧٦٠٠ سنة ١٩١٢ واكثرها يذهب الى الولايات المتحده هذا مايخص بتطورات اسكندرون الاقتصادية بعد افتتاح ترعة السويس وبذلك نرى التقدم الذي حدث بحياة البلاد خصوصاً من الوجه التجاري اما الاصدارات التي لها علاقة اساسيه مع الزراعة فهي لاتعقب هذه التحولات الا ببطئ كما هي العادة بكل البلاد الزراعيه وقد تأثرت اسكندرون اثناء الحرب من اجل انقطاع المواصلات بينها وبين اوروبا وليست هذه الحالة الا عرضية بحيث نرى انها ستأخذ موقعها قبل الحرب في برهة من الزمن خصوصاً بعد تنظيف اطرافها من المستنقعات وتحسين مرفأها الطبيعي وسيكون لهذه البلدة استقبال عظيم لا سيما بعد تقدم الاراضي الزراعيه اطراف سكة بغداد وتحسين المناقلات بين سوريا والاناطول والجزيره .

ولندقق فيما يأتي حالة اللاذقيه وطرابلس التجاريه في هذه الدورة التاريخيه : لقد رأينا ان تجار حلب كانت تأخذ طريق طرابلس او اللاذقيه عوضاً عن ان ترسل بضائعها نحو اسكندرون لعدم امنية الطريق وكثرة امراض هذا الثغر لذلك لم تكن اللاذقيه بلا اهميه اقتصادية بالنظر الى المحصولات من الدخان والزيتون والتين اليابس وسائر الاشجار المثمره وانما لم تبتدأ اهميتها الاقتصاديه حقيقة الا بعد اتساع زراعة اطرافها وتقدم نفوس

سكان جبل النصيريه الذي ضحت فرضته الطبيعة وهكذا نرى ان نفوس اللاذقيه ترتفع من ٦٠٠٠ نفس سنة ١٨٩٢ الى عشرة الاف نفس سنة ١٨٩٤ (٣٩١) ثم الى عشرين الف سنة ١٩٠٠ (٣٩٢) وفي سنة ١٩١٥ بلغت نفوسها ٢٥٠٠٠ نسمه (٣٩٣)

واذا دققنا النظر في مجموع محمول السفن التي زارت هذا الثغر بين ١٨٩٢ الى ١٩٠٠ نرى ان مجموعها بقي على التقريب زهاء ١٦٤٠٠٠ الى ١٦٥٠٠٠ طن الى سنة ١٨٩٦ وقد ارتفع بهذه السنه الى ٢٠٥٩٣٠ طناً وبلغ سنة ١٨٩٨ : ٢٣٨٨٠٦ طناً وقد قلت بنسبة تأثير ادارة الرجى على زراعة الدخان اصدارات اللاذقيه بحيث لم تزد في سنة ١٩٠٠ عن ٢١٦٧٦٩ طناً (٣٩٤) اما تابعية هذه السفن فنرى اكثرها طاً في سنة ١٩٠٠ كانت البواخر النمساويه ثم يعقبها البواخر الافرنسيه وفي ثلث درجة البواخر التركيه والايطاليه ولا تأتي البواخر الانكليزيه الا في رابع درجة و ٢١٠٣٣٠ طناً من هذه السفن كان عائداً للبواخر بينما ٦٤٣٩ عبارة عن سفن شراعية اما اصدارات اللاذقيه فهي كما ذكرنا : الزيت والليمون والتين والدخان وتصدر ايضاً كمية زهيدة من الشرانق بلغت سنة ١٨٩٩ (٥٢٥٠٠) فرنك وسنة ١٩٠٠ : ٤٣٧٥٠ فرنك اما الزيت فاصداراته تتحول بتحول الموسم

---

(٣٩١) Dambmann 37 (٣٩٢) Fitzner 191 (٣٩٣) Ruppin 178
(٣٩٤) Fitzner 191

وبلغت قيمة اصدارات سنة(١٩٠٠) : ٥٩٧٢٤ من الفرنكات وتصدر ايضاً اللاذقيه عدا عما ذكرنا كمية مهمة من زلال البيض الى مرسيليا وكذا كمية من الاسفنج واهم واردات هذا الثغر هي عبارة عن بضائع اوروبية خصوصاً الانسجة القطنيةوا كثرهامن انكلترا (وقد بلغت سنة ١٩٠٠ : ٤٠٢٥٠٠ فرنك بينما كان مجموع الواردات لم يزد عن ١١٥٠٠٠٠ فرنك) ثم من النمسا ايضاً ولم يزد قيمته عن (٢٥٠٠٠٠ فرنك) و بعدها انسجة حريرية من فرنسا بقيمة ١٢٥٠٠ فرنك وزيت كاز من روسيا بقيمة ١٣٢٠٠٠فرنك ثم ارز الجبل النصيرية وسكان الاطراف بقيمة ١٠٠٠٠فرنك يرد من الهند ومصر وكذا قهوة وسكر بقيمة ٢٤٧٠٠٠ فرنك يرد من مصر والنمسا وما اخر توسع تجارة اللاذقيه الا عدم وجود طرقات كافية تربطها مع حماه وحمص وجبال العلويين ولم تكن حالة اللاذقيه حسنة بين سنة ١٩١٠ الى ١٩١٣ حيث ا كثر الواردات هبطت كما ترى (اقمشة القطن سنة ١٩١٠ : ٨٥٠ حمل سنة ١٩١٢ : ٤٦٠ سنة ١٩١٣ : ٢٢٥.زيت كاز سنة ١٩١٠ : ٢٠٥٠٠ صندوق سنة ١٩١١ : ١٢٨٠٠ سنة ١٩١٢ ١٨٠٠٠ وكذا قلت اصدارات الزيت من ١١٠٠ طن سنة ١٩١٠ وسنة (١٩١٢) ٤٥٠ طناً وكذا هبطت اصدارات الدخان من ١٦٥ طناً سنة

(٣٩٤) Firtzner 191

١٩١٩ الى ١٢٠ طناً سنــة ١٠١٢ (٣٩٥) ومع الاسف ليس هناك تفصيلات اكثر من حركة ثغر اللاذقية التجارية اما الحرب فقد اضرت طبعاً بحياتها الاقتصادية لانقطاع المواصلات بينها وبين الغرب من جهة وصعوبة المواصلات من جهة اخرى ولكن قد تحسنت حالتها عقب انعقاد الصلح خصوصاً على اثر توسع زراعة الدخان ويمكن لهذه البلدة التي لعبت دوراً مهماً في الازمة السابقة كما رأينا ان تسترجع نوعاً من اهميتها الاقتصادية اذا تحسنت مواصلاتها مع الداخلية وتقدمت الزراعة خصوصاً في جبال العلويين هذا ما كان عن حالة اللاذقيه ولندقق النظر الآن في حالة طرابلس التجارية

لقد رأينا ان طرابلس التي كانت مدة طويلة فرضة لحلب تأخرت تأخراً اقتصادياً موازياً لتأخر هذه البلدة في اواخر القرن الثامن عشر كما سبق ذكر ذلك بحيث لم تكن تحتوي في سنة ١٧٩٢ على اكثر من ٥٠٠٠ نسمة ولكن اتساع حالة الاراضي الزراعية باطراف هذه البلدة والتنظيمات الادارية التي سبق شرحها في بداية هــذا الباب والاعتناء بتربية دود الحرير والبردقان ساعدت طرابلس لان تنهض من كبوتها الاقتصادية وابتدأت تتدرج في طريق التقدم التجاري والزراعي بحيث ارتفعت نفوسها في سنة ١٨٩٢ الى ٢٤٠٠٠ نسمة وبلغت سنة ١٩٠٠ زهاء ٣٠٠٠٠ الف نسمة (٣٩٦) ومحمول السفن التي زارت

(٣٩٥) Ruppin 336/37 (٣٩٦) Fitzner 194

هذا الثغر تقدمت بصورة ثابتة في سنة ١٨٩١ بينما كانت لم تتجاوز عن ٢٧٠٦٣٠ طناً فقد بلغت ٤٢١٢٤٢ طنا سنة ١٨٩٢ و ٤٢٩٧٢٣ طناً سنة ١٨٩٣ : ٤٤١٤٦٣ طناً سنة ١٨٩٤ : ٤٦٩٩٧٨ طناً سنة ١٨٩٥ ٤٦٥١٣ طناً سنة ١٨٩٦ : ٤٨٤٣٠٤ سنة ١٨٩٧ اما عدد السفن فقد زاد في هذه المدة من ١٨٠٠ سنة ١٨٩١ الى ١٩٢٣ سنة ١٨٩٧ ولكن البواخر الشراعية المحتوية على هذه الاعداد قد تأخرت من ١٩٠٠ سنة ١٨٩١ الى ١٥٣٠ سنة ١٨٩٧ ولم تدم الحالة هكذا بل ان منافسة بيروت زادت في المدة الاخيرة خصوصاً في البضائع الآتية من اوروبا وابتدأت ان تقلل من اهمية طرابلس التجارية التي اضحت سنة ١٩٠٣ تابعة لهذا الثغر بما يخص بالبضائع الاوروبية (٣٩٧) واذا بحثنا عن قيمة الصادرات نراها انها كانت في سنة ١٨٩٣ تبلغ ١١٩٩٩٠١٩ فرنك وكانت سنة ١٨٨٧ سبعة ملايين ونيف فرنك (٣٩٨) وسنة ١٨٩٥ ٧٧٧٧٠٠٠ فرنك ثم سنة ١٨٩٧ : ١٢١٢٣٤٥٨ فرنك (٣٩٩) ولم تزد الاصدارات في سنة ١٩١٢ عن ثلاثة عشر مليون من الفرنكات (٤٠٠) اما الواردات فلم تزد سنة ١٨٧٨ عن ١٠٣٥ مليون فرنك و بلغت سنة ١٨٩٣ : ١٨٥ ٨٨٠٧ فرنك وسنة ١٨٩٥

(٣٩٧) Recueils cons. Belge 1903
[٣٩٨] « « «
(٣٩٩) Dambmaun 37
(٤٠٠) Recueils Cons. belge 1913

١٠٧٥٠٠٠ افرنك وسنة ٨٩٧ : ١٤٨٨١٦٠٨ فرنك ثم بقيت في تأخر الى سنة ١٩٠٠ حيث لم تزد عن ٢٢٠٨٨٠٠ من الفرنكات ولكنها ارتفعت بعدئذ باتساع تربية الشرانق وزراعة البردقان وقد بلغت سنة (١٩١٢) ١٨ مليون من الفرنكات واهم البضائع الواردة الى طرابلس الخيوط القطنية التي بلغت سنة (١٩١٢) ٤٢٠٠٠٠ من الهند والنمسا وانكلترا ووجهتها صناعات حما وحمص ثم الجوخ بقيمة ٣٦٠٠٠٠ فرنك والجلود بقيمة ١١٠٠٠٠ فرنك ثم الاقمشة والكاز واما الاصدارات فأهمها الحرير ثم الشعير و الانسجه الحريرية واخيراً البردقان والصوف وفي سنة ١٩١٢ اخذت اصدارات البردقان الدرجة الاولى حتى بلغت ٣٠٠٠٠٠ صندوق ليمون و بردقان وقيمة الصندوق الليمون ٧ الى ١١ فرنك والبردقان ٣،٥ من الفرنكات و بعده يأتي الحرير والاسفنج والحنطة في السنين الجيدة (١٩١٢ سنة وسطى) ويذكر المعتمد البلجيكي ان من جملة اسباب تأخر الزراعة باطراف حمص وحماه توسع المهاجرة التي كانت فيما سبق محصرة باطراف لبنان وقد اخرت الحرب العمومية طرابلس من جهة انقطاع المواصلات مع الخارج وصعوبة المناقلات مع الداخل لتوقف سير القطارات على اثر قلة الفحم والاحتياجات العسكرية ثم تخريب هذه السكة ويمكنها ان تسترجع اهميتها الاقتصادية السابقة اذا حصلت على ميناء امينة وتحسنت زراعة التوت و باطرافها

وكثرت انتاجات حمص وحما الزراعية بنسبة استعداد التربه لذلك وستكون منافسة لبيروت كما كانت سنة ١٩١١ اي باتمام السكة الحديدية التي تربطها مع الداخل واذا دققنا النظر في حال حما وحمص الاقتصادية نرى ان الزراعة تقدمت فيها بهذه الدورة خصوصاً الخضر والاشجار المثمرة والحنطة بحيث بلغت نفوس الاخيرة سنة ١٩٠٠ حسب اخبار فيتسنهر ٦٠٠٠٠ الف (٤٠١) وسنة ١٩١٥ حسب روبين ٨٠٠٠٠ (٤٠٢) اما حما فارتفعت عدد سكانها من ٤٠٠٠٠ نسمة سنة ١٨٩٨ الى ٤٥٠٠٠ نسمه في سنة ١٩٠٠ والى ٧٠٠٠٠ نسمه سنة ١٩١٥ ويذكر فيتسنهر ان محصولات اطراف حما وحدها من الزراعة بلغت بزمنه ١،٢ مليون فرنك ومجموع محصولات لواء حماه ١٨ مليون من الفرنكات واما محصولات لواء حمص فبلغت حسب اخبار نفس المؤلف (فيتسنهر) ١٤،٥ مليون من الفرنكات عدا عن صناعة الحياكة التي انتجت في نفس الزمن بقيمة ٩،٦ ملايين فرنك كما سنسرده حين التكلم عن الصناعة في هاتين البلدتين

وبعدما سبق التكلم عن الثغور والداخليه نبحث الآن عن تطورات اهم ثغر سوري منذ ابتداء القرن التاسع عشر الا وهو ثغر بيروت:

علم من الابحاث السابقة ان مجموع محمول السفن الداخله لثغر بيروت

(٤٠١) Fitzner 196 (٤٠٢) Ruppin 137

او الخارجه منه لم يتجاوز عن ٧٨٥٢٠ طن في سنة ١٨٤٥ ثم ان هذه القيمه ارتفعت بالمدة الاخيرة بصورة باهرة خصوصاً بعد انشاء ثغرها سنة ١٨٨٧ وربطها بالسكة الحديدية مع الداخلية وقد بلغت سنة (١٨٧٩) ٣٥٣٤٢٢ (٤٠٣) طناً سنة ١٨٨٤ : ٤٤٧٥٣٥ طن وبقيت تقريباً على هذه السويه حتى سنة ١٨٨٦ حيث ارتفعت الى ٦١٨٦٩١ طناً ولكن نزلت بعدها الى ٥٣٠٠٠٠ طن ثم ٤٨٥٠٠٠ طن سنة ١٨٩١ بسبب الكوليرا ثم نهضت بعدئذ الى ٦٣٢٠٠٠ طن سنة ١٨٩٢ وبقيت زهاء ٧٥٠٠٠٠ طن الى سنة ١٨٩٦ حيث بلغت بهذه السنة ٩٥٠٠٠٠ طن وقد بلغت مجموع محمول السفن التي زارت هذا الثغر سنة ١٩٠٢ : ١٠١٠٤٠٠ وبقيت سنة ١٩٠٣ (٤٠٤) على هذه السويه ثم ارتفعت سنة ١٩٠٤ الى ١١٣٤٨٠ طناً وبعدها دامت على هذا الارتفاع بحيث بلغت سنة (١٩٠٥) ١٢١٣١٤٨٠ طناً وسنة (١٩٠٨) ١٥١٠٠٠٠ طن وسنة (١٩١٠) ١٦٧٦٢٢٠ طناً وبعد ان هبطت سنة (١٩١٢) على اثر حرب طرابلس الغرب الى ١٢٦٨٣٠٠ ارتفعت سنة (١٩١٣) الى ١٧٦٦٥٤١ طناً (٤٠٥) وقد ابتدأت بيروت ان تسترجع بعد الحرب ما فقدته من الاهمية الاقتصادية على اثر انقطاع الصلات التجارية بحيث نرى ان

(٤٠٣) Lohnis, Beitragzur Kenntnis der Levante 1882
(٤٠٤) Rec. Cons. Belge 1905 (41/47)
(٤٠٥) Ruppin 422

محمول البواخر ترتفع من١٢٩٢٢ ا طناً سنة ١٩١٩ الى ٦٩٢٢٠٢ سنة ١٩٢) و١٠٥٤٠٠٧ طناً سنة ١٩٢١ (٣٤١٣١٠ طن بواخرافرنسية ٢٢١٣٣٢ طنا انكليزية ٧ ٢٦١٥ طن بواخر ايطاليـة) هذا ما يخص بالبواخر الداخلـة المارة بثغر بيروت واذا دققنا قيمة الصادرات والواردات نرى ان الواردات التي كانت زهاء ٢٠ مليون فرنك سنة ١٨٥٤ كما رأينا ترتفع بعد فتح ترعة السويس الى ٢٤ مليون فرنك سنة ١٨٧٨ و بلغت سنة ١٨٨٧ وسنة ١٨٩٨ حوالي خمسين مليون فرنك مـا عدا سنة ١٨٩٢ حيث ارتفعت موقتـاً الى ٧٠ مليون فرنك وكذلك هبطت سنـة ١٨٩٥ الى ٣٨٦٢٩٠٠٠ فرنك على اثر انتشار مرض الكوليرا في مصر وقلة المواصلات بينها و بين اوروبا وو يتال كينه يعطى واردات بيروت بزمته حوالي ٤٣مليون فرنك (٤٠٦)

ويمكننا ان نقف على حالة صلاتهـا التجارية اذا دققنا في البضائع الصادرة منها والواردة اليها في السنين المرقومة ادناه .

سنة	واردات بيروت طن	صادرات بيروت طن
١٩٠١	٩٩٧٦١	٣٢٧٦٤
١٩٠٢	١١٣١٣٣	٣١٤٤٨

(٤٠٦) Vital Cuinet 1896 page 49

١٩٠٣	١١٦٦٦٦	٦ ٧٦١
١٩٠٤	١٢٧ ٠٠	٤٥٥٠٢
١٩٠٥	١٣٤٩٣٥	٤٦٦٩٧
١٩٠٦	٦٥٠٠٠٠	٧٧٠٠٠
١٩ ٧	١٥٧٧٤٨	٦٦١٣٧
١٩٠٨	١٧٠٦٦٩	٧٢٨١٨
١٩٠٩	٢٠٤٧٠٦	٦٥٤٦١
١٩١٠	٢٣٣٢٧٧	٥٠٩٣٤
١٩١١	٢١٦٩٦٦	٤٨٩٧٨
١٩١٢	١٤٥١٨٢	٥٣١٧٣
١٩١٣	١٩٣٨٠٤	٤٩٢٤٩
١٩١٤	١١٨٨٠٤	٣٣٠٥٨٨
١٩١٥	٦٥٠٠٠	١٨٥٧٦

وقد تحسنت الحالة في السنين التي اعقبت هذا التاريخ من جهة الواردات التي بلغت سنة (١٩٢٣) ١٦٣٣٤٩ طن اكثرها من انكلترا ثم فرانسا مع ان الصادرات دامت حوالي ٢٠٦٨٥ طن وقد ابتدأت حيفا ان تنافس بيروت على اثر وضع مكوساً خفيفه على البضائع الواردة من

مصر واخذت مقام بيروت بكثير من البضائع الاوروبية التي كانت تستوردها بلاد فلسطين والداخلية (كحوران) ثم ان تخريب خط دمشق — مزيريب اثناء الحرب جعل حيفا ثغراً طبيعياً للحبوب والمحصولات الحورانية التي كانت تأخذ موقعاً خاصاً بنشاط بيروت التجاري واذا بحثنا عن المواد المهمة التي كانت تصدرها بيروت الى الخارج نرى انها كانت سنة ١٨٩٤ من نوع الحرير ما يبلغ ١٥ مليون فرنك الى فرنسا وانكلترة ثم الزيت بثلاثة ملايين فرنك (لوندره) والصوف (مرسيليا اميركا) مايبلغ (١٣٠٠٠٠٠) فرنك والسوس ٢٥٠٠٠٠ فرنك (الى فرنسا اميركا) وسقمونيا بقيمة ٢٥٠٠٠٠ فرنك تذهب الى (فرنسا وانكلترا) ثم القطن ١٠٨٠٠٠٠ فرنك (مرسيليا لوندره) والاثمار مليون فرنك (تركيا يونان) والسمسم ٠٠٠٠٠، فرنك (الى روسيا وتركيا فرنسا) ثم من البقر بقيمة ٣ ثلاثة ملايين فرنكات (الى مصر) ومن الخيل بقيمة مليونين ونصف والمعز بقيمة ٥،٥ ملايين من الفرنكات والبغال بقيمة ١،٢ مليون فرنك الى مصر وتركيا.

ويعقب هذه البضائع اهمية الجلود والصابون والعظام والحنطه والشعير والاسفنج والتين اليابس الخ...

واذا دققنا النظر في الواردات نرى ان اعظمها قيمة انما هو الاجواخ التي بلغت قيمة وارداتها سنة (١٨٩٤) ٨ ملايين فرنك اما الانسجة الحريريه

(٤٠٦) Vital Cuinet Syrie-Liban et Palestine 1896 . 67

من ليون فهي تزداد في هذه السنة عن ٨٠٠٠٠٠ فرنك اكثرها ثمن للخمل رغم وجود الصناعات الوطنية وبعد الاجواخ فيه يأتي زيت كاز بقيمه ٢٠١ مليون فرنك ثم الارز بقيمة ١٠٦ مليون فرنك والانسجه ١٠٣ مليون فرنك والسكر بقيمة ١٠١ مليون فرنك ثم المحصولات الكيميويه بقيمة ٩٠٠٠٠٠ فرنك والادوية الطبيعية بقيمة ٧٠٠٠٠٠ فرنك وقد ادخلت بيروت من الصين وانكلترا حريراً بقيمة ٦٩٠٠٠٠ فرنك لرخص هذه المحصولات واحتياج الصناعات المحلية اليها وبزر الشرانق بقيمة ٣٧٥٠٠٠ فرنك ثم البضائع الزجاجية الخ ... (٤٠٧) واذا دققنا في واردات بيروت سنة ١٩٠٢ نرى ان قيمة الانسجه القطنية ترتفع الى ٧٤ مليونا من الفرنكات ثم الصابون بقيمة ٣،٦ مليون فرنك والخيوط القطنية بقيمة ٣،٣٣ مليون فرنك والبضائع الزجاجيه والورق بقيمة ٨٨ مليون فرنك ثم الكحول والجلود والاسلحة النارية والخيوط الصوفية الخ (٤٠٨) اما الاصدارات فقد ازدادت سنة ١٩٠٣ منها الحنطة والشعير على اثر تمة السكة الحديدية بين رياق وحما وذلك بنسبة من ٥٢ طن حنطة سنة ١٩٠٢ الى ٨٠٦ طن سنة ١٩٠٣ ومن ٢٠٠٠ طن شعير سنة ١٩٠٢ الى ١٧٣٠٠ طن سنة ١٩٠٣ اما الحرير فقلت محصولاته في هذه السنة على اثر منافسة حرير الصين كما بينا ذلك في ذكر الواردات وكذا زادت

(٤٠٧) Vital . Luinet 1893 page 66 / 70
(٤٠٨) R . e . Balge 1903

ارساليات عرق السوس من ٥٧٥ طن سنة ١٩٠٢ الى ١٨٠ سنة ١٩٠٣ وقد ازدادت ارساليات شعير بيروت سنة ١٩٠٥ وبلغت ٢٠٠٠٠ طن اكثرها من اطراف حماه وحمص ثم حوران وبلغت اصدارات القمر الدين ١٠٦٨ طناً والنقوع ٢٧٧ طناً وسنة ١٩١٠ ازدادت اصدارات بيروت من حنطه وشعير من اطراف حمص وحماه والبقاع بقيمه ٢ ٪ عن سنة ١٩٠٩ ولكن مجموع اصدارات بيروت قلّت على اثر اغتشاش الدروز وبعد سنة ١٩٠٩ نرى ان زراعة البردقان تتسع باطراف بيروت وطرابلس وتأخذ مكاناً مهماً ضمن الاصدارات اما زراعة القطن التي اعطت صادراتها ما يزيد عن مليون فرنك سنة ١٩٩٤ فقد ذهبت تماما من صفحة الاصدارات ولم تعد تذكر بها وبهذه الحالة نجد الحرير في بيروت يتأخر بسبب هبوط تربية دوده وتحول محصولات حماه وحمص عنها بعد بناء خط طرابلس حمص ثم منافسة حيفا لمحصولات حوران وقد اثرت الحرب على حياتها الاقتصاديه بصورة محزنه وهلك كثير من سكانها جوعاً وفقراً ثم اننا نرى ان تجدد المواصلات بينها وبين الغرب بعد الحرب ساعدها للتغلب على تلك الصعوبات خصوصاً سنة ١٩٢٠ حيث ان الداخليـة التي جمعت اثناء الحرب كثيراً من الذهب والفضه على اثر غلاء اسعار محصولاتها تتطلب بكثرة من البضائع الاوروبية لسد احتياجاتها المتراكمه منذ كثير من السنين وقد امتلأت بهذه السنه اسواق بيروت ومخازنها بالبضائع وانما لم يكن هذا النشاط

التجارى الا موقتاً و كثير من التجار غالوا بادخال البضائع دون ان يفحصوا احتياجات البلاد بصورة صحيحه ولذلك تضرر الكثيرون منهم مما انتج وقوف حركة البيع والشراء بعدئذ ولم يأت معرض بيروت بالفوائد المنتظرة لفقر البلاد على اثر الحرب وقلة الايادي العاملة وتأخر الزراعة التي هي اساس ثروة البلاد زد على هذا تحول اسعار الليره السوريه والتسهيلات التي تجرى للبضائع الداخلة الى حيفا من مصر وغلاء اسعار النقل على السكك التي كانت تأتي الى بيروت باكثر محصولات حلب التي تتوجه اليوم الى حيفا ومن الصعب ان يتنبأ المرء عن مستقبل بيروت ولكن عدم وجود اراضي زراعية واسعة باطرافها واحتياجها الى الاتيان ببضائع الشام على خط ضيق يجتاز علو ١٦٠٠ متر ووجود ثغور منافسة لها كحيفا وطرابلس واحتياج لبنان لحنطة البقاع كل ذلك يؤذن بان بيروت ستتعب بالمحافظة على مركزها التجاري الذي كان لها بمنتصف القرن الثامن عشر هذا بشأنها ولنتكلم الآن عن تطورات الشام التجاريه في هذه الدورة التاريخيه :

لقد علم من الابحاث السابقة ان واردات الشام سنة ١٨٢٣ كانت زهاء عشر ملايين من الفرنكات اهمها الاقمشة الاوروبيه (بقيمة ٣٫٤ مليون فرنك) ثم بهارات هنديه وشال قاشمير ولؤلؤ وطنافس وتنباك وحرير بما يقارب جمعه من ٤٫٥ ملايين من الفرنكات زد على ذلك الطرابيش والقهوة

والنيل وغير ذلك وقد دامت على هذه الحالة ولم يحدث تغير يذكر بحياتها الاقتصاديه الى سنة ١٨٦٠ حيث الاغتشاش الداخلي اضر بتقدم التجاري خصوصاً على اثر هجرة كثير من المسيحيين الذين كانوا متخصصين بالتجارة مع البلاد الاوروبيه ولكن تحسنت حالتها التجارية بعد ذلك لا سيما بعد تحسن الوسائط النقلية بينها و بين بيروت بواسطة الطريق الافرنسي ثم نرى ان وارداتها بلغت سنة ١٨٨٥ حسب رابورات (وثائق) القناصل الانكليزية سنة ١٨٨٥ : ١٧٩٣٩٠٠٠ فرنك ولكن لم تبق على هذه السويه بل هبطت حسب الرابورات المذكورة بالتتابع الى ١٠ مليون فرنكات ونيف سنة ١٨٨٧ ثم ارتفعت الى ١٦،٩ مليون فرنك سنة ١٨٨٩ (٤٠٩) وقد اضر بها انتشار مرض القوليرا سنة ١٨٩٠ فهبطت الى ١٥ مليون حسب بيان و يتال كينيه (٤١٠) والى ثلاثة عشر وربع مليون فرنك حسب اخبار القونصول الانكليزي واذا اعتبرنا اعداد و يتال كينه فقط للسنين التي اعقبت ١٨٩٠ نرى ان واردات الشام ترتفع بصورة متتابعه من عشرين مليون فرنك سنة ١٨٩٠ الى واحد وعشرين مليون فرنك سنة ١٨٩٣ وحسب الاعداد التي يذكرها دامبمان في كتابه خلافاً للرابورات الانكليزيه بلغت واردات الشام سنة ١٨٩٥ ٢٩٧٨٥٠٠ من الفرنكات .

(٤٠٩) Dambmann 449 (٤١٠) Vital-Cuimet 470

اما اذا دققنا هـذه الواردات نظراً الى البلاد التي اتت منها نرى ان انكلترا تأخذ هنا (كما ذكرنا في الدورة السابقة) الدرجة الاولى بالتجارة الشاميه وقد بلغت واردات الشام من انكلترا سنة ١٨٨٥ ما يقرب من ٩،٥ مليون فرنك من ١٧٦٤٩٠٠٠ مليون مجموع الواردات اى بنسبه ما يقارب النصف ولكن لم تحافظ واردات انكلترا على هذا المبلغ في السنين التى اعقبت سنة ١٨٨٥ وبلغت سنة ١٨٨١ : ٧،٣٦ ملايين من الفرنكات وذلك تبعاً لتأخر مجموع واردات الشام حسب ما سبق ذكره ومنـذ سنة ١٨٨٧ بلغت واردات الشام الانكليزيه ٥ ملايين فرنك ونيفا وبقيت على هذه الحالة الى سنة ١٨٩٥ ما عدا سنتى ١٨٨٩ و ١٨٩٣ حيث بلغت في الاولى ٨،٩ مليون فرنك وفي الثانيه ٧،١٩ مليون من الفرنكات امـا التجارة الافرنسيه فلم تزد سنة ١٨٨٥ عن ١،٥٠ مليون من الفرنكات وبقيت تقريباً على هذه السوية الى سنة ١٨٩٥ وقد اتسعت واردات الشام في السنين التى اعقبت ١٨٩٥ حسب ارتفاع قيمة واردات ثغرهـا بيروت وحسب احتياج سكانها الذين بلغوا سنة ١٩١٠ حسب القونصول البلجكى ثلاث مأة الف نسمه وذلك على اثر توسيع الزراعة وجفاف المستنقعات التي كانت تفسد هوائها وخصوصاً بعد ربطها ببيروت وحوران بواسطة السكة الحديدية وانتهاء الخط الحجازي وقد بلغت وارداتها سنة ١٩١٠ ما يزيد عن ٣٨ مليوناً من الفرنكات اما اصدارات الشام فبلغت حسب رابورات القناصل

الانكليزيه سنة ١٨٨٥ ٨٩٧٦٩٢٠ فرنكا واذا صرفنا النظر عن تأخر وقتي سنة ١٨٨٦ يمكننا ان نقول ان اصدارات الشام بقيت على نفس السويه الى سنة ١٨٨٩ حيث ارتفعت بها الى ١١٤٠٨١١٥ من الفرنكات و بعد التأخر في سنتي ١٨٩٠ و ١٨٩١ بمناسبة القوليرا بقيت اصدارات الشام تقريباً على هذه السويه الى ١٨٩٤ وارتفعت بعدئذ الى ١٢ مليون فرنك ونيف وان اصدارات الشام تقدمت فيما بعد على اثر ما سبق ذكره من التحسينات بالمواصلات بينها وبين حوران والساحل ثم اتساع الزراعة بالاراضي التي هي بضواحيها وكانت قبلاً مهملة ومفردات واردات وصادرات سنة ١٩١٠ تعطينا فكره عن حالتها الاقتصاديه خصوصاً اذا قابلناها مع ما سبق ذكره عن نشاط الشام التجاري في الدورة التاريخية المتقدمة كما ان الصادرات قليلة وفي هذه السنة بمناسبة اغتشاش جبل الدروز . اما الواردات فتفصيلها كما يأتي :

	فرنك		
سكر	١٢٠٠٠٠٠	طرابيش	٤٠٠٠٠٠
حرير	١٣٢٥٠٠٠	فانيلا قطن	٣٠٠٠٠٠
قهوة من البرازيل	٨٧٥٠٠٠	اكياس فارغه	٣٠٠٠٠٠
انسجه قطنيه مطبوعة	٨٠٠٠٠٠	ورق	٣٠٠٠٠٠
جوخ	٨٠٠٠٠٠	قونسروه	٣٠٠٠٠٠

تنباك	٧٠٠٠٠٠	ادويه	٣٠٠٠٠٠
كاز	٦٣٦٠٠٠	صبغه انيلين	٢٠٠٠٠٠
حرير مخمل	٦٠٠٠٠٠	صباغ عادي	٢٠٠٠٠٠
بضائع زجاجيه	٥٤٠٠٠٠	خيوط	١٠٠٠٠٠
رز	٤٥٠٠٠٠	خيوط مشمعه	١٠٠٠٠٠
جلود نعال	٤٠٠٠٠٠	خيوط فضيه	٥٠٠٠٠
		صيني ومتنوعه	٥٠٠٠٠٠

واما الصادرات الشاميه سنة ١٩١٠ فكانت كما يأتي :

حنطه ٧٠٠٠٠٠ ، اقمشة حريرية ٣٠٠٠٠٠ ، شعير ٢٠٠٠٠٠ ، صوف ٢٠٠٠٠٠ ، قمر الدين ٨٠٠٠٠ ، (نحاس مطرز بفضه وذهب) اخراجات القيشاني ١٠٠٠٠٠ ، حمص ٦٠٠٠٠ ، جلود ٥٠٠٠٠ ، بزر مشمش ٥٠٠٠٠ اقمشة قطنية ٤٠٠٠٠ ، طنافس ٤٠٠٠٠ ، اقمشة صوف ٣٠٠٠٠ ، عرق سوس ٣٠٠٠٠ حبال ٢٥٠٠٠ ، طقوم مصدفة ٢٠٠٠٠ ، جوز ٢٥٠٠٠ ، amidon زلال ١٥٠٠٠ ، مشمش ١٦٠٠٠ ، زبيب ١٥٠٠٠ ، امعاء ناشفه ١٠٠٠٠ ، فستق ٦٠٠٠ ، لوز ٥٠٠٠ ، حب البركة ١٠٠٠٠

وقد تضررت الشام اثناء الحرب من انقطاع علائقها التجاريه مع الخارج وحوران واطراف حما الى السواحل خصوصاً وقد بقيت مركزاً لادارة سوريا وقد تحسنت حالتها الاقتصاديه بعد رجوع المواصلات مع فلسطين والعراق وهناك امل بتقدم صنائعها الوطنية لقلة منافسة الخارج اثناء الحرب وارتفاع اجور العمال والنقل في اوروبا بعد الصلح خصوصاً مركزها الجغرافي بجوار

العرب الرحل التي تحتاج الى محصولاتها الصناعة والبضائع التي ترد عليهم من الغرب وكذا على طريق بغداد والاناضول وممر الحجاج ولندقق الآن حالة ثغور فلسطين (حيفا عكا يافا غزه) التجاريةفي هذه الدورة التاريخية سنة ١٨٨١ كان عدد نفوس حيفا ٦٠٠٠ نفس (حسب اخبار لورتهت Lortet) سنة ١٨٨٦ قد بلغ عدد نفوسها (٨) آلاف نفس حسب بيان غوته ير Gothey (٤١١) سنة ١٨٩٤ حسب ويتال كينه ٩٩٠٨ نفس بتاريخ سنة ١٨٩٧ ، ١٢٠٠٠ سنة ١٩٠٤ ، ٤٠٠٠٠ سنة ١٩١٠ ، ٥٠٠٠٠ نفس (٤١٢) اما نفوس عكا فكانت سنة ١٨٨١ ، ١٢٠٠٠ نسمه وهبطت سنة ١٨٩٢ الى ١٠٠٠٠ نسمه حسب بيان ويتال كينه (٤١٣) وبقيت سنة ١٨٩٧ علَى هذه السويه ولم يزد عدد سكانها سنة ١٩١٥ حسب بيان روبين عن ١٢٠٠٠ نسمه (٤١٤) اي كما كانت عليه سنة ١٨٨١

اما يافا فكان عدد نفوسها سنة ١٨٨١ حسب لورتهت ١٠٠٠٠ نسمه وبلغ عدد سكانها سنة ١٨٩٢ : ٢٣٠٠٠ وسنة ١٨٩٧ : ٣٥٠٠٠ (٤١٥) وسنة ١٩١٥ حسب بيان روبين بلغ عدد سكانها ٤٠٠٠٠ نسمة اى ان عدد سكانها ارتفعت الى اربعة امثال بمدة ٣٤ سنه ولندقق الآن في نشاط هذه الثغور الاقتصادية وتطوراتها في هذه الدورة التاريخية .

(٤١١) Golhey, note de voy age 1886 vojaye 206
(٤١٢) Rec. Cons. belge
(٤١٣) Vital - Cuinet 101
(٤١٤) Ruppins 187 (٤١٥) Dam b mann 321

ارتفع محمول السفن التي زارت هذا الثغر في السنين الاخيرة قبل الحرب خصوصاً بعد اتمام خط حيفا وتحسنت مواصلات هذا الثغر مع الداخليه وضواحي حوران و بلغت سنة ١٩١٠ حتى ٧٧١٤٤ طناً ومع ان وارداتها مع واردات عكا سوية لم تزد سنة ١٨٨٦ عن مليونين من الفرنكات (٤١٦) نرى ان واردات هذا الثغر تتقدم في السنين الاخيرة وتزيد سنه ١٩٠٣ عن ٢٧٤٠٠٠٠ فرنك حسب بيان القونصول البلجيكي (٤١٧) و يظهر تقدم هذا الثغر بتدقيق وزن البضائع الواردة اليه مثلا السكر ارتفع من ٤١٥٤٠ كيساً سنة ١٩١٠ الى ٥٣٨٦ كيساً سنة ١٩١٣ ، الخيوط القطنيه والمصيص الكاز من ٨٠٥٠٠ صندوق سنة ١٩١٠ الى ١٠١٠٠٠ صندوق سنة ١٩١٣ والورق من ٧٠ طناً سنة ١٩١٠ الى ٤٨٩ طنا سنة ١٩١٣ وكذا نرى ان كمية السمسم تتقدم بصورة متتابعة ما بين سنة ١٩١٠ و ١٩١٢ حسب روبين (٤١٨) اما يافا فنرى ان وارداتها بقيت زهاء ١٠ الى ١١ مليون من الفرنكات الى سنة ١٩٠٥ بحيث ثبت ان تتقدم وتبلغ سنة ١٩١٠ ٢٥٣٥٠٠٠٠ فرنك حسب بيان القنصل البلجيكي وسنة ١٩١٢ : ١٤٩٠٠٠٠ ليره انكليزيه حسب بيان روبين . اما اصداراتها فقد ارتفعت من ٨ مليون من الفرنكات سنة ١٨٨٩ الى ١٩٤٤ مليون سنة ١٩١٠ و بقيت زهاء ٧٥٠٠٠٠ ليرة انكليزية سنة

(٤١٦) Danb 360 (٤١٧) Recu. Cons. belges 1903
(٤١٨) Ruppirs 387

٩١٣ او اكثر اصداراتها البردقان الذي بلغ سنة ١٩٠٥ ما يقارب ثلاثة ملايين فرنك ثم ارتفع سنة ١٩١٢ الى سبعة ملايين من الفرنكات (٤١٩) واهم الواردات الانسجة والاقمشة خصوصاً القطنيه التي بلغت سنة (١٩٠٥) ٤،٥ مليون من ١١،٥ مليون مجموع الواردات و بعدها السكر والادوات الحديدية والخشب وللسواح التي تزور هذه البلدة ذاهبة للقدس والتي تتراوح عددها ما بين خمسة عشر الى عشرين الفا اهمية خاصة بحياتها الاقتصادية (٤٢٠) وقد اضرت الحرب بتجارتها مع الخارج على اثر هبوط اسعار البردقان في انكلترا بمنافسة بردقان اسبانيا وهذه البلدة بازمة اقتصادية من سبب ذلك ومن الممكن توسيع دائرة البيع الى بلاد آخر خصوصاً مصر واميركا واستراليا ٠

✻ الصنايع السوريه منذ افتتاح ترعة السويس ✻

لقد رأينا فيما سبق حالة الصناعة السورية الى افتتاح ترعة السويس ولندقق النظر الآن في تطوراتها الى يومنا هذا ٠

ان تحسين العلاقات التجاريه بين اوروبا وسوريا وسهولة نقل محصولاتها الصناعية اليها على اثر رخص اجرة النقل بتحسن البواخر وتوسع السكك الحديدية في اوروبا وقد ابتدأت ان تنافس بصورة مضره صناعات البلاد المحلية وهكذا نرى الصناعة تتأخر تباعاً من ١٩٦٦ صنعة سنة ١٨٥٢ كما

(٤١٩) Rec Cons. B. 1903 (٤٢٠) Dam B mann 357

ذكرنا الى ١٣٩٥ صنعة سنة ١٨٨٩ (٤٢١) في الشام اما عدد العمال فانها تتأخر (من ٣٠٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠) عامل سنة ١٨٥١ حين مرور السائح الالماني شوبرت الى ٨٠٠٠ عامل سنة ١٨٨٩ ولكن لم تدع ابناء سوريا هذه الحالة ان تأخذ مجراها بل ابتدأت بعد منتصف القرن التاسع عشر بالاستفادة من الشرائط الاقتصادية التي تحولت بتقدم المناسبات مع الخارج والى استخدامها لتحسين حالتهم الصناعية وهكذا نرى انه مع تكاثر الاقمشة الواردة الى سوريا لتقدم صناعات البلاد وان كان ذلك دون ما كانت عليه في الازمنة القديمة وانما بعد تحسنا مهما بالنسبة الى اواخر سنة ١٨٥٠ وقد ابتدأ السوريون يسعون وراء احياء صناعات فقدت من صفحة الحياة الاقتصادية السورية كالصناعة المعروفة (بصنعة الظاهري) وهي عبارة عن صنعة النقش على الاواني النحاسية ادخلت الى الشام من جديد اثناء سنة ١٨٦٦ من طرف احد الشبان المدعو اسكندر بن يوسف ونانو (٤٢٢) اتسعت بعدها بالتتابع ونالت في ابتداء القرن العشرين اهمية خاصة بحيث بلغت اصدرات دمشق منها سنة (١٩١٠) ٦٠٠٠٠٠ فرنك وبلغ عدد العمال المشتغلين بهذه الحرفة في هذه السنة ١٠٠٠ عامل وقد ارتفع عدد عمال الاقمشة الشاميه وبلغ سنة ١٨٩١ بزمن وبـ ل كينه ٢١٠٠٠ عوضاً

(٤٢١) Bongeaud
(٤٢٢) Qou dsi, Corporation de Damas (Conrgés oriental 1883 15

من ٨٠٠٠ سنة ١٨٨٩ كما سبق ذكره وبينما صنائع سوريا تتدرج هكذا الى التقدم بضمار الصناعة القوميه نرى تجارة اوروبا تبارزها بسلاح جديد لتمنعها من فائدة تجارتها مع الاطراف التي حافظت على عوائدها الشرقيه ولم تقبل الرداء الاوروبي وذلك بتقليد الاقمشة السوريه في حين وضعها في اوروبا حسب الذوق الشرقي وهكذا نرى ان النمسا اسست معامل لتحمل على الاقمشة المعروفة بالقماش (الشرقي)

وكذا توفقت سويسرا الى تقليد (الديما) السورية بصورة لا يمكن تمييزها عن تلك الا برخص اسعارها وذلك بسبب استعمال الوسائط الميكانيكية ووفرة رؤوس الاموال في البلاد الغربيه وهكذا نرى ان الصنائع ثبت ان تتأخر خصوصاً الصنائع العائدة للمنسوجات الوطنية بحيث ان السواح الالمان او برهامه ر ، ه زيريح ا سمره ولم يجدا في دمشق سنة ١٨٩٩ اكثر من عشرة آلاف عامل منصرفين لهذه الصنعة (٤٢٣)

ولم تزل هذه الحرفة (٤٢٤) تتأخر حيث نرى ان عدد العمال المشتغلة بها تبلغ ٤٥٠٠ في سنة ١٩٠٢ حسب بيان وار بورغ وسنه ١٩٠٩ حسب بيان وكلي (٤٢٥) ما يقارب هذا العدد واذا تتبعنا انواع الاقمشة التي كانت تنتج في ولاية الشام نرى انها كانت سنة ١٨٩١ اولا الاقمشة

---

(٤٢٣) Obrhammer û Zimmerers, dureh Syrien, 1899 46
(٤٢٤) Warbourg, Syrien 1907 23
(٤٢٥) Roppin 316

القطنية ثم الالاجه واخيراً الديما واكثر هذه المصنوعات كانت ترسل الى بغداد والاستانة ومصر (طانطا) وقد بلغت قيمة محصولات اقمشة حمص وحما بهذه السنه ١٢ مليون من الفرنكات وحما تفوق اهمية من الشام من جهة صناعات الاقمشة بحيث نرى ان عدد عمالها بهذه السنه بلغ ٢٨٠٠٠ عامل بينما عدد عمال حمص لم تزد عن ٤٩٠٠ عامل اما كراسي الحياكة فكان عددها في هـذه السنة في الشام ٣٠٠٠ وفي حمص ٧٠٠ وفي حما ٤٠٠٠ ولكن لم تحافظ حما على اوليتها بحيث نرى ان عدد كرامي حياكتها تتأخر في سنة ١٩٠٢ الى ١١٠٠ في الوقت الذي عدد كرامي الشام ترتفع كما رأينا الى ٤٥٠٠ كرمي ونرى ان حمص ترتفع بهذه السنة وتأخذ اهمية خاصة لصناعة الاقمشة السوريه حيث بلغت عدد كرامي حياكتها ٨٠٠٠ وقد تقدمت حمص و بلغ عدد كراسيها سنة ١٩٠٩ عشرة آلاف اى ما ما يعادل عدد كرامي حياكة حلب بهذه السنة بينما هذا العدد يتأخر في حما الى ١٠٠٠ وفي الشام الى ٢٥٠٠

اما حلب فقد تأخر عدد كرامي الحياكة بها بالتتابع من ٥٨٤٤ سنة ١٨٩١ الى ٣٣٠٠ سنة ١٨٩٧ ولكن تحسنت حالتها في بدايه القرن العشرين و بلغت عدد كراسيها سنة ١٩٠٩ حسب بيان وكلي ١٠٠٠٠ كرمي (٤٢٦) اما الحرب فقد اضرت بحياة سوريا الصناعية لقلة الايادي

(٤٢٦) Ruppin 315

العاملة وصعوبة الاصدارات الى الخارج والاطراف البعيدة وهكذا نرى ان عدد كرامي الحياكة السوريه هبط من ٢٥٠٠٠ سنة ١٩٠٩ الى ٥٠٠٠ سنة ١٩٢٠ (٤٢٧) وهناك اهتمام في البلاد الى انهاض هذه الصناعة الوطنيه مما يسر له قلب كل وطني حيث ميزانية البلاد التجاريه بحالة مضرة لمنافع البلاد الأقتصادية لكثرة الواردات وقلة الصادرات كما رأينا فى الابحاث السابقه ونعلم ان اهم هذه الصادرات هى الاقمشة المتنوعه اللازمة لكسوة ابناء هذه البلاد التى كانت ترسل في السابق احتياجات الامم الاوروبيه من هذا النوع ولكن يجب ان لاتخدعنا العواطف التي لا تكفي وحدها للموفقيه الأقتصاديه بل يجب تدقيق المسئلة من الجهه الفنيه بصورة واضحه متناسبه مع الشرائط الطبيعيه والأقتصاديه التي لا يمكننا التأثير عليها الا بالتتابع وصرف الجهد اللازم لذلك وهناك عاملان يجب ان لا يبعدان عن اعيننا اولا ذوق سكان البلاد الذي بدأ ان يظهر في التفكرات الاجتماعيه ودخول الظواهر الاوروبيه نحوه ثانياً منافسة الامم الغربيـه للصنايع السوريه ومجاراتهم بها في هذا المضمار فاذا فرضنا ان السوريين عدلوا عن تفضيل الاقمشه الاوروبيه بدافع الوطنيه او ان الصنايع الوطنيه تقدمت بصورة محسوسه فلايمكننا ان نهمل مسئلة منافسه الاقمشه الاوروبيه التي تملك على شرائط اقتصاديه هى مفقودة الآن في سوريا واكثر التجار

[٤٢٧] Gilly la Syrie commurciale 191 page 8

الذين قامت بهم السوريون بدافع العاطفة دون ان يدرسوا الامكان الأقتصادى بقيت عقيمه كما يشهد بذلك معمل البلور في دمشق ومعامل الورق في بيروت وغيرها والحرب بدات بعض الشرائط التي كانت تساعد الصناعات الاوروبيه كصعوبه الحصول على المواد الابتدائيه وندرة المحروقات وغلاء اسعار العمال مما جعل للبلاد السوريه مجالاً لانهاض صنائعها الوطنيه وقد بدأت رؤوس الاموال الاجنبيه تستفيد من الشرائط المناسبه بسوريا وابتدأت ان تؤسس بعض الصناعات المستندة على الزراعة السوريه كالمطاحن العصرية ومصانع الزبدة وما شاكلها خصوصاً في فلسطين وسيكون لتعميم هذه الصناعات في سوريا اهميه اقتصاديه كبيرة خصوصاً اذا اتسعت صورة الاستفادة من مجاري المياه لاستحصال القوة الكهربائيه واستخدامها لتحريك المصانع العصريه وهذا ما تيسر لنا جمعه من المباحث في هذا الكتاب ونمسك عنان القلم عن الجرى في مضمار بقيه المواضيع الى كتاب آخر يليه يكون مشتملاً على مستقبل سوريا الأقتصادى ونرجو ان لا نالوا جهداً في استيعاب جميع المباحث على وجه يتجلى للقراء بابهى مجلى واتم مظهر مبتهلين اليه تعالى بان يسهل لنا السبل و يمنع عنا الموانع وهو الهادى الى سواء السبيل تم بعون الله تعالي في غاية سنه ١٩٢٣



« ويليه كتاب مستقبل سوريا الاقتصادى »

محتويات الكتاب

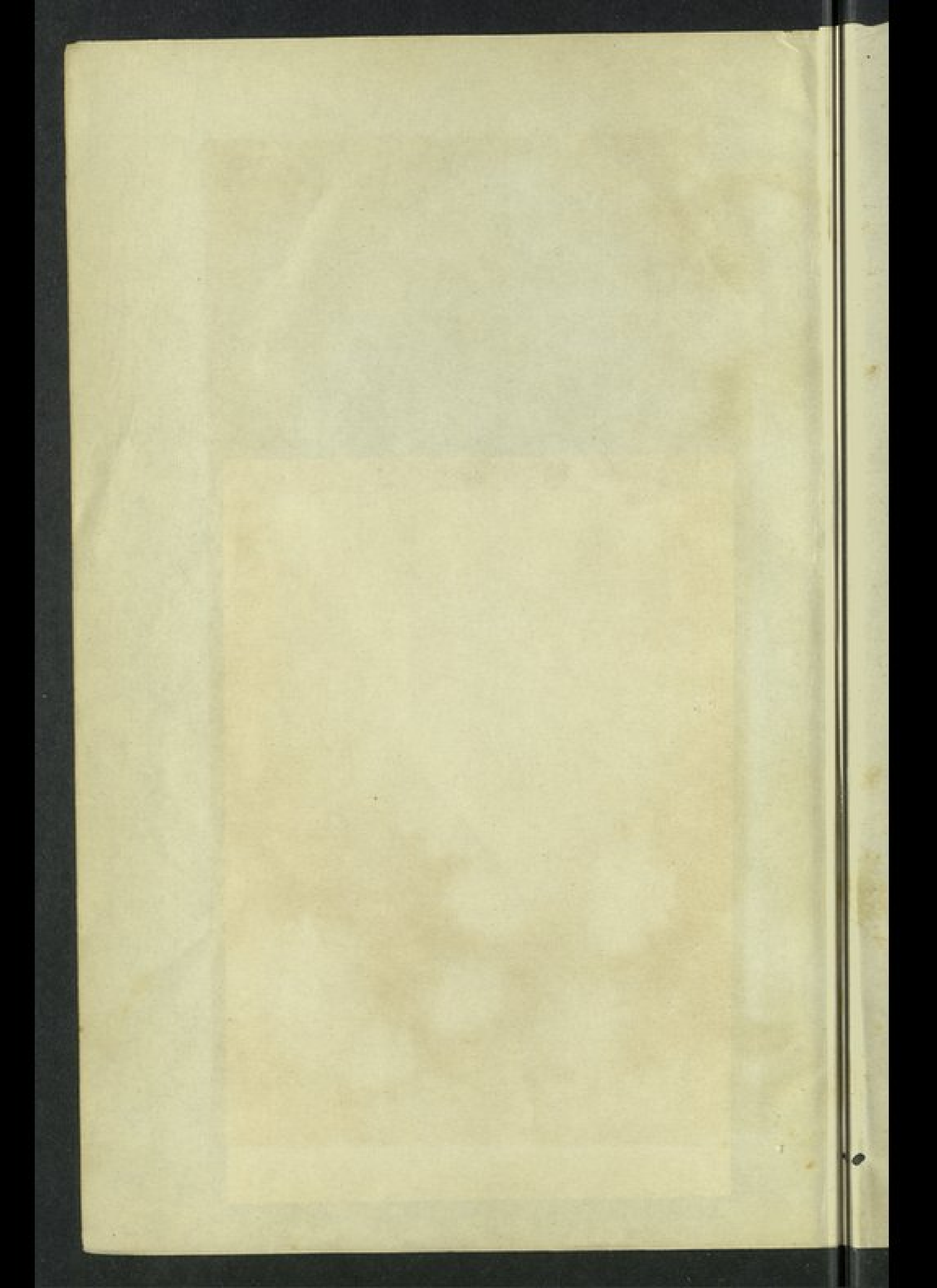
معذرة

نظراً لكثرة اشغال الوظيفة لم اتمكن من اجراء التصحيحات اللازمة بالاغلاط المطبعية وهي لا تخفى على ذكاء القارئ فمعذرة .

---

(١) ذكر سهواً حتى اكتشاف طريق الهند البحري

(٢) ذكر الباب الرابع سهواً وصحة الباب الخامس



DATE DUE

